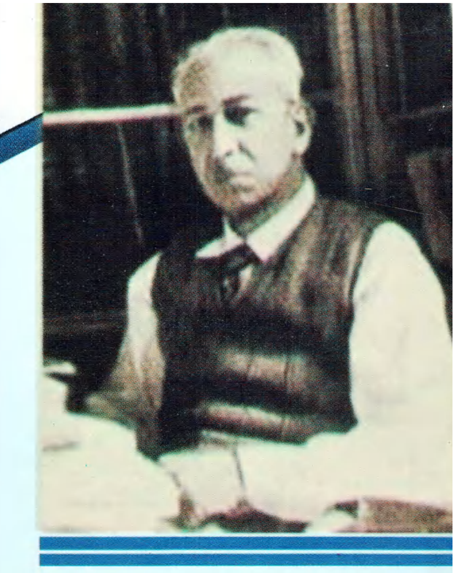
السيرة الذاتية 12



ما رأيت وما سمعت من دمشق إلى مكة

خير الدين الزركلي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ما رأيت وما سمعت
من دمشق إلى مكة

(1929)

خيـر الـدين الـزركلى، خيـر الـدين بن مـحـمـود بن
محمد بن على، ٨٩٣ ـ ٩٧٦.
مـا رأيت ومـا سـمـعت من دمـشق إلي مـكـة:
١٩٢٩/خيـر الـدين الـزركلى. ـ الـقـاهـرة: الـهيـئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.
٢٢٤ص؛ ٢٤سم.
تدمك ٩ ٨٠٠ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ العالم العربى ـ وصف ورحلات.
٢ ـ دمشق ـ وصف ورحلات.
٣ ـ مكة المكرمة، وصف ورحلات.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٥٢٣٠/ ٢٠١٤

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 800 - 9

ديوى ٩١٥,٣

ما رأيتُ وما سمعْتُ من دمشق إلى مكّة

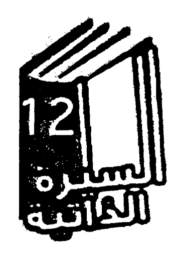
(1929)

خيرُ الدّين الزِّركليُّ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤



● الكتاب: ما رأيت وما سمعت

من دمشق إلي مكة

(١٩٢٩)

تأليف: خير الدين الزركلى

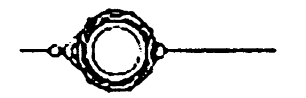
الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس

www.gebo.gov.eg

e-mail: info@gebo.gov.eg

نص الرحلة



أنـا لا أشـكو وبي في أمتي   وبقـومي كان أدلال الفخور!
إنـما توشـك أن تبـكـيني   غفـلة القـادة فينـا والصدور!

رحماك اللهم ربي! ورأفتك، بأمة أسلمت زمامها المقادير إلى زعماء، خبطوا بها خبط عشواء، وقادة حطاب ليل، ونذر ويل، تقمحوا بهـا مجاهـل الأمـور عـلى غـير هـدى، تسيِّرهم الأهواء والنزعات، وتلعب بهم الأغراض والنزعات، طالب منصب، وعابد درهم، وعاشق تاج! لا يبالون من أية الطرق كان لهم ما يبتغون، أو يكون!

قضي الأمر، وأراد التردد والـضعف وعمـى البـصيرة، أن تتفـق وزارة الـشام مـع ملكها فيصل بن الحسين، على تسريح الجيش إجابة لرغبة القائد الفرنسي الزاحف على ميسلون، ونزولا على حكمه، واستـشعر أهـل دمـشق في حكـومتهم إذعانـاً للطـارق الداهم، فأنفوا الاستسلام، وأبوا إلا أن يتركوا أثراً من الدم في صحيفة ذلك اليـوم.. فثاروا!

واضطرب المتربعون على كراسي الحكم في دمشق، فعمدوا إلى قمع الثورة بالعنف، فسادت الفوضى ظـلام ليلـة 20/ 21 يوليـو (تمـوز) 1920، وأقبـل الجنـد المسرحون، منتشرين في أحياء دمشق، يهتفون للاستقلال والـدفاع، تحـت رصـاص الرشاشـات، التي كان يطلقها رجال الأمن في المدينة، وانصرف الغوغاء إلى نهب ما في مـستودعات الحكومة، من أرزاق وذخائر وعتاد، وأصبح الناس فجـر يـوم الخمـيس (27 يوليـو)، والقتلى ممددة في الشوارع والأزقة، والجرحى محمولون إلى بيوتهم ومستشفياتهم.

ذلك حديث الأهالي. وأما الحكومـة، وكبيرهـا الملـك فيـصل، فقـد حـسبت إنهـا أحسنت الصنع بتفريق ما كان مجتمعاً لها من قوة الجيش، وسارعت إلى إعـلام المعتمـد الفرنسي في دمشق (الكولونيل كوس) بقبولها ما أراده لها الجنرال غورو[1].. إلا أنهـا لم

---

(1) غورو: قائد الحملة الفرنسية على سوريا، وقد عرف الإنذار الذي قدم لحكومـة فيـصل بدمـشق للقبـول

=

تلبث أن تلقت جواب خطابها، على غير ما كانت تخال.. كان الجواب تقدم القوة الفرنسية المعسكرة في (مجدل عنجر)[1] على مقربة من (رياق)[2] إلى الشرق. وعلمت حكومة الملك فيصل أن زلفاها[3] من المغير، لم تعد تنفعها، فبادرت إلى استماع ما يقوله الملك، فإذا هو يعلن الحرب..!

أعلنت الحرب بين دمشق والجيش الفرنسي.. وليس في ساحة ميسلون[4]، جبهة الدفاع، غير مائة وستين جندياً، لم يبرحوا أماكنهم حين تسريح الجيش العربي السوري، ترافقهم كوكبة من الهجانة[5]، ومعهم ستة مدافع من عيار 7،5 ورشاشات لا يزيد عددها على الأربع..!

هذه هي القوة، التي أعلن بها الملك فيصل حرب سورية على الفرنسيين، وهي القوة نفسها التي ثبتت في خنادقها ست ساعات، أمام الجيش الزاحف المؤلف، من أربعة آلاف جندي فرنسي وبين يديه ما استطاع من عدد وذخائر!

اللهم، وما أنس لا أنس اندفاع جماعات الأهالي، هذا يحمل زاد يومين، وذاك جعبة رصاص، وذلك رافع علماً يقسم به أن سيموت دونه!

كانت وقعة ميسلون، وتغلب الأكثرون، وأصبح يوم الأحد (25 يوليو 920)، وقائد الحملة الفرنسية (غودن) يستعرض جيشه، في شوارع دمشق وساحاتها!

ليس من شأني هنا أن أعدد، ما اقترفه قادة ذلك الجيش، من قتل الأسرى صلباً على جذوع الشجر، ورمياً بالرصاص حاولوا أن يكذبوا به، على الخلق من بثهم صنائعهم

= بالانتداب الفرنسي على سوريا باسمه، وهوالذي وقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبي وخاطبه هانحن عدنا يا صلاح الدين.

(1) مجدل عنجر: قرية تقع على الحدود السورية اللبنانية.

(2) رياق:منطقة تقع في لبنان.

(3) زلفى:تقربا وتوددا

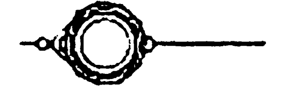
(4) ميسلون:اسم مكان يقع شمال دمشق، جرت فيه معركة بين الجيش السوري بقيادة وزير الدفاع يوسف العظمة والقوات الفرنسية الغازية.

(5) الهجانة:فصيل من الجيش خاص بالبادية مسلح بأسلحة خفيفة .

في بعض الفنادق، ليرشقوهم بالرياحين، فيقال: دمشق تفتح صدرها للمستعمرين..!

وليس من شأني أيضاً، أن أسرد تفاصيل تلك الفاجعة ومقدماتها، ونتائجها في هذا الكتاب، ولكن حسبي أن أقول: إن صديقاً لي لا أسميه الآن، رآني عصر ذلك اليوم، وقد خرجت لأبصر ما استقرت الحال عليه، فأخبرني بأن قائمة أسماء اطلع عليها خلسة، يريد المحتلون سوءاً بمن فيها، وأنه قرأ اسمي في منتصفها وحذرني أن أبيت تلك الليلة في منزلي، فشكرته وأطعته!.

في القطار



أصبحت يوم 26 يوليو (تموز) 920 متهيئاً للسفر، أخشى أن تقع على عين واش (7) فيصدني عن سبيلي، فبعثت بحقيبتي إلى القطار، وأقبلت- وهو على وشك السير- فلم يكد يهتز اهتزازة الانطلاق حتى كنت فيه، وفي الصدر وساوس وفي النفس اضطراب، لولا أن هوّن عليّ علمي بأن يد الغاصب، لم تزل بعيدة عن إدارة تلك السكة - سكة الحجاز-[1] وأن المحطة لم تبرح في مأمن من سيطرته حتى تلك الساعة.

شعر بي شاب، أذكر أني رأيته قبل ذلك، فأقبل عليّ مسلماً، والقطار يجري متجهاً نحو (محطة القدم)[2] ، أول محطة بعد دمشق في خط دمشق - حيفا، فعرَّفني أنه أحد موظفيه، ودعاني إلى الطمأنينة! فعجبت لأمره، وتظاهرت بأن ليس هناك ما يدعو إلى الاضطراب.. ولكن سرعان ما أدركت أنه واقف على دخيلة أمري[3]، وأنه أخوف عليّ مني، فنبّهني إلى أن ضابطاً وأفراداً من الفرنسيين، قد نيط بهم[4] النظر في راكبي هذا القطار، وأنهم ربما كانوا ينتظرونه في القدم. وأردف ذلك بقوله: أما أنا فقد هيأت

(1) سكة الحجاز: الخط الحديدي الحجازي الذي أقامه الأتراك في مطلع القرن العشرين لربط بلاد الشام بالحجاز.

(2) محطة القدم: تقع عند مدخل دمشق الجنوبي هي أكبر محطة على الخط الحديدي الحجازي.

(3) دخيلة أمري: ما خفي داخل النفس من هواجس ومشاعر وأفكار.

(4) نيط بهم: حددت مسئولية القيام بالعمل بهم.

لك مكاناً تختبئ فيه. قلت: أين؟ فأشار إلى موضع الفحم في القاطرة.. وانصرف بعد أن شكرت له غيرته.

كنت لابسا في ذلك اليوم بذلة بيضاء، فجعلت أنظر إليها وأتساءل في نفسي: كيف تكون هذه بعد دخول بيت الفحم؟! وغرقت في بحر الخواطر والهواجس فإذا القطار يصفِّر، فنظرت، فإذا نحن على مقربة من محطة القدم.. فعاودني الذعر!

واطرَّد لنا السير في سهل (الكسوة)[1] بين دمشق وحوران جنوباً تبعد محطتها عن دمشق 25 كيلو متراً، إلى أن قاربنا (المسمية) المحطة الواقعة في جنوب دمشق، وتبعد عنها 56 كيلومتراً، فلاح لنا عن بعد شبح جمع كبير، من الخيَّالة قد اكتنفوا[2] الخط الحديدي من جانبيه، ودنونا، فشهدنا بنادقهم، وهدفها القطار، فعلا ضجيج الركاب من الخوف، وكان إلى جانبي ضابط عربي- من جيش الشريف- حوراني الأصل، رأى ما رأى الناس فألقى (فيصليته)[3]عن رأسه، وظهرت وفرته وجدائله، وأطل من النافذة يصيح بلهجة القوم، مشيراً لهم- والقطار متثاقل في سيره: أن كفوا! فتعادى[4] بعضهم نحونا، وقد عرف صاحبنا أحدهم فناداه باسمه، فأجابه ذلك صائحا (ويش جابك)[5]، فصاح به: (ما هنا أحد!) وكنا قد بلغناهم. فأمالوا أفواه بندقياتهم واكتفوا بنظرات كانوا يلقونها على كل عربة من عربات القطار.

وعرفنا بعد ذلك أن جمهور الحوارنة[6]، كان قد علم بما صارت إليه حال دمشق، وأصبح يترقب زحف الإفرنسيين إلى احتلال حوران، فتهيئوا للدفاع، وأزمعوا[7] اعتراض قطار هذا اليوم، إن كان أحد منهم، ووصلنا بعد نحو ساعة إلى إزرع[8]،وقد

---

(1) الكسوة: بلدة تقع على مدخل مدينة دمشق الجنوبي على الطريق إلى حوران.
(2) اكتنفوا:أحاطوا بالمكان من كل جهة.
(3) الفيصلية: غطاء للرأس يشبه الخوذة كان الضباط يرتدونه أيام الحكم الفيصلي بدمشق.
(4)تعادى:عدا بمعنى ركض.
(5) ويش جابك: في لهجة سكان حوران بمعنى ما الذي جاء بك.
(6) جمهور الحوارنة: لقب يطلق على سكان حوران.
(7) أزمعوا: قرروا.
(8) إزرع: مدينة تقع على الخط الحديدي الحجازي في محافظة درعا(حوران) وتبعد عن دمشق 90 كم جنوبا.

بدأت مخاوفنا تتبدل أمناً وهواجسنا تنقلب اطمئناناً، فجددها حادث لم يكن في الحسبان!

ذلك أن خصاماً قديماً كان بين طائفتين من قاطني بلاد حوران، اتفق أن رجلا من إحداهما كان راكباً معنا، فنزل يريد دخول القرية، فاعترضه آخر من الطائفة الثانية، فتنازعا تلاطما[1]، وعمدا إلى السلاح، فانتصر للأول فتى، كان لم يزل في القطار، فشهر مسدسه وأطلق منه بضع طلقات، تهديداً لخصم رفيقه، ومن كان قد انضم إليه يعينه، فتألب[2] عليهما جمع، فاستدبر[3] الرجلان القطار، وتتابع إطلاق الرصاص حولهما، وارتفع الصراخ، وخشي الراكبون. وصاح صائح فينا: يا راياط[4] ويريد بها العسكريون (الانبطاح على البطن. يا شباب!).. فرأينا الحكمة في ما رأى، فأهوينا[5] منبطحين، نعفر ثيابنا بتراب الأقدام! خشية أن تعلق بأحدنا رصاصة طائشة تلدها الفوضى العمياء!. وانحدر أناس من القطار، لا يهتدون إلى أين يغتدون! ومضى آخرون إلى سائقه فهددوه بالنار إذا هو لم يمضِ بقطاره. فاضطر إلى موافقتهم وبرح بنا موقف الفتنة.

كل هذا حدث في بضع دقائق، وكان الوقوف المعتاد في هذه المحطة ربع ساعة، لحمل ما يراد نقله من حبوبها. ولم نبتعد عنها مسافة 300 متر حتى رأينا دخاناً كثيفاً، تصاعد من خلفنا وسمعنا دوياً لم نعرف حقيقته، إلا بعد أن بلغنا المحطة التالية خربة الغزالة[6]، وتقاطر علينا من بها مبتهجين بنجاتنا قائلين: إن لغماً قد انفجر بعد مضيكم، فنسف خط المحطة، فحمدنا الله وذكرنا فضل حادثة الخصام، التي فررنا منها وتمثل أكثرنا بقوله تعالى: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم"!

---

(1) تلاطما: تضاربا بالأيدي.

(2) تألب: تجمع وتدافع.

(3) استدبر: أعطى مؤخرته بمعنى أدار ظهره.

(4) يا رياط: كلمة تركية بمعنى انبطح أرضا.

(5) أهوينا: وقعنا.

(6) خرابة غزالة: بلدة تقع على الطريق بين دمشق ودرعا وفيها محطة قطار.

واستأنفنا المسير فبلغنا أذرعات[1]، وأهل الشام يسمونها (درعا)، وأهلها والبداة يقولون (درعاة)، فإذا مطعمها غاص بطائفة من أحرار سورية، علمت منهم أن الملك فيصلا، عاد صبيحة اليوم نفسه إلى دمشق، بعد أن كان قد انسحب منها إلى درعاة (أذرعات) فقلت: لعل له عذراً وأنت تلوم!

تناولت طعام الظهر مع طليعة المهاجرين، وحدثت بعضهم بما شاهدته، في طريقي من دمشق. فلم يشك أحد منهم، في أن فوضى حوران ستتصل بأذرعات. فاتفق أكثرهم على الرحلة إلى حيفا، فقصدناها يزيد عددنا على العشرين، بيننا خالد الحكيم وأمين معلوف وسعيد حيدر، وفؤاد سليم وبهجة الشهابي، وتوفيق اليازجي ورياض الصلح، وتوفيق مفرج ومعين الماضي. ومضت لنا ساعات في القطار، إلى أن بلغنا (سمخ)[2] وهي الحد الفاصل بين المنطقتين الشرقية والجنوبية من سورية المجزأة، وإن شئت فقل الحد الفاصل بين مستعمرتي فرنسا، وإنكلترا في سورية الممزقة..!

طال وقوف القطار في (سمخ)المحطة الجافة القاحلة، فانتظرنا مكرهين، مع المنتظرين، وجاءنا بالأخبار من لم تزود.. فعلمنا أن حكومة حيفا، قلقت لدنو هذا الوفد الكريم من أرضها.. فلم يسرها أن يسرح، في مغانيها ثوار فوضويون هائمون مطاردون منكوبون.. والتمست وسيلة للخلاص من شرهم.. فلم نجد، فأوفدت لاستقبالهم سبعة، من عيونها وإرصادها[3]، يقال أن أحدهم مدير شرطة (بوليس) حيفا، لا وفد ترحيب وتأهيل وتسهيل! بل وفد استراق[4] حديث والتماس هفوة وتجسس خبر!

قدم الوفد أفراداً غير مجتمعين، وقد تهيأنا لاستقبالهم بانقسامنا، إلى أربع جماعات،

---

(1) أذرعات: أو درعا هي المدينة التي تحمل محافظة حوران اسمها وهي تقع على بعد 125 كم جنوب دمشق.

(2) سمخ: بلدة في فلسطين تقع قرب الحدود الجنوبية لسوريا مع فلسطين.

(3) الإرصاد: المخبرون أو المترصدون.

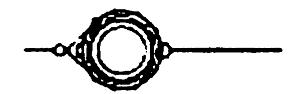
(4) استراق الحديث: التنصت من غير معرفة صاحب الكلام.

لكل جماعة منا عمل، فريق يمثل فصلا من رواية (العدل أساس الملك)[1] من روايات كشكش، وفريق ينشد الأشعار، وفريق يتغنى بأنواع الغناء (البلدي)، وفريق يراقب حركات الوفد القادم. وجعلنا آية دخول (أحد القادمين) في إحدى جماعاتنا، أن ترتفع أصواتها بما كانت عليه.

وكان الظن أن سنلقى رجالا، من ذوي المظاهر الخدَّاعة يندسون بيننا، فرأينا عمالاً مساكين أحدهم مشقوق القميص، وليس على منتصفه الأعلى سواه، والثاني منتفخ البطن، وقد لبس سروالا رمادي اللون رث الشكل، وبقية الجمع على هذا النمط البديع.. فاستمررنا في أعمالنا، وهم مبهوتون متحيرون. ولو نطقت ألسنتهم لسمعناهم يقولون: أيطرب هؤلاء بالتمثيل والغناء، وقد ذهبت بلادهم وضاع طارفهم وتالدهم[2]، أم تراهم كسواهم من فوضويي هذا العالم لا نظام يجمعهم، ولا قانون يردعهم؟ أم هم قوم لا يشعرون!

لم تكن مدة السير من سمخ، إلى حيفا أكثر من ساعتين. ولقد برحنا الأولى منذ صعد إلينا أضيافنا أو مضيفونا، فبلغنا الثانية والليل ينتصف. بتنا بقيته في بعض الفنادق، ثم تفرقنا في الصباح، زائرين ومزورين، وجائلين ومنزوين.

في حيفا



رافقني في حيفا صديق حميم! مغرم بمحادثتي! مغري بملازمتي! مولع بمماشاتي[3]، زعم أن صداقتي معه غير حديثة العهد، بل ترجع إلى تاريخ طويل، سرد لي مبادئه وخواتيمه.. ولكن، قبح الله ذاكرتي فقد خانتني. فكأني لم أعرفه، ولم أره قبل رحلتي هذه. وقد حاولت كثيراً، وكثيراً حاولت -كما يقول بعض كتابنا اليوم- أن

---

(1) رواية تقوم على الوعظ والحكمة.

(2) طارفهم وتالدهم: قديمهم وحديثهم.

(3) مماشاتي: السير إلى جانبي والمشي معي.

أذكر شيئاً عن هذا الصديق العتيق، في أيامي الخالية فلم ألهم. فعدت إلى تقدير أن اجتماعنا، كان في غير هذا الجبل، ولعله في صورة غير صور البشر على رأي القائلين بالتناسخ..! ينوي النزول به. فعزمت على زيارته. فنهضت باكراً، ومشيت متوارياً أريد الشاطئ، فكأني والصديق العتيق على ميعاد!...

قال: أين وجهتك؟ فقلت البحر! قال: وما تضع؟ قلت: أزور صديقاً لي فقال: ومن هو؟ قلت الرصافي -وما أتممتها، حتى صاح صيحة، خلت أن الله قد أراحني منه بالإغماء عليه فيها.

وأردفها بقوله: الرصافي! الأديب، الشاعر هنا[1]؟ هلمّ إلى زيارته.. فلنخض البحر للتمتع بأدبه، فمضينا، ووقفنا على الشاطئ، فأردت أن نركب مع جماعات الراكبين، فأبى عليّ ذلك، وأسرع، فنادى صاحب إحدى السفن الشراعية، قائلا: الانفراد أفضل! تفضل يا سيدي! ليس من الجائز -وأنت ضيفي!- أن أوافقك على الجلوس في ذلك المزدحم. فتمتمت كلمات، ونزلنا بعد أن دفعت الأجرة جنيهاً. ولقينا الرصافي، فسلمنا وتكلمنا والتحفظ ملء أفواهنا..!فضحكت لما في بيته من النكتة وانصرفت مع صاحبنا.. مودّعين! الصديق العزيز لم يكتف بأن لازمني بضعة عشر يوماً في حيفا، بل أراد أن يخدمني في غيرها أيضاً، وهذه غاية الوفاء والإخلاص في الود!!

علم مني أن في نفسي الرحيل إلى مصر، فوثب متطوعا، فكتب رسالتين إلى رجلين، زعم إن له بهما صلة ود في مصر، أوصاهما بي! فتناولت الرسالتين متظاهراً بالشكر، ولم ألبث أن مزقتهما بعد أن قرأتهما.

وفي حيفا علمت أن الملك فيصلا، ما كاد ركابه الغالي، يهبط دمشق آيباً إليها من (درعاة) حتى تناولت في قصره بأقصى المهاجرين[2] من أحياء دمشق كتابا بالفرنسية هذه ترجمته:

---

(1) معروف الرصافي: شاعر عراقي تميز شعره بنقده السياسي والاجتماعي.

(2) المهاجرين: أحد أحياء دمشق وسميت بذلك لأن سكانها كانوا من المهاجرين من جزيرة كريت وليبيا وفيها يقع قصر الأمير فيصل.

(دمشق في 27 يوليو 920).

من الكولونيل تولا[1] كان تولا مرافقاً (ياوراً) [2] للملك فيصل، رئيس البعثة الفرنسوية إلى صاحب السمو الملكي، الأمير فيصل بدمشق:

(أتشرف بإبلاغ سموكم الملكي قرار الحكومة الفرنسوية، وهو أنها ترجو منكم مغادرة دمشق بأسرع ما يستطاع، بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وبطانتكم، وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص، يبرح محطة الحجاز غداً 28 يوليو الساعة الخامسة. وأرجو يا صاحب السمو الملكي أن تقبلوا مزيد احترامي).

تولا

ولما لم يكن لجلالته مناص من الموافقة، أذعن مضطراً، وبرح دمشق، صباح 28 يوليو متجها إلى درعاة، حيث تلقى من رئيس وزارته (قبل ثلاثة أيام) علاء الدين بك الدروبي برقية، يقول فيها: (أن السلطة العسكرية تبلغ جلالتكم، أنها تطلب خروجكم من حوران، وإنها وضعت تحت أمركم قطاراً، فإذا لم تفعل له ذلك، ضربت قنابل طياراتها قرى حوران..). فرد عليه رئيس أمناء جلالته قائلا:

(إن جلالة الملك، لا يريد أن يصيب الأهلين ضرر ما بسببه)

وتبع ذلك تحليق عدد من الطيارات الفرنسية، في سماء حوران، ألقت على أهلها منشوراً تنذرهم فيه بوجوب رحيل (الأمير) فيصل، قبل انقضاء عشر ساعات، وإلا أصلتهم نارها الحامية، وخرَّبتْ قراهم وبيوتهم.. فأبرق جلالته إلى حكومة دمشق بعزمه، على مغادرة حوران مساء السبت (31 يوليو سنة 1920)، وأصبح يوم أول أغسطس (آب) في حيفا.

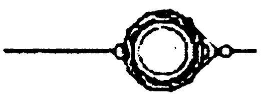
---

(1) تولا: المرافق الانكليزي للأمير.

(2) الياور: المرافق الشخصي.

أخبرني من لا أشك بصدقه أنه رأى لتلك فيصلا يتمشى في منزله بحيفا ويتمثل قائلا:

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته   وكل من لا يسوس الملك يخلعه



من حيفا إلى القاهرة

عزَّ على حكومة حيفا، بعد أن وقفت على حقيقة وفدنا الكريم، واختبرت أخلاقه وآدابه، بما نقله إليها أمثال صديقي -العتيق- أن تأذن لنا بالانصراف والبراح. وأبت إلا التعلق بأذيالنا واستبقاءنا إلى حين، فكان مثلها معنا مثل الإنسان، يبكي يوم يرى العالم، ويبكي يوم يفارقه!

ألححنا بسؤالها الأذن فلم يُجْد الإلحاح، وتوسط في الأمر ناس فلم ينفع التوسط. قلنا: ومتى يحل العقال؟ فقالت: حتى يأذن الله واللنبي [1]، فعمدت إلى الحيلة، وقد سئمت الانتظار والتريث. ورأيت من آثار برودة الدم الإنكليزي ما لا طاقة لي به ولا صبر عليه، فتهيأ لي بعد التفكير والكدّ، والتشمير عن ساعد الجدّ، أن أختلس السفر خلسة والقوم في غفلاتهم، فكتمت الأمر إلى قبيل نصف الليل، وحملت حقيبتي مهرولا إلى موقف القطار، فقطعت جوازاً بالركوب (تذكرة سفر) في الدرجة الأولى، وما كانت عادتي أن أركب في غير الثانية، ولكن خلو الثانية من سرير للنوم، ألجأني إلى اختيار الأولى.. فنمت! واستغرقت في النوم -أو في السرير- حتى أصبح الصباح، واستوى[2] المسافرون على مقاعدهم في القطار، وأنا مزّمل[3] بدثاري أراقب الذاهب والآيب، أكاد أحلم يقظاناً، كما يقول السيد توفيق البكري[4]:

قد كنت أحلم قبل اليوم في سنة   فصرت أحلم بعد اليوم يقظانا!

---

(1) اللبني. الحاكم الانكليزي لمصر آنذاك.
(2) استوى : جلس مستقيما.
(3) مزمل : متدثر.
(4) توفيق البكري: شاعر سوري ولد في اللاذقية.

تظاهرت بالنوم خشية أن يراني من يعرفني، ولاسيما الصديق العتيق فيستوقفني قبل أن أستلم الطريق! وتحرك القطار فتحركت. ومشى فجلست. وليس في خبر الرحلة، من حيفا إلى القاهرة، ما يجدر بي أن آتي عليه، إلا وقفة صغيرة في القنطرة[1].

للحكومات حق في أن تسأل الركاب عن الأماكن، التي سينزلون بها، وفي عملها هذا فائدة للأمن وللصحة العامة، ولكن القوانين لا تراعي الأحوال، التي يسمونها الاستثنائية، فهي تعتبر كل قادم على البلد عارفا بمحله ومرتحله، منظما برنامجه، حاسبا حسابه، ولا يلتفت إلى أن عددا، يكاد يبلغ حد الوفرة من المسافرين، يضربون في البلاد ضربة المقامر، همهم أن يلقوا عصا التسيار، ويبلغوا وجههم من الديار! وهناك لا يبالون أين ينزلون. يأتون المدينة فيعترضهم صاحب فندق، فيمضي بهم أو صاحب بيت، فيمضون معه أو يلتمسون في فجاجها مأوى يؤويهم التيار، ما داموا فيها. ولقد كنت لسوء الحظ من الفريق الثاني في رحلتي هذه -فقط-، فأقبل المفتش يسألني أسئلته المعتادة، حتى انتهى إلى السؤال عن المكان، الذي أنوي النزول فيه. فحرت بماذا أجيبه.. وترددت قليلا، ثم لاح لي أن أحد من أعرف في حيفا، كان قد سمى لي فندقاً بالقاهرة اسمه (ناسيونال)، وآخر سمى لي فندقاً ثانياً اسمه (الكلوب المصري) فذكرتهما للمفتش. فعجب ثم ابتسم! فسألته عن سبب عجبه فقال: لقد سميت لي فندقين مختلفين، في حالهما كل الاختلاف. وأبان لي ما بينهما من الفرق، في عرف المسافرين، وأهل مصر، فاعتذرت إليه بجهلي المكان، الذي أختاره بعد بلوغ القاهرة. فقبل عذري ولكنه -مراعاة للأصول- قيدني في زمرة، من سينزلون في (ناسيونال)، وإن لم أزمع ذلك..

وليست هذه الأحدوثة وحدها، مما يدل على الرائق الموظفين، في تطبيق النظم والقوانين، فان أمام الباحث مواقف كثيرة، يعلم منها أن معظم ما بين أيدي الناس، من أنظمة الحكومات، إنما وضع ليكون دليلا للموظف لا قانوناً، وأن باب الاجتهاد واختيار الأصلح، لا يزال مفتوحاً على مصراعيه أمام الموظفين.

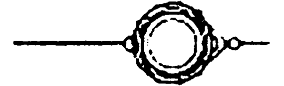
---

(1) القنطرة: بلدة تقع على الطريق بين العريش والقاهرة.

من هنا يتبيّن ما على رؤساء الأعمال، من الواجب الكبير في اختيار ذوي النظر والدراسة والأمانة، من جمهور المتقدمين لتسلم الوظائف، وتسنم المناصب، وفي صغار الأمور صور من كبارها.

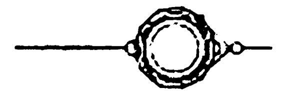
اجتزت القنطرة، وأقبلت على القاهرة، والدهشة من مناظرها الأولى، قابضة على مقاليد عقلي، وإذا بصوت يرتفع منادياً باسمي، فانتبهت وأطللت من النافذة، محدقاً في من أرى، فسرّى عني بعض ما أنا فيه، لقاء صديقي نصوحي البخاري، معتمد حكومة سورية التجاري بمصر، وأمينه (سكرتيره) عابدين الحشيمي، فُلم أرفع عنهما بصري، حتى قرَّ قرار القطار، واعتنقنا-على العادة- تسليما وتقبيلا!

نمت تلك الليلة في الطبقة الخامسة، من الفندق الخديوي (كيديفيال)، ونهضت في الصباح عاشر أغسطس (آب) سنة 1920، فتجولت فيما حول ذلك النزل، من الشوارع والأسواق، أرى ما يراه كل غريب مثلي، هبط مصر قبل أن يعرف غيرها، من كبريات المدن والعواصم. والخوف من أن أضل الطريق، يشغلني عن رؤية كثير مما أنظر إليه.



في القاهرة

ليس التعريف بالقاهرة، مما يستطرفه القارئ، فأفرد له جانباً من هذا الكتاب. وله أن يطلع إن شاء على ألوف المصنفات، في لغة العرب وغيرها، مما أشبع القول فيه بحثا وتحقيقاً، في تاريخ الاتصال بين مدينة المشرق والمغرب، في عصرنا الحاضر، ووصفها والتغني بجمالها والإشادة بذكرها. أما أنا فما يعنيني إلا أن أنقل عن (مفكراتي) بعض ما اشتملت عليه، مما يلذ غيري، ويفكهه وقد يفيده!



المطاردة

نادى باعة الصحف، في القاهرة معلنين عما في صحفهم بأصواتهم المختلفة: (حكم الإعدام بالشام)، فدعوت أحدهم فتسابقوا إليَّ، ديدنهم في كل يوم، فتناولت إحدى

تلك الصحف من أحدهم، وأجلت فيها نظري فاسمع -أيها القارئ الكريم- ما قرأت:

دمشق في 12 أغسطس 1920:

تناقل الناس يوم أمس نبأ، فزعوا منه بآمالهم إلى الكذب، وما لبث هذا النبأ أن أذيع، حتى أخذ الناس، يزدحمون أمام الجدران، ليقرؤوا إعلاناً، علق عليها وفيه:

(قرر المجلس العسكري التابع للفرقة الثالثة، من الجيش الفرنسي في الشرق، والمنعقد في دمشق في 9 أغسطس أن الأشخاص الآتية أسماؤهم مجرمون بالاتفاق والتحريض، ولكونهم عملوا الدسائس والتفاهم، مع أعداء الحكومة الفرنسية، لتسهيل مقاصدهم، لذلك حكم عليهم غيابياً بالإعدام، ومصادرة أملاكهم، ويعتبر هذا الحكم نافذ الإجراء منذ 10 أغسطس 920).

وهنا أورد الكاتب أسماءهم وأعقبها بقوله:

تلا الناس هذه الأسماء فتولاهم الوجوم، وأخذوا يتعجبون لتقلبات الأيام وعبر الزمان، ويعملون الفكرة في ما هم مقبلون عليه، من الحوادث الجسام. وقد عقد المجلس العسكري جلساته في دار المؤتمر السوري، وليس أصحاب هذه الأسماء هم المطلوبون وحدهم، بل هناك أسماء أخرى تعدُّ بالمئات، فيها الدنادشة والعاملون وغيرهم.

وإليك الأسماء مرتبة كما جاء في الأصل مع التعريف بأصحابها:

1- الشيخ كامل القصاب: من علماء الدين الناهضين وعضو في اللجنة الوطنية بدمشق.

2-علي خلقي: من ضباط الجيش التركي ثم العربي.

3- أحمد مريود: شاب متعلم ناهض من زعماء الوطنيين

4- الأمير محمود الفاعور: زعيم عشيرة الفضل في بادية الشام.

5- فؤاد سليم: من ضباط الجيش العربي.

6- صبحي الخضرا: من ضباط الجيش العربي.

7- صبحي بركات: من زعماء سورية الشمالية.

8- منح هارون: مندوب اللاذقية في المؤتمر السوري.

9- عوني عبد الهادي: أمين خارجية الحكومة السورية العربية.

10-شكري الطباع: تاجر. ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق.

11-سليم عبد الرحمن: من أهالي طول كرم بفلسطين.

12-عمر البهلوان: تاجر ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق.

13-عثمان قاسم: كاتب صحافي جريء.

14-سعيد حيدر: من علماء الحقوق ومندوب بعلبك في المؤتمر السوري.

15-عبد القادر سكر: تاجر ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق.

16- خليل بكر ظاظا: من ضباط الجيش العربي.

17- حسين رمضان: من زعماء الأكراد في دمشق.

18- الأمير عادل أرسلان: مستشار الملك فيصل. وأحد الزعماء المعروفين.

19- محمد إسماعيل: قائد فرقة حلب في الجيش السوري العربي.

20- رشيد طليع: مدير داخلية الحكومة السورية العربية ثم والي حلب.

21- إحسان الجابري: رئيس أمناء الملك فيصل.

22- احمد قدوري: طبيب الملك فيصل الخاص.

23- رفيق التميمي: مؤرخ. ومن أعضاء المؤتمر السوري.

24- توفيق اليازجي: صاحب جريدة الدفاع.

25- رياض الصلح: وجيه متعلم من المشتغلين في القضية العربية.

26- توفيق مفرج: كاتب. من أعضاء المؤتمر السوري.

27- خير الدين الزركلي: صاحب جريدة المفيد - ومؤلف هذا الكتاب.

28- محمد علي التميمي: من كبار المحامين.

29- بهجة الشهابي: مدير شرطة دمشق.

30- نبيه العظمة: مدير شرطة حلب.

31- شكري القوتلي: من وجوه دمشق ومتعلميها.

32- خالد الحكيم: مهندس. وعضو في المؤتمر السوري.

33- ياسين دياب: تاجر. ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق.

وإليك أسماء من تناولهم الحكم نفسه، ممن لم يذكروا في هذه القائمة:

34- أحمد سامي السراج: صاحب جريدة العرب في حلب.

35- منيب الناطور: صاحب جريدة الراية في حلب.

وشمل الحكم نفسه الآتية أسماؤهم من أهالي جبل عامل:

36- صادق حمزة.

37- محمود أحمد بزي.

38- رياض محمد حسن فرحات.

39- عبد المجيد محمد بزي.

40- محمود فرج سليمان.

41- موسى بوزقلي.

42- الشيخ عبد الله عز الدين.

43- طرفه حاج فياض شراره.

44- محمد سويدان.

45- أدهم خنجر.

46- علي حرب.

47- محمود قاسم.

48- عبد الحسين سرور.

49- نمر بليوز.

50- محمد تامر

51- سعيد يوسف ثامر.

وحكم بالحكم نفسه على زعماء الدنادشة من سكان (تل كلخ):

52- مصطفى العبد الله.

53- أسعد الفياض.

54- خالد الرستم.

55- عبد الله الكنج.

56- حسن الابراهيم.

57- أسعد الإبراهيم.

58- ذباج الأحمد.

وهناك أحكام بالنفي والمصادرة كثيرة، أتى على بعضها مكاتبو الصحف، حسبي أن أشير إليها.

جن جنون الفرنسيين في سورية! فلم يكفهم أن كانوا الجناة على استقلالها، القاتلين حريتها، الوائدين نهضتها، العائقين لها عن السير في سبيل الحياة، الباذرين في قلوب بنيها بذور البغضاء والشحناء، بل زادوا على ذلك كله مطاردة، من شاء لهم الهوى أن يطاردوه، من شبان سورية وأحرارها، فأعلنوا أحكامهم الجائرة!

ليت شعري! أذلك مصداق البلاغ المشترك، الذي أذاعته الحكومتان البريطانية والفرنسوية يوم 7 نوفمبر 918- ونصه:

> "إن الغرض الذي ترمي إليه فرنسا وبريطانيا العظمى، بمواصلتهما في الشرق تلك الحرب التي أثارها الطمع الألماني، هو تحرير الشعوب التي طالما ظلمها الترك، تحريراً نهائياً. وتأسيس حكومات ومصالح أهلية، تبني سلطاتها على اختيار الأهالي الوطنيين لها، اختياراً حراً وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم. وتنفيذا لهذه النيات، قد وقع الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات، ومصالح أهليه في سورية والعراق، اللتين أتمَّ الحلفاء تحريرهما في البلاد، التي يواصلون العمل لتحريرها، وعلى مساعدة هذه الهيئات، والاعتراف بها عند تأسيسها فعلا، والحلفاء بعيدون عن أن يرغموا سكان هذه الجهات، على قبول نظام معين من الأنظمة، وإنما همَّهم أن يحققوا بعونهم ومساعدتهم النافعة حركة الحكومات والمصالح، التي ينشئها الأهالي لأنفسهم مختارين حركة منتظمة، وأن يضمنوا لهم قضاء عادلا واحداً للجميع، وأن يسهلوا انتشار العلم، في البلاد وتقدمها اقتصادياً بتحريك همم الأهالي وتشجيعها. وأن يزيلوا الخلاف والتفرق، الذي طالما استخدمته السياسة التركية. ذلك هو ما أخذت الحكومتان الحليفتان، على نفسيهما مسؤولية القيام به في البلاد المحررة.".

ليت في الناس من يستطيع التوفيق بين مواد هذا البلاغ -على ما فيه من عرج وعوج!- وبين ما تقوم به إحدى تينك الحليفتين، في أرقى قطر سمتاه محرراً؟

لندع هذا وذاك، ولنعد إلى ما كنا فيه، فمجال الجدال واسع وميدان المناقشة فسيح، وفي مساوي الحليفتين هنا وهناك، ما فيه الغنية عن الإسهاب.

قرأت خبر الحكم بالإعدام، وتأملت في أسماء المحكوم عليهم، ورجعت إلى

ذاكرتي أسألها عمن بقي في قبضة المحتلين، ومن كتبت له النجاة، فابتهجت بالنازحين، وأشفقت على الباقين وأدركت أن هذه القائمة، هي التي اطّلع عليها من أوعز إلي بالرحلة يوم احتلال سورية، فهنأت نفسي بالسلامة، إذ كنت من الناجين!

الحكم الغيابي بالإعدام رهيب الوقع، على بعض النفوس، مثير لكامن الضعف فيها، ولكن سرعان ما يعلم المحكوم به عليه، أن للوهم صولة وتضمحل، وللإرهاب دولة وتدول[1]. زد على ذلك أن السوري، بعد أن عرضت أمامه المشانق أربع سنين متواليات، وصلب عليها من إخوانه وأخدانه العدد الوفير، لم يعد حكم الإعدام مما يخيفه أو يثبط عزمه، فليلتمس[2] محتلو سورية طريقة ثانية لبثّ الرعب في الأفئدة، وإماتة الشعور الحساس في النفوس، وقتل الإيمان الوطني في القلوب. ليلتمسوا أسلوباً آخر، لا يصيب الأجسام، فإنها ذرات تفترق وتجتمع، ولكن يصيب الأرواح، فإن فيها المقاتل.. وهيهات! عبثاً يحاولون وسدى ما يعملون..!

أقمت في القاهرة نيفاً وشهرين، توافد في خلالهما عليها أكثر، من برح سورية إثر احتلال الفرنسيين لها، واتفق أن خطر لي ولزميل لي في الصحافة، أن نكتب خطاباً للملك حسين، نعرِّفه فيه ببلوغنا مصر، ونسأله عما هو مزمع عمله لمقاومة، ما أحدثه الاحتلال في سورية من سوء المغبة. فكتبنا..

ومضت أيام يسيرة، فإذا بصديق لي يخبرني أن معتمد حكومة الحجاز في مصر، يبحث عني ويريدني، ولم أكن ممن زاروه قبل ذلك اليوم، فذهبت إليه، فعلمت منه أن الملك حسيناً، يدعوني لضيافته ويسألني هل أقبل الدعوة أم أوثر الإقامة بمصر، فأجبته بالانشراح إلى مشاهدة الأماكن المقدسة وزيارتها، فأبرق إليه بذلك منبئاً جلالته، بأن سفري سيكون في الباخرة (منصورة)، وأنني سأبرح السويس في 21 سبتمبر (أيلول) 920 وقال: تهيأ.

لم أكن أجهل أن أول شيء يجب على مزمع السفر، أن يفكر فيه هو الحصول على

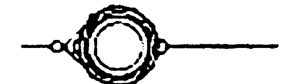
---

(1) تدول: تزول.

(2) يلتمس: يطلب ويرجو.

جواز، يبيح له الخروج من بلاد حكومة، والدخول في ثغور سواها، وما كنت لأطمئن إلى الجواز الذي تخطيت فيه حدود فلسطين، فراجعت معتمد الحجاز، وأوضحت له أن اضطراري للإسراع، في مغادرة دمشق والخوف، من أن ينالني أذى حكومتها قبيل السفر، قد حالا دون الفوز بالجواز المقبول، ورجوت منه أن يحشرني في سواد التابعين لحكومته الهاشمية، فأشار إشارة السرور والرضى، وأمر فأخرج لي جواز دل على أنني حجازي النسبة (التابعية) دمشقي المولد. سعيت به إلى دار الجوازات في القاهرة فلم تسعفني بتصديقه وإمضائه، وحجة موظفها في ذلك ادعاؤه المعرفة الخاصة بي، فعاقني عمله يسيراً، وهيأ الله لي فرجاً اجتزت به المضيق، فلم أبرز الجواز إلا في جدة!

من القاهرة إلى مكة



هممت أن أبرح القاهرة صباح 6 محرم سنة 1339هـ (20 سبتمبر 1920م)، لأدرك الباخرة (منصورة) قبل موعد سفرها، وكنت مقيما يومئذ في مصر الجديدة (هليو بوليس)، فدعوت من حمل لي حقيبتي، وخرجت أريد القطار الكهربائي (المترو)، حتى بلغته وهممت "44"، فأبى مفتشه عليَّ أن أصحب معي الحقيبة، معرضاً عن كل تصريح وتعريض، ورجاء وتوسل وبذل وعطاء. وضرب جرسه، فهب هبوب الريح، وأنا أنظر إليه وللغيظ والحنق في نفسي ما لها.. فأرشدني مقبل علي لتوديعي، إلى أن هناك على مقربة من موقف (المترو) سيارات، اعتاد أصحابها أن يقفوا بها، وأسرع فعدا، ثم عاد فبدا راكباً سيارة قفزت إليها، وطارت بنا تعصف وتقصف حتى أقبلنا على محطة القاهرة، ودخلنا، فإذا دخان القطار مرتفع، فشيعناه بالنظرات والحرسات..!!

أصبحت شديد الحرص، على ألا تفوتني هذه الباخرة، لثلاثة أسباب، الأول: أن معتمد الحجاز قد أبلغ جلالة مليكه أن حضوري سيكون فيها، والثاني: أنني ودعت الأصدقاء وودعوني، والثالث: أنني كنت قد أهملت حلق لحيتي نحو أسبوع، فان ظللت في القاهرة ذلك اليوم اضطررت إلى إزالة ما توفر منها! وليس بالسهل تجديده!

فانطلقت إلى سيارة، كانت على باب المحطة، فطلبت من صاحبها أن يسافر بي إلى السويس، فنظر إليّ، وكأنه أدركه العجب من هذا الطلب!

فقلت: كم تريد من الأجرة؟ فقال: عشرين جنيهاً..؟ قلت: ويحك! عشرة تكفي، فلم يعبأ بجوابي، فانصرفت إلى غيره، وبذلت اثني عشر جنيهاً فلم أفلح، وعسر علي أن أفتتح الرحلة بمثل هذه النفقات الباهضة، فحوقلت[1] وسبحلت وعدت أدراجي!

كدت أيأس من سفري هذا في يومي ذلك، لولا أن شجعني معتمد الحجاز، على المضي في قطار الظهر فمضيت، وأنا على مثل اليقين من أن الباخرة ستفوتني، لعلمي بأن القطار يبلغ السويس بعد ربع ساعة من إقلاعها، ولم أدر ما ينتظرني في محطة (النمسا) آخر محطة، قبل السويس، للذاهب من القاهرة.

وصلت إلى محطة النمسا، ففاجأني إنسان يحمل ورقة، كتب اسمي بها يسأل عني، فكدت أنكر نفسي ثم رأيت أن ألبيه، فأجبته، فبادر إلى حقيبتي -ولا أعلم ما يريد منها- فانتزعها من القطار انتزاعاً، وأسرع قائلا: الحقني[2] يا سيدي! فنزلت أعدو خلفه، فبصرت بسيارة ينتظرني فيها أحد تجار السويس، فركبتها وانطلقت بنا انطلاق السهم من بين قابين[3] ثم أخبرني التاجر أن معتمد الملك، كلّمه بالهاتف (التلفون)، وأننا بركوبنا السيارة سندرك الباخرة قبل مسيرها. وكان الأمر كذلك.

اخترقت بنا الباخرة(المنصورة) أمواج البحر الأحمر- وإن شئت فسمِّه بحر القلزم كما كان أسلافك يسمونه - وكانت هذه أول مرة ركبت بها البحر، فجعلت أنظر يمنة ويسرة، نظر الواله الخائر المشدوه، التمس مسافراً تطمئن إليه نفسي، ولكن كان موسم الحج قد انتهى، وكانت البواخر تذهب فارغة من مصر، لتحمل من بقي من الحجاج في جدة، فأوحشتني العزلة، وكنت آنس بها، وضاق صدري، وما كنت لأعهده

---

(1) حوقل: قال لا حول ولا قوة إلا بالله.

(2) الحقني: كلمة باللهجة الشامية وتعني الحق بي واتبعني.

(3) قابان: طرفا قوس السهام.

يضيق، فتناولت كتاباً ادخرته لمثل هذه الليالي فجعلت أقلب صفحاته، لا أفهم ماذا أقرأ. وعدت إلى المشي سبهللا[1] في طول الباخرة وعرضها، والقمر المتلألئ في كبد السماء، سمير من لا سمير له، وأنيس من فقد الألف والخليل!

مضى بعض الهزيع الأول من الليل، وكأن الله أرسل إليّ إنسانا لم أعرفه، ولكني ملت إليه مقبلا عليه، فحييته، فأجابني، وحادثته فلذَّ لي حديثه، وما مرَّ على اجتماعنا بضع دقائق حتى أخذت أسمع منه شعراً وأدباً، فازددت به أنسا، وسررت حين علمت أنه أحد المشتغلين في الأدب، واسمه (حسني العامري) وله كتاب مطبوع في أخبار شعراء العصر، وهو يحفظ كثيراً من شعر البدو وقصصهم. وسألته لعل وجهته جدة، فأجابني أن موعد نزوله من البحر الصباح، فأسفت!

أصبح اليوم الثاني فمررنا بالطور[2] وفي الثالث اجتزنا ينبع[3]. وأخيراً، بلغنا جدة (بضم الجيم)، فأرست بنا الباخرة في مكان بعيد عنها، وأقبل عمال المرفأ وأصحاب الزوارق متسابقين، فجعلت أنظر لعل أحداً اعرفه، فإذا بقسطنطين يني من أدباء سورية يرحب بي، فنزلت. وكنت بعد عشرين دقيقة في الشاطئ، حيث انصرفت إلى دار ضيافة الملك، والمقيم عليها يومئذ قسطنطين.

تجردت في دار الضيافة من ثيابي، وتلفعت بحرامين قطنيين، وتوضأت ناوياً الإحرام واحتذيت قبقاباً[4] حجازياً، لا يدخله من الرجل غير باهمها، وتمشيت إلى السوق أتعثر وأتسكع، إلى أن بلغت دائرة المكوس (الجمارك)، ولقيت مديرها فسلمت عليه، فعرفني وكان قد علم بوصولي، فبادر إلى هاتفه فضرب جرسه وتسمَّع، ثم نهض قائما يردد كلمة: لبيك! لبيك! فلم أشك في أنه يحادث جلالة الملك، فصبرت إلى أن انتهى وقد أخبره بحضوري، فأبلغني أن جلالته يأمر أن أبرح جدة في ذلك المساء متوجها إلى مكة،

---

(1) السبهلا: السير بلا هدف.

(2) جبل في سيناء يقال إن النبي موسى تلقى ألواح الأوامر الإلهية عليه.

(3) ينبع: بلدة تقع على البحر الأحمر من جهة المملكة العربية السعودية.

(4) قبقابا: لباس للقدم يشبه الصندل مصنوع من الخشب والجلد.

وإنه قد أمره بالمحافظة على راحتي والعناية بي، فقلت في نفسي: كانت راحتي تقتضي أن أبيت في جدة، ولكن هكذا أراد الملك ولا مرد لإرادته في الحجاز!

وبعد ساعة واحدة كانت الشمس قد مالت للغروب، وكان مدير المكوس قد أعد لي ركوباً، يعرفه كل من يجتاز هذه المرحلة بين الثغر وأم صبح[1]، فركبت بصحبتي خادم أو دليل- لا أدري!- وعهدت إلى قسطنطين بإرسال ثيابي وأمتعتي إلى مكة مع الجمالة!

تنقلت في ذلك الوادي المكفهر بين رمال وتلال، وقد أثر بي تتابع السير بحراً وبراً، حتى كان منتصف الليل، فنزلنا في قهوة -أو مقهى كما يسميها بعض كتابنا- وراودت نفسي على الطعام فأبت، إلا كأسين من الشاهي (الشاي) واستلقيت أهم بالنوم، وطائي[2] الأرض وغطائي السماء، فلم يعلق في جفنيّ أثره حتى كان الخادم يوقظني، فسألته عما بدا له، فقال: الراحة هنا ساعتان! فنهضت متلكئا متكسراً، أتوكأ على رفيق الطريق، وأمسك لي رقبة البهيم[3] ليمنعه من الجري، إذ كان عنانه حبلاً لففناه على عنقه! فركبت واستأنفنا السرى[4].

بزغَت الشمس، ومكة منا على قاب قوسين- في ما تراءى لي- أو أدنى. فالتمست ممن معي أن يأذن بالراحة قليلا فأقنعني بأن ما بيننا وبين مكة لا يقل عن ساعتين وخوفني من حرارة الشمس إذا هي قاربت كبد السماء. فاستمر بنا السير متصلا بالسرى إلى أن كنا على أبواب أم فندق؟ فقال: لا! فقلت: لننزل في الحرم.

واخترقنا منازل مكة والضحى في رأده، فبلغنا الحرم وأكرمت الدليل، فانصرف بعد أن حملته ورقة، كتبتها إلى مدير صحة الحجاز الطبيب نديم صلاح وكان قد سمي لي في جدة.

---

(1) أم صبح : من اسماء مكة.

(2) وطائي: فراشي.

(3) البهيم: الحمار.

(4) السرى: السير ليلا.

دخلت الحرم من أقرب أبوابه إليّ، ودنوت من الكعبة فاستقبلني أحد الجالسين حولها، وقد رآني محرماً، فسألني هل أريد الطواف، فقلت: أما الساعة فلا، وسقطت على حصباء البيت العتيق "54"، والألم من متاعب ليلتي آخذ من جسمي مأخذه.

أجلت النظر في ذلك البناء المقدس، فراقني مشهد الطائفين حول قبلة عالم الإسلام. ولأن مرأى الحمائم تزدحم وتقتحم، وتروح وتغدو آمنات كل أذى راتعات في كل جانب، حرَّم الله صيدها فتوالدت وتكاثرت وأنست بالإنسان، فمنعها الله ميده وشره[1] ، وقديما ضربت العرب أمثالها بأمنها وألفتها فقالت (آمن من حمام مكة) و(آلف من حمام مكة). وقال النابغة شاعر الحجاز:

والمؤمن العائذات الطير، يمسحها ركبان مكة بين الفيل والسند!

وبينا أنا مستلق على الصعيد، أتقلب ذات اليمين وذات اليسار، إذ طلع علي شاب في رداء أبيض، ملتف بعباءة رقيقة اسود اللحية، لم أعرفه إلا بعد أن رفع صوته بالترحيب، فأجبته والدهشة من لقائه ملء نفسي: يوسف! يوسف!يوسف ياسين[2] ، لاذقي[3] المولد أأنت هنا؟

واعتنقنا فكأنني أنسيت كل ما لقيت، وجلس إلى جانبي فحدثته بخبري، منذ برحت دمشق وحدثني بخبره منذ برجها، ثم أعلمني إنه أطلع على ما كتبته إلى مدير الصحة، فسبقه إليّ. ولبثنا نتجاذب أطراف الحديث، والحديث شجون فقال: هلم لنطف[4] حول الكعبة، فنهضت وقد قلَّ ما كنت أشعر به من الألم، فلم نخط خطوات حتى سمعت زمجرة وتمتمة، فالتفتُّ فرأيت أحد المطوفين- وهم كثيرون- وسمعته يقول: يريد هؤلاء أن يقطعوا أرزاقنا! ففهمت أن نفسه حدَّثته بأن يوسف، سيقوم مقامه في الطواف بي حول الكعبة.. فضحكنا منه، وأسرعت إلى نقده ما تيسر من النقد فقفل شاكراً!

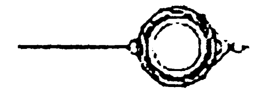
---

(1) ميده وشره: خيره وشره.

(2) يوسف ياسين:من أدباء سوريا. سكن الشام، وفارقها يوم الاحتلال.

(3) لاذقي: نسبة إلى مدينة اللاذقية الواقعة على الساحل السوري على البحر المتوسط.

(4) الطواف: الدوران حول الكعبة في موسم الحج.



قال يوسف وقد انتهينا من الطواف وعدنا إلى الاستراحة والحديث: ألا تزور سيدنا؟

فقلت: وعلى هذه الحال؟ قال: نعم! فقلت: لنفعل. وقمت وليس علي غير لباس الإحرام، فمشينا دقائق معدودات، انتهت بنا إلى (دار الحكم) وهي قصر فخم قديم البناء، دخلناه وصعدنا درجاته، ثم جلسنا في بهوه، وبادر المضايفي[1]، واسمه سعد فقصدَّ (المخلوان) حيث كان يخلو جلالة الملك بنفسه وزواره، فأنبأه بنا، فخرج الإذن بالدخول فدخلنا.

المخلوان غرفة صغيرة في جانبها الأيسر هاتف (تلفون)، وفي وسطها بضعة كراسي خيزران، ينحرف داخلها إلى يساره، فيرى أمامه دكة مستطيلة، في صدرها نافذة كبيرة تطل على الشارع، وعلى تلك الدكة[2] يجلس جلالة الملك، وبين يديه منضدة صغيرة عليها دواة بلورية وقلم من نوع القصب المعروف، في بعض سورية باسم (الغزّار).

دخلت على جلالة الملك، فنهض قائماً فأقبلت على يده لأقبِّلها، فبسط يديه قابضاً بهما وجهي فقبلتهما من باطنهما، وما كنت عالماً بشيء من أسرار تقبيل اليد في ذلك القصر، وكان أول ما كلمني به جلالته قوله: بلادكم يا ابني! هذه بلادكم يا ابني! فدعوت له، وأمرني بالجلوس فجلست، وهممت بالاعتذار لحضوري بثوب الإحرام، فأدرك ذلك مني وقال: إن لباساً يختاره الله لحجاج بيته لهو أفضل اللباس!

وأخذ يسألني عن حالي وحال بلادي وراحتي في طريقي، فكنت أجيبه، ثم انتبه إلى ما أنا في حاجة شديدة إليه من الراحة، فصفَّق بيدِّيه، فسمعت صائحاً من خارج الغرفة، يقول: خير ودخل المضايفي، فسأله الملك: هل هيأت كل شيء؟ فقال: نعم، فنظر إليَّ قائلا: ستر تاح اليوم في غرفتك، ونجتمع في المساء، فقمت إلى يده فقبلتها مودعاً، وهو يقول: مرحباً مرحباً!

---

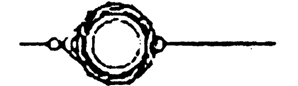
(1) المضايفي: المضيف.

(2) الدكة: مكان مرتفع يجلس عليه الملك.

وتوجه بي المضايفي إلى مكان في القصر نفسه، مؤلف من غرفتين وبهو، إحدى الغرفتين للنوم والإقامة والثانية للأمتعة، وجدار غرفة النوم مشرف على الشارع لا بناء فيه، وإنما هو نافذة واحدة كبيرة، ذات تقاطيع خشبية لم أر من نوعها في غير الحجاز، وأهل مكة لا يكثرون من البلور في نوافذهم، بل لا يكادون يعرفونه لاستمرار الحرّ عندهم صيفاً وشتاء، وكلّ جدران الغرف، المطلة على الشوارع، نوافذ من هذا الطراز.

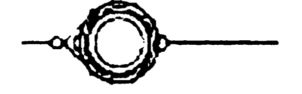
ألقيت بنفسي على مقعد في الغرفة فنمت ساعات متتابعات. وصحوت بعدها فإذا الشمس قد دخلت الكوى وبلغت موضع نومي فكانت هي التي أيقظتني بلذعات وهجها.

في القصر



ذلك هو المكان الذي ظللت فيه مدة مقامي بمكة، أتناول فيه الفطور صباحاً وأنام الظهر، بعد تناول الغداء، واقصد جوار (المخلوان) في وقت الغروب، فأصلي المغرب مع الملك وحاشيته وعبيده ومن حضر من أبنائه وأحفاده في مصلى خاص، يؤم بنا إمامه الشيخ ياسين البسيوني هو مصري الأصل مكي المولد والإقامة، طاعن في السن رضي الأخلاق والصفات. وبعد الصلاة نجلس للطعام على سفرة جلالة الملك، فيترأسها أحد أبنائه أو أحد قدماء أضيافه، أو كبير من رجال دولته، وأما الملك فيأكل في المخلوان منفرداً، إلا في الولائم الكبيرة الجامعة، وبعد العشاء ننصرف إلى ردهة القصر، فيتوافد زوار جلالته، بينما يكون هو قد أخذ نصيبه من الراحة، ويدعونا، فنذهب إليه فيستقبلنا جالسا، ونقبّل يدَّه ونمكث نحو الساعتين، ثم نعود أدراجنا.

وداع الأمير

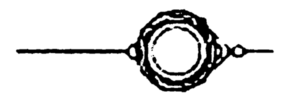


كان الملك حسين كثير التفكير في أمر سورية، وما صارت إليه أحوالها بعد رحيل ابنه الملك فيصل عنها، فرأى أن يوفد إلى جوارها أحد ابنيه عليّ وعبد الله، وعرف ابناه

ذلك فتقدم كل منهما إلى من يألف، من جماعة السوريين المقربين من أبيهما، يرغب إليه أن يحسن لجلالة الملك إيفاده وإيثاره على أخيه. وهكذا تردد الملك قليلا، ثم كان لالتماس الملتمسين بعض الأثر في نفسه، فاختار ابنه عبد الله وأوعز إليه بالتهيؤ، وأعلمه أنه سيكون وكيل أخيه فيصل في ما حول سورية من الأراضي، التي لم يحتلها الفرنسيون، وأعلن جلالته أن عبد الله سيكون أمير معان[1]، وهي آخر حدود الحجاز الشمالية. وأصبحنا يوم 16 المحرم 1339، فنزلنا في موكب حافل، يتقدمنا جلالة الملك إلى ظاهر مكة، حيث ضربت الخيام وتقاطر الناس للوداع من كل ناحية وصوب.

وهناك على منبسط من الأرض أمر الملك فمد بساط جلس عليه بعض حاشيته وضيفانه وكنت في جملتهم وابتدأ الحديث، فتكلم عن جبل (ثور) وكان قريباً منا، وأفاض في أحاديث مختلفة إلى أن أقبل ابنه الأمير عبد الله مودعاً، يصحبه نحو مائة وخمسين جندياً، من بدو الحجاز واليمن، ناشرين لواء احمر انتبّه إليه الملك، فقال مازحاً: غداً يقولون أنا بلشفيك![2]

وتكلم أحد الجالسين فقال: إن العلم الأحمر اللون، شعار قديم للأشراف، سبقوا به البلاشفة وغيرهم. وختم الاحتفال بسفر الأمير، ومن معه ركباناً على الإبل، وهو أمامهم ممتطياً جواداً أصهب. وتفرقنا آيبين إلى منازلنا، داعين له ولمن معه بالتوفيق، معللين الأنفس باللحاق به ولو بعد حين!



ذكر الطائف

لم تكن تفوتني الفرصة كلما سنحت لي، فأزور المعالم الأثرية والشعاب المعروفة، في تاريخ هذه البلاد، حتى كانت إحدى ليالي السمر في مخلوان جلالة الملك، فعرض ذكر مدينة الطائف وما هي ممتازة به عن سائر بلدان الحجاز، فتمنى أحد السامرين لو يتاح

---

(1) معان: مدينة تقع جنوب الأردن.

(2) بلشفيك: تسمية كانت تطلق على الشيوعيين الروس.

لي ولبعض من هناك من شبان سورية أن نراها، فصادف ذلك قلباً خالياً في الملك، فتمكن، وكأنه كان يحدِّث النفس في إراءتنا[1] أجمل بقاع قطره، وأفضل كور ملكه ليجمع بين الفضيلتين، يرينا الطائف زهرة الحجاز، ويريّحنا أياماً مما نعانيه من لفح الحرّ ولذع القيظ، فارتاح للإجابة وسألني، وسأل يوسف ياسين وغيره عن رغبتنا فأجبناه بالامتنان، فصفق بيديه أولا وثانيا، فلباه المضايفي، فاستدناه [2]، وأمره أن يهيئ لنا في الغد بغالا شداداً، وأخبره بإزماعنا[3] الرحلة إلى الطائف، وعدّد له كل ما يجب إعداده، حتى أنواع الطعام وأكواب الشاهي! وقال: موعدكم بالرحيل منتصف الليلة القادمة.، فأثنينا ودعونا، وأتممنا حصتنا من الليل في الكلام عن الهدة ووادي نعمان وكبكب وسمار ووج، وغيرها مما سنراه ونمر به في رحلتنا هذه، مبتهجين مغتبطين!

بين مكة والطائف

بدء الرحلة. في عرفه. إلى شدّاد. إلى الكر. جبل كرا في الهدة. إلى الطائف بدء الرحلة

ودعنا أبا قبيس وقعيقعان[4] واستقبلنا المحصب[5] والمنحنى، قبيل فجر الأربعاء ثامن صفر سنة 1339 لا قمر ولا هلال، ننظر ولا نبصر، حتى إذا اجتزنا منازل أم القرى، واتسع أمامنا رحب المنحنى، كان لنا من نور الكواكب هدى، ونجوم السماء يعرف من ضيائها ابن البادية وساكن الصحراء، مالا يعرفه ابن الحواضر، والمقيم بين المنازل المتراّصة والدّور المتلاصقة.

بلغنا المنحنى بعد دقائق معدودات، وهو واد بين جبال، أول ما يراه بارح مكة،

---

(1) اراءتنا: رؤيتنا.

(2) استدناه: طالب منه الاقتراب منه.

(3) الازماع: التقرير.

(4) أبو قبيس وقعيقعان: جبلان متقابلان في مكة.

(5) المحصب: مكان بين مكة ومنى.

يستقبل منه جبل النور كما يسمونه اليوم، أو جبل حراء كما كانت العرب تدعوه، وهو الجبل الذي كان النبي (ص) يتعبد في غاره، قبل النبوة وقد صعدناه منذ أيام، فإذا هو رفيع الذروة، عالي القمة، مشرف على كل ما حوله، من جبال مكة وهضابها وأوديتها وشعابها، وفي أعلاه قبة مشيدة غير قديمة البناء، ودون ذروته ذلك الغار المهيب، الذي سماه أحد رفاقنا بالمدرسة الإلهية إشارة إلى أن النبي (ص) تلقى به الحكمة، وأنزلت عليه أول آية، من آي القرآن الحكيم فيه. ولقد دخلنا الغار وهو لا يزيد عن مترين طولا، ومتر واحد عرضاً، خلافا لما قاله صاحب لرحلة الحجازية[1] من أنه متران مربعان، وأعجبنا آنئذ بقاء الغار على حاله في ترابه وحجارته، لم يصبه ما أصاب أكثر الأماكن القديمة من التحوير والتغيير، بل هو لم يزل كما كان منذ أربعة عشر قرناً، غاراً في جبل يمتاز عن أشباهه بارتفاع الجبل، الذي هو فيه بحيث لا يرى المستتر به من حر الشمس، وتساقط الغيث غير ما حوله، من جبال لا تبين إلا كالشعاب، وأودية لا تلوح إلا كقطع السحاب، يشعر المقيم فيه بلذة الوحدة وصفاء الانفراد، ولا يتمالك من الإغراق بالتفكير في عجائب، ما تحمل الأرض من طود شاهق، وماء دافق، وقفر سبسب[2] ومرج أعشب! وكان حراء عن يسارنا في هذه الرحلة، فواصلنا السير من المنحنى مارّين بالعقبة، وهي على نحو ميلين من مكة، بويع عندها النبي (ص) سنة 11 للنبوة، أي قبل الهجرة بعامين، وعند العقبة مسجد، ومنها يرمي الحجاج جمرة العقبة بالحصيات السبع. وما وخط الشيب رأس الظلام[3] حتى كنا على أبواب منى.

اخترقنا منى، والناس على أهبة النهوض من السجود، ولم ننزل بها غير أن آثارها، كانت تترجم لنا عما لهذه البليدة، من الشأن في أيام موسم الحج، فرأينا مَنَاخ المحملين

---

(1) الرحلة الحجازية: الرحلة الحجازية: من كتب أدب الرحلة لمحمد لبيب البتنوني، وضعها وصفاً لرحلة عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر الأسبق.

(2) سبسب: أرض سهلة ولينة.

(3) وخط الشيب رأس الظلام: تعبير يقصد به بداية اختراق أشعة النور لظلمة الليل.

الشامي والمصري[1]، ورأينا مقر الأسرة المالكة في أيام الحج، ولاحت لنا منازل منى عامرة، إلا من يسمونه مسجد الحسين.

قال النابلسي في رحلته،الرحلة الكبرى التي سماها (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز): قال القطب المكي في كتابه الأعلام عند ذكر السلطان قايتباي من ملوك الجراكسة: وفي أواخر سنة 874هـ والتي قبلها بنى السلطان المذكور مسجد الخيف بناءً عظيماً محكماً، وجعل في وسط المسجد قبة كبيرة هي حد مسجد رسول الله (ص) في خيف منى، وبنى أربع بوائك[2] من جهة القبلة، فصارت قبة عالية، فيها محراب النبي (ص)، وجعل للمسجد خوخة صغيرة إلى الجبل، الذي في سفحه غار المرسلات، وهو الموضع الذي أنزلت فيه سورة المرسلات. وفي هذا الغار مكان غائص في الصخر، يضع الناس رؤوسهم فيه.قال النابلسي عند ذكر وصوله إليه: فوضعنا رأسنا لأجل البركة، وكذلك الجماعة. وقال المكي في الأعلام: (ذكر الحافظ ابن الجوزي أن في مسجد الخيف، على يمين الذاهب إلى عرفات في هذا الغار- غار المرسلات- تجويفاً، في سقفه، تزعم العامة، أنه لان لرسول الله (ص) فأثر به، فيضع الزائر رأسه فيه تيمناً وتبركاً بموضع رأس النبي (ص). ولم أقف على خبر أعتمده في ذلك غير ما ورد في الأثر، من نزول سورة المرسلات فيه).

وفي منى مذبحان كبيران، تذبح فيها الضحايا في أيام منى، أحدهما للإبل والبقر، والثاني للضأن والمعز، وفيها صهاريج[3] تمتلئ من ماء زبيدة، يسمونها البازانات (الواحد بازان)

وللشعراء في منى شعر كثير، يعجبني منه قول العرجي:

نلبث حولا كله كاملا   لا نلتقي إلا على منهج

الحج إن حجت، وماذا   منى وأهله أن هي لم نحجج!

---

(1) مناخ المحملين: المكان الذي كانت تنزل فيه قافلتا الحجيج من مصر والشام.

(2) بوائك:ج بايكه وهي كلمة تركية تعني زريبة الحيوانات أو الاسطبل.

(3) صهاريج: ج صهريج هي الخزان الذي تجمع فيه المياه.

مررنا بمنى ووجهتنا المزدلفة، فاجتزنا بمضيق بين جبلين متوازيين، يسمونه (المهرول) لهرولة الحجاج به و(وادي النار)، لأنه الموضع الذي رجم أصحاب الفيل[1] ولم نبتعد قليلا عن هذا المضيق حتى لاحت لنا المزدلفة فاخترقناها وشهدنا المشعر الحرام وهو مصلى الإمام أيام الحج يصلي فيه العشاء والمغرب والصبح. والمزدلفة هي مبيت الحجاج، ومجمعهم للصلاة إذا صدروا من عرفات.

وفي مزدلفة صلينا الصبح، واتجهنا نحو مضيق الاخشبين فاجتزناه، والأخشبان اسم جبلي هذا المضيق، وفي معجم البلدان إنهما جبلان يضافان تارة إلى مكة، (فيقال أخشبا مكة) وتارة إلى منى (فيقال أخشبا منى).

ويلي مضيق الأخشبين مضيق آخر، أوسع انفراجاً منه، يسمونه المأزمين، يقع بين المشعر الحرام وعرفة. وقد يجمع بعضهم بين المضيقين فيسميهما الأخشبين أو المأزمين.

أن مررنا بمسجد نمرة، وهو قبيل عرفة، وبموضعه ضرب رسول الله (ص) سرادقة[2] في حجة الوداع. وأقبلنا على عرفة فنزلنا وتقيلنا.

الجبال صامتة، والديار خالية، كأن لم تكن مشتبك الأقدام، وملتحم الأقوام، ومعترك الأجسام، من أهل الإسلام!

عكفنا على نزل هناك، كما يسمّيه بعضهم، وهو بناء صغير من حجارة مرصوفة، مسقوف بقضبان من الخشب، تعلوها أغصان من شجيرات البر، وأبالات من نبات الجبال. وسرحنا الطرف في ذلك الوادي الأنيق، وعلى مقربة منا سلسال صغير من ماء زبيدة أقبل عليه سكان عرفات، يملئون قربهم ويسقون دوابهم.

وعرفة كما يقول البشاري في معجم البلدان، هي قرية فيها مزارع وخضر، ومباطخ[3] وبها دور لم نر هذه الدور، ولا آثارها، فلعلها كانت في زمنه واندرست[4]،

---

(1) عام الفيل: العام الذي هاجم فيه أبرهه الحبشي الكعبة لتدميرها ونقل الكعبة إلى اليمن.
(2) السرادق: كلمة فارسية تعني الصف أو البيت المستطيل الشكل.
(3) المباطخ: حقول البطيخ.
(4) اندرست: خربت وزالت.

حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة، والموقف منها على صحبة، عند جبل متلاي وبها سقايات وحياض1، وعلم قد بني يقف عنده الإمام. ويقال لها عرفة وعرفات وكلاهما صحيح، والثاني ليس بجمع وإن كان على صيغة الجمع.

ونقل النابلسي عن الزركشي أن لعرفات أربعة حدود:

1-ينتهي إلى جادة طريق السرف (وهو موضع قرب التنعيم).

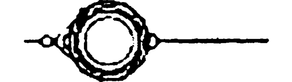
2-إلى حافات الجبل الذي وراء أرض عرفات.

3-البساتين التي تلي قرية عرفة (وهذه القرية على يسار مستقبل الكعبة إذا وقف بأرض عرفة).

4-ينتهي إلى وادي عرفة.

قال: وليس من عرفات وادي عرفة، ولا نمرة ولا المسجد، الذي يصلي فيه الإمام المسمى بمسجد إبراهيم، بل هذه المواضع خارج عرفات، على طريقها الغربي مما يلي مزدلفة ومنى ومكة.

إلى شداد



مكثنا في عرفة إلى أن بردت جمرة النهار، ونهضنا قبيل العصر، فجرينا في واد فسيح، تكتنفنا من جانبينا أشجار الطلح وأغصان السلم، وقد قيل لنا إن السلم ما دام دون الشجر، فهو سلم فإذا أرتفع سموه طلحاً، وهو المعروف في بلاد الشام بشجر العنبر والمسك، كثيرالشوك، زهره اصفر مستدير كالأكر الصغيرة زكي الرائحة، وورقه القرظ الذي يدبغون به.

ذلك الوادي الخصيب، هو (وادي نعمان) الذي أكثر الشعراء من ذكره. لم نكد نزجي إليه الرواحل، صادرين عن عرفة، حتى لاح لنا عن إيماننا واد آخر عريض

---

(1) حياض: تعني الأرض المروية.

الجانبين، يسمونه (وادي سهار) وهو كثير الخير، فيه قصر فخم للأشراف من ذوي زيد، وفيه آبار كثيرة، وكانت به عين جف ماؤها منذ سنين قلائل. وقد أخطأ صاحب الرحلة الحجازية، إذ عدَّ سهاراً بين عرفة ونعمان، في طريق الذاهب إلى الطائف، وسهار لا بفصل بينهما، إنما هو على مرمى بندقية من جنوب عرفة، يلمحه السائر منها إلى نعمان، عن بعد ولا يمر به.

وتوسطنا وادي نعمان، فإذا بئر يقولون إنها مبدأ عين زبيدة، افرد لها العصامي - فصلا خاصاً، في جزء اطلعت عليه مخطوطاً بمكة، وهو المجلد الثاني من كتابه (سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي)، ومجمل ما قاله في شأن هذه العين، أن السيدة زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد العباسي، رأت ما يعانيه حجاج بين الله الحرام، من قلة المياه فصرفت همها إلى شراء مزارع ونخيل، في أرض حنين[1] كانت تسقى بمياه عدة عيون، هنالك منها (عين مشاش) و(عين ميمونة) و(عين الزعفران) و(عين البرود) و(عين ثقبة)، فأبطلت المزارع، ووصلت بين هذه الينابيع، وساقتها بأقنية إلى عين نعمان، وهذه منبعها ذيل جبل كرا، فينصب الماء من ذيله في قناة إلى موضع، يقال له (الأوجر) من وادي نعمان. ثم أمرت بإيصال قناة نعمان إلى جبل الرحمة محل الموقف وجعلت الماء ينصب إلى البرك في عرفات ثم مدت الماء من مزدلفة ومنها إلى بئر عظيمة تسمى بئر زبيدة، ثم كانت تتخرب مجاري هذه العين، فعمَّرها مظفر الدين صاحب أربل سنة 605هـ وعمَّرها بعده الشريف حسين بن عجلان، ثم ذكر العصامي أسماء من تداولوا عمارتها إلى عصره.

عين زبيدة، سماها (بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الأمين، فيما يتعلق بعين الجوهرة السيدة عين زبيدة، سماها (بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الأمين، فيما يتعلق بعين الجوهرة السيدة زينب أم الأمين) في 50 صفحة، ذكر بها عناية الملك حسين، منذ ولايته إمارة مكة المكرمة بهذه العين، وأتى على تاريخها، فقال ما محصله: أول من عثرت عليه، ممن اعتنى بأمر مياه مكة المكرمة معاوية. وكان أهل مكة قبل

---

(1) حنين: حنين: واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا.

ذلك، يشربون من الآبار الموجودة بها وحواليها، فأجرى معاوية عشر عيون في الحرم، ثم جاء عبد الله بن عامر بن كريز، فجمع العيون وصرفها في عين واحدة، وهو أول من أخذ الحياض بعرفة وأجرى إليها ماء العين، ثم تخرَّبت هذه العيون، وأصيب الناس بشدة، إلى أن كانت دولة بني العباس، فعنيت زبيدة بإجراء عين حنين إلى مكة، وأنفقت على ذلك ألف ألف وسبع مائة ألف مثقال ذهباً (1ر700ر000) قال: ومنبع هذه العين في ذيل جبل شامخ، يقال له (طاد) وهو من جبال النقبة، في طريق الطائف يجري ماؤه إلى أرض، يقال لها حنين ثم أوصلتها إلى مكة. وأمرت أيضا بإجراء عين وادي نعمان إلى عرفة، وهي عين منبعها ذيل جبل كرا، ينصب منه في قناة إلى الأوجر في وادي نعمان، فأجرتها إلى عرفة وأقامت لها أحواضا وقنوات، ثم كانت تتخرب الأقنية، بعد ذلك فيتعهدها الخلفاء والسلاطين، فممن عمرها المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم، على أثر زلازل سنة 241هـ التي غارت بها عيون مكة، فأرسل المتوكل مائة ألف دينار، أجريت بها عين عرفات إلى مكة، ومنهم مظفر الدين صاحب أربيل عمرها سنة 594هـ، ثم المستنصر العباسي سنة 605هـ ثم الأمير جو بان نائب السلطنة بالعراقيين، أرسل الأمير بازان بخمسين ألف دينار، فعمّرها سنة 726هـ، وعمّرها بعد ذلك سنة 811 الشريف حسن بن عجلان بن رميثة جد الأسرة الهاشمية المالكة، ثم عمرها الملك المؤيد أحد ملوك الجراكسة، وتطوع لها بألفي مثقال ذهباً سنة 821هـ ثم عمرها الملك الأشرف قايتباي الجركسي سنة 875هـ، وعمرها آخر ملوك الجراكسة السلطان قانصوه الغوري سنة 916هـ. وعمرها السلطان سليمان سنة 931 هجري. وعمرَّتها فاطمة هانم كريمة السلطان سليمان سنة 969هـ، وأنفقت عليها مبالغ طائلة من بيت المال، تزيد على خمس مائة ألف دينار ذهباً، استمر وكلاؤها يشتغلون في عمارتها إلى سنة 979هـ، ثم عمرت على يد حسن باشا المعمار سنة 1020هـ ثم على يد محمد بك صاحب جدة 1066هـ. وعمَّرها الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم سنة 1092، ثم عُمِّرت سنة 1105هـ. وهنا انقطع خبرها إلى سنة 1219هـ، فتخربت فعمرتها الحكومة، ثم عمَّرها محمد علي باشا والي مصر سنة 1242 ، أصلحت بعدها سنة 1278هـ على أثر سيل عظيم، ثم بدأ بإصلاحها محمد شرواني باشا والي الحجاز سنة 1291، وعاجلته المنية فأتم العمل الشريف عبد الله باشا، ثم تداول إصلاحها أهل

الخير والإحسان برئاسة أمراء مكة، وألف لها الملك حسين سنة 1326هـ لجنة للنظر في إصلاحها كلما طرأ عليها طارئ. وقد تخربت عدة مرات بعد ذلك، وأصلحت وزيدت فيها أحواض وبرك.اهـ. والحقيقة إن ماء هذه البئر، يتصل بها من سفوح جبل كرا مجتمعاً، من الأمطار والسيول، وقد جعلت بين هذه البئر، وعين زبيدة قناة هي إحدى القنوات، التي تصب في العين، ويتألف منها ماؤها بمكة. وقد أقيمت فوق بئر نعمان قبة، يراها السالكون والماء منخفض، عن الأرض نحو ثلاثين متراً.

ووادي نعمان خصيب التربة كثير السيول، وفي سفوح جباله زروع مختلفة، تسقى بماء المطر منها المباطخ ، وأهل الحجاز يسمون البطيخ الأخضر (الحبحب). ويسمون البطيخ الأصفر (الخربز) وهو المعروف بالشمام في مصر وفلسطين، إلا أنه من النوع المستدير لا المستطيل، وقل أن يكبر حجم الواحدة منه كما في الشام وغيرها، ولا يكثر فيه الشديد الحلاوة، بل يلوثونه بالسكر، أو يذرون السكر عليه ليحلو طعمه. ومن زروع هذا الوادي ما يسمونه (الدّبة) وهو المعروف في بلاد الشام باسم (القرع) ومنها الكوسة والخيار والقثاء والبندورة (القوطة)، وما شابه هذه الأنواع من المزروعات الضعيفة، التي تنمو مشرعة بقليل من ماء السماء، وأكثر حاصلاته (الدخن) لعناية البدو المقيمين في أطرافه بأكله، وهم يرون فيه خواص أعظمها أن قليلة، يشبع ويسمونه (مزاحم الجنبية) إشارة إلى إشباعه حتى يضيق زنار آكله، فلا تعلق به الجنبية! وهذا الوادي عظيم الشبه، على ما ذكر لي بوادي سمار في بقاعه، وزراعته، وأكثر حاصلاته.

سلكنا وادي نعمان الفسيح، والشمس آخذة بالانحدار، والنسائم تحمل إلينا شذى نبته العطر فتذكرنا بقول شاعر زينب:

تضوع مسكا بطن نعمان إن مشت
به زينب في نسوة عطرات

وليست كأخرى، أوسعت جيب[1] درعها

وأبـــدت بنــان[2] الكــف للجمـرات

وعـلت بنـان المســك وحفـاً مرجـــلا

عـــلى مثـــل بـــدر، لاح في الظـلمـــات

وقـامت تـراءى يـــوم جمـــع، فـــأفـتنت

برؤيتهـــا مـــن راح، مـــن عـرفـــات!

وفي أواخر وادي نعمان، أو بعد منتصفه رافقنا، عـن يـسارنا جبـل قيـل لنـا: هـذا كبكب!

عادت لنا الذكرى، ذكرى العـصور الأولى، أيـام كانـت هـذه الهـضاب والآكـام، والبقاع[3] والتلاع "مسرح أنظار شعراء الجاهلية والإسلام، يروحـون فيهـا ويغـدون، بين غزل يطير في عالم الخيال، وشج يندب الآثار والأطلال، وفخور يرى النجم دونه، ويحسب الناس يعبدونهّ على مقربة من ذلك الجبل الشامخ، تمثل لنا امرؤ القـيس وقـد خيره أبوه بين الشعر وتاج الملك، فأبى التاج، وانفرد بعصائب[4] التفت حوله، يشبب ويتغزل، ويحن ويفاخر، ويذكر أحباباً له انفردوا إلى ظلال كبكب فيقول:

تبصر خليلي، هل ترى من ظعائن ... سوالك نقباً بين جزمي شعبعب

فـريقان، منهـم قـاطع بطن نخلة ... وآخر منهم: جازع نجد كبكب!

وسواء أكان يعني كبكب هذا، أو يريد كبكباً آخر (كما يقول يـاقوت في معجمـه)، فقد دانينا نجد كبكب، وتمثلنا بقول حامل اللواء!

وسمعت أحد فضلاء الحجاز، يقول: إن كبكب هو أحد الجبلين المعنيين بقول الشاعر:

---

(1) الجيب: الفتحة من ثوب النساءكفتحة الصدر واليدين.
(2) بنان: اسم جمع وهي الأصابع.
(3) التلاع: الأرض المرتفعة.
(4) عصائب: ج عصبة وهي المجموعة من الرجال.

أيـا جبلي نعمان بالله خليـا نسيم الصبا يخلص إليّ نسيمها!

وفي ذروة كبكب قبيلة معروفة، يدعونها به فتسمى الكباكبة (وواحـدها كبكبـي)، وهي مشهورة بقص الأثـر، وسيأتي ذكرهـا في الكـلام عـلى الفراسـة في الباديـة. وفي كبكب هذا، يقول ساعدة بن جوية الهذلي:

كـيدوا جميعـاً يأنـاس كـأن أفناد[1] كبكب ذات الشثّ والحزم

وما كدنا نبلغ آخر كبكب حتى بدت لنا عن يميننا إمارة عمران حديث فعلمنا إننا وصلنا قهـوة شـدادن وشـداد اسـم مناخـة -أو نـزل كنـزل عرفـات- يـأوي إليهـا الصاعدون إلى الطائف والمنحدرون إلى مكـة، وهـي عـلى نحـو ثـلاث سـاعات مـن عرفات، وست ساعات من مكـة للراكـب، وفيهـا مركـز للهـاتف (التلفـون) يـربط الطائف بمكة وهو مفيد لتوطيد دعائم الأمن في تلك المسالك. وعن يميننا إلى جنوب شداد جبل يسمونه (دماغة)، وعن يسارنا إلى شمال الغروب، فردّ عنا بها ذلـك الألـق المتوردّ، وأرحنا داوبنا حتى عاود الظلام كرّته، وحيانا هلال التسع بمحيـاه الباسـم، فصّلينا المغرب ونهضنا للسرى من شداد إلى الكـر سرينـا، والليـل رضـيع، والفـصل ربيع، آخذين إلى اليمين قليلا، فاخترقنا بعد شداد أواخـر كبكـب وأمامنـا إلى الـشرق جبل، يدعونه (تفتف). نزلنا شدّاداً والشمس تميل إلى اليسير من المسير، وادياً يدعونـه (خريق الرأس) بالقاف لا بالفاء -خلافاً لما في الرحلة الحجازية- وهو واد متسع تكثر فيه أشجار الطلح ولكنها لا تعوق السالك. اجتزناه بنحو سـاعة وارتفعنـا قلـيلا، إلى واد آخر يسمونه (الجرف)، وفيهم من يسميه (أبو حراجل)،وقد تبادر إلى ذهنـي عنـد سماعي لفظ الحراجل[2]، إن أصلها الإحـراج -لكثـرة مـا هنـاك مـن إحـراج الطلـح والسلم وزيدت في آخرها اللام إلحاقاً، ثم علمت أن الحراجل في عرفهم جمع حرجلة، وهي عندهم الحجارة المتراكمة، تخطيناه في نحو نصف ساعة، وانتقلنا منه إلى واد آخـر صعب السلوك، كثير (الحراجل) عبثت فيـه يـد الـسيول يـسمونه (حراجـل الكـر)،

---

(1) أفناد: ج فند وهي الأركان والأعمدة.

(2) الحراجل:الأرض الكثيرة الحجارة.

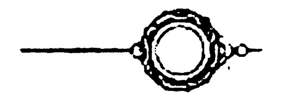
إضافة إلى المكان الذي هو وجهتنا، في هذه الرحلة، وقد عانينا الصعاب في اجتياز هذا الوادي، المشتبكة اشجاره الشائكة، بحيث كان يتعذر على الراكبين منا أن يتجاوروا في طريقهما. وللبغال عادة سيئة في مثل هذه المضائق، فإنها تزدحم متسابقة وهي تتكسع[1] في الوعر، فيصطدم الراكب بالراكب، وكثيراً ما مزق الشوك أطراف، ما تحتنا من فرش، وضعت لننام عليها إذا مسنا النعاس. ولولا شدة التحفظ والاحتياط والانتباه للعبث أيدي الأشواك بأطراف ثيابنا، وبصماداتنا وليس في طريقنا من شداد إلى الكر ما يجدر بالوصف لأن أكثره على نسق واحد رمال وحجارة وأشجار شائكة، وتنقل من واد، إلى واد يفصل بين أحدهما والآخر فارق، لا يشعر به غير الخبير بتلك المناهج[2]، ممن اعتادوا سلوكها وسمعوا من أفواه البدو أسماءها، وهؤلاء يطلقون على كل جبل وثنية وتلعة وسبيل اسماً يعرفونها به، ولم أر كبير فائدة في تتبع أسماء لا أذكر شاعراً متقدما أشار إليها، ولا مؤرخا ذكرها، بل يمكنني أن أقول إنها أسماء غير ثابتة لأنك بينما تعرف هذه العقبة تدعى بكذا إذ تجدها بعد أعوام، قد اختلف اسمها بحادث يطرأ عليها أو وحش، يظهر فيها أو واقعة قتال تحدث بها. ولا ينحصر هذا الحكم بهذا المكان، بل يراه متعقب الأخبار والأسماء، يصح على أكثر أماكن البادية في الحجاز وغيره، اللهم إلا في المواضع الكبيرة المشهورة التي يعسر فيها تغلب الأسماء الحادثة على أسمائها المعروفة بها فهي تثبت طويلا محفوظة بينهم بالتداول والتوارث، والمسافة من أول هذا الوادي (حراجل الكر) إلى قرية الكرّ تقرب من ساعة.

أقبلنا على الكر بعد سرى ساعتين ونصف من شداد، فإذا هناك بضعة بيوت كلها على نسق ما وصفناه في عرفة. والكر قرية على سفح جبل كرا، ماؤها لا بأس به. أوينا إلى أحد أكواخها الحجرية أو أعشاشها البشرية! فبتنا تلك الليلة وللتعب في أجسامنا أثر زال في الصباح.

---

(1) تتكسع: تقال للحمير السائمة التي تسير في أرض وعرة.

(2) المناهج: ج نهج وهو الطريق.



نهضنا صبيحة يوم الخميس التاسع من صفر، نرفع أبصارنا إلى جبل كرا، لنبصر ذروته فلا نرى! وركبنا بادئ ذي بدء نحو نصف ساعة، ترتفع بنا الدواب صعداً في طريق وعرة وعثة، كانت قد جددت عمارتها عام مقاتلة الوهابية، في أيام محمد علي باشا المصري، ثم خرج منها السيل فبقيت آثار العامر منها، وهو حجارة ملساء لا تملك الدابة حافرها، ولا الإنسان قدمه في سلوكها إلا بشق النفس، وأما الخرب فحجارة وصخور متراكمة على غير نظام. وقد حاول بعض الرفاق أن يكابر، فيصبر على الركوب فقلت له: لا تنس أن روحك الساعة، في حافر بغلك: إن زلق هويت، وإن هويت فأنت ميت! - فنزل، وأخذنا نصعد ذلك الطود المتعلق بقرص الشمس، يداعبها وتنفر منه! تارة نتسلق، وطوراً نحبو، وآونة نجلس ثواني أو دقائق، حتى بلغنا منتصفه، وقد تغير الهواء فرقّ وأنعش، ورأينا شجر العرعر وهو من فصائل الصنوبر، والاثب وهو أشبه بشجر الكينا، والتين البري. وقلّ السلم والطلح. وفي هذا الجبل نمور وضباع وذئاب لم نرها - والشكر لله - وتقل فيه السباع وتكثر القردة (السعادين). وقد رأينا في طريقنا سرباً منها، ونباتاته كثيرة الأنواع منها العطري والصباغي.

وواصلنا الصعود حتى جاوزنا ثلثيه، واشتد بنا الظمأ فأبصر بعضنا عيناً من الماء، تنبع على يسار الصاعد يسمونها (المعسل)، قيل لنا إنها دائمة النبع لا تجف صيفاً وشتاء، فنزلت إليها أيل الصدى، فرأيت ماءاً يسيراً بارداً فيه أثر من طعم الطحلب، وهي صغيرة لا تتجاوز دائرتها المترين. وعدنا إلى الصعود فرأينا قبل ذروة الجبل حوضاً غير كبير، يجتمع فيه ماء المطر منحدراً مما فوقه من معلاة الجبل، وهو جاف لا أثر للماء فيه، وما بلغنا قمة كرا إلا بعد ثلاث ساعات، من ابتداء صعوده أي من مغادرتنا الكر. وقد يخيل للإنسان أن نزوله عن كرا أسهل من صعوده والحقيقة إنهما سواء، لأن المصعد يتسلق، والمنحدر يزلق، ومدة اجتيازه واحدة صعوداً وانحداراً.

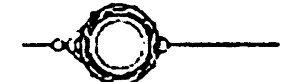
وللشعراء والأدباء لطائف في وصف كرا، منها قولهم (صعود كرا يحرم من الكرى!) ولم أجد ما بين يدي من كتب التاريخ وصفاً مسهباً لهذا الجبل، إلا أن ياقوت يقول: (كرا-

مقصور- ثنية بين مكة والطائف). وقال في موضع آخر: (وبالطائف عقبة وهي مسيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط إلى مكة، عمرها حسين بن سلامة وهو عبد نوبي وزر لأبي الحسن ابن زياد صاحب اليمن في حدود سنة 430هـ فعمر هذه العقبة عمارة، يمشي في عرضها ثلاثة جمال بأجمالها..) اهـ. ولعل هذه العقبة هي عقبة كرا وما قبله فإن فيها طريقاً تسلكها الجمال، أظنها هي التي عمرها حسين بن سلامة. وقد خربت فجدد عمارتها محمد علي (كما تقدم) ثم خربتها السيول الآن إلا قليلا منها.

وكرا مقصور في رواية ياقوت، وأما الشعراء فيمدونه. قال أحدهم وهو من مروياته أيضاً من أبيات:

كأغلب من أسود (كراء) ورد   يشد خشاشه[1] الرجل الظلوم

في الهدة



ولما بلغنا قمة كرا، ظهرت أمامنا قرى الهدة، فاتجهنا إلى إحداها على غير تعيين، فنزلنا للراحة وتناول الطعام، وأجلنا النظر في ذلك السهل المرتفع، فإذا سكانه من متحضرة البدو يعمل بعضهم في زراعة أرضه، وبعض يؤجر نفسه لنقل أكياس الحبوب وغيرها، وقرى الهدة سبع، على عدد القبائل النازلة فيها، وتسمى بأسماء قبائلها وهي: الغشامرة، وبنو صخر، والقصران، والأغربة، وهم يلفظونها (لغربة) بكسر اللام وسكون الغين وكسر الراء، والأخولة، ويلفظونها (لخولة) بكسر اللام وسكون الخاء وفتح الواو واللام الثانية، واللمضة، والبني. والهدة مرتفعة عن سطح البحر 6500 قدم. وفي الرحلة الحجازية 1760متراً، ولاعتدال مناخها يكثر فيها شجر التين والرمان والسفرجل والصبير (ويسمونه البرشوم وهو التين الشوكي) واللوز، وفيها كثير من الورد، يستخرجون ماءه على طريقة التقطير، وماؤها عذب بارد، لم نشرب مثله في مكة ولا جدة. وأمطار قرى الهدة قليلة جداً، فقد عرفنا عند نزولنا بها إن السماء لم تمطرها من عامين، إلا رذاذاً أو رشاشاً.

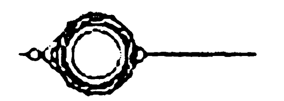
(1) خشاشه: ما كان راسه لينا وجسمه قاسيا.

ومن غريب الصدف أن نزولنا، كان في قرية بني صخر تلك القرية، التي لا يزال بعض العارفين، يتناقلون أن مولد الحجاج بن يوسف الثقفي، كان فيها وهذه القرية بضعة بيوت قديمة، ولكنها ليست بأثرية. وقد سألنا من بها عن علاقتهم ببني صخر القاطنين في بلاد الشام فقالوا إنهم أبناء أعمامنا، وكانت هذه منازلهم، وقد نزحوا منذ عهد طويل على أثر قتال نشب بيننا وبين مجاورينا، ولم يبق منهم هنا غير رجل وعائلته، فأنسل أسرتنا التي ترونها الآن. ولا ريب في أن قلة عدد بني صخر في الهدة، تدل على قرب عهد بني عمهم بالجلاء، فإنهم هنا قد لا يزيدون على الخمسين رجالا ونساء، فلعل بني صخر الشاميين هاجروا منذ مائتي سنة أو نحو ذلك، وهم يسقون أراضيهم بماء الينابيع والآبار، يستخرجونه إلى سطح الأرض بالثواني: وهي أبقار تربط بحبال، وتربط في تلك الحبال قرب، فتذهب الأبقار خطوات وتعود، فإذا أقبلت على البئر، نزلت القرب فيها فامتلأت، وبذهابها تصعد القرب، فتفرغ ماءها في حوض على طرف البئر. وفي جوار الهدة جبلان شاهقان، يسمون أحدهما (الخبل) والثاني (شعاراً) ويؤكد الخبيرون أن البحر الأحمر، يرى بالعين المجردة من (شعار) صباحاً وكذلك سهول تهامة، وبين البحر وشعار مسيرة يومين ونصف.

وقد سمى القلقشندي في صبح الأعشى الهدة وادياً، وقال: ومن أودية مكة (الهدة) وهي واد على القرب من بطن مر، على مرحلة ونصف من مكة وهي بيد بني جابر؟ - وبطن مر واد في شمال مكة على مرحلة منها يمر به حجاج مصر والشام وبه عيون ومياه تجري ونخيل كثيرة، وفواكهها وبقولها تحمل إلى مكة.

وقال ياقوت: الهدة موضع بين مكة والطائف وهو ممدرة أهل مكة، والمدر طين أبيض يحمل منها إلى مكة تأكله النساء (كذا)، ويدق ويضاف إليه إلا ذخر يغسلون به أيديهم. وقال في موضع آخر: هدى منقول عَن الفعل الماضي من هدى يهدي إذا أرشد: موضع في نواحي الطائف اهـ.

أقول: والشائع اليوم على ألسنة مجاوري الهدة، هو تسميته (الهدى) بالقصر والتعريف، وليس في كلام ياقوت، ما يفهم منه تعريفه بأل مقصوراً، كما إن ثقات المؤرخين لم يذكروه بغير التعريف، وهاء ساكنة في آخره أو تاء معقودة.



نهضنا من الهدة بعد صلاة الظهر، نتابع السير ووجهتنا الطائف، فلم نجتز مسافة تذكر حتى انحدرنا قليلا، ثم أخذنا نصعد جبل كرا الصغير (كما يسمونه)، وهو ذروة شاهقة في طريقنا، وشتان مابين الكبير والصغير! ومنه عدنا إلى الانصباب، فانحدرنا نزولا: اضطررنا في أوله أن نترجل عن دوابنا مسيرة ربع ساعة، نزلنا بها نحو ثلاث مائة قدم عن ارتفاع الطائف، وركبنا فاستلمنا وادياً صغيراً، انتهينا منه إلى (وادي المحرم)، وفيه مسجد خرب وأبنية يسيرة، ومن هذا الوادي يحرم القادمون على مكة من أهل الشرق واليمن وحضرموت وعمان حجاً أو اعتماراً، ولذلك سمي المحرم. وصلنا إلى جبل يسمونه (مسرة)، وقد يعرّفه بعضهم فيقول (المسرة)، وهو سلسلة جبال بلغنا أولها بعد مسيرة ساعة ونصف من الهدة، ولعلها جبال السراة المشهورة، فإني لم أجد اسماً للمسرة في ما عثرت عليه بمكة، من كتب تخطيط البلدان، ومن أحد منعرجات هذا الجبل، ظهرت لنا أعالي منازل الطائف، فلم نفتأ مواصلين السير بين الجد والمهل، حتى بلغنا الطائف، ونزلنا في دار مدير شرطتها.

الأمن

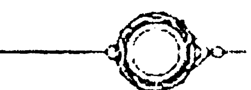
عشية الثلاثاء 14محرم 1339 بينما كانت الشمس، تلقي على المشرق نظرات الوداع، رأى أهل جدة (على ساحل البحر الأحمر) شابين يبرحان مدينتهم ووجهتهما مكة، أحدهما مكتس بردائي الإحرام، حاسر الرأس، تعبث النسمات ببرديه، وقد ركبا حمارين شديدين، فمضيا مستظهرين المدينة، مستقبلين الجبال والرمال. سأل المحرم رفيقه بعد أن ابتعدا عن جدة مسيرة نصف ساعة: ما اسم هذا الجبل الذي نراه أول جبال طريقنا؟ فقال: الرغامة، واستمرا في مسيرهما.

لم يجريا أكثر من ساعتين في ذلك القفر الخالي، والليل باسط جناحيه، حتى لاح لهما بدويان يحملان بندقيتين، يمشيان الهوينا، مقبلين عليهما، فجزع المحرم في نفسه وأوجس خيفة، وجعل يستعيذ بالله ويتلو ما تيسر له من آي الكتاب، ومرا بالبدويين ففاتاهما مائة متر أو أكثر، والمحرم يترقب رصاصة من أحدهما، تتناقل صوتها

الأطواد[1] الثابتة والأودية الرحبة، ولكن البدويين اخترقا سبيلهما مكتفيين بنظرتين، القياهما عليه وعلى رفيقه، ولم ينبسا ببنت شفة. وبعد أن امتدت مسافة الشوط بين الفريقين، تحرك لسان المحرم في حديثه مع رفيقه، يعرّض له بذينك المسلحين، اللذين كانا يستطيعان سلبه وإياه ما معهما من نقود ومتاع، فأدرك رفيق المحرم ما داخله فدعاه إلى الطمأنينة، وقال: ثق يا سيدي إنك آمن حيث سرت.

قال المحرم: إذاً فما شأن هذين؟- قال: هما عس في هذا البر!. فعجب المحرم من أمر لم يكن يتوقعه، واستمر في حديثه فقال لرفيقه: وهل عهدكم بمثل هذا الضبط بعيد؟ فهز رأسه قائلا: منذ حكم سيدنا!..

لم تبرح ذكرى هذه الساعة نفسي، منذ أول ليلة دخلت بها الحجاز محرما. ولقد ذكرتها حين كنا نخترق- في رحلتنا هذه من مكة إلى الطائف- الأودية والهضاب ليلنا ونهارنا، وكنت أرى كثيراً من أمثال ذينك -من العس- فآنس بهم! وأذكر كلمة الرفيق الأول: ثق يا سيدي أنك آمن حيث سرت!.



الطائف

نظرة الشاعر والباحث، تسميته، فتحه، خروج الترك، آثاره، أعلامه، داخله، طرقه إلى مكة، عكاظ، خلاصة، ما حوله، قبائله، الرحلة الحجازية

إذا جال الشاعر جولته الأولى في الطائف. ورأى ما حول مدينته من ربيع ونبات، وينابيع وجداول، وفواكه وأزهار، وحدائق وبساتين، لم يشك بصدق ما يتلوه في مقدمات تواريخ الفاكهي [2] والعجيمي[3] سماها، والميورقي[4] وأشباههم ممن نقل

---

(1) الأطواد:ج طود وهو الجبل.

(2) الفاكهي: عبد القادر بن احمد بن علي الفاكهي المكي المتوفى في أواخر القرن العاشر، له كتاب في الطائف سماه (عقود اللطائف في محاسن الطائف).

(3) العجيمي:إمام الحرمين الشيخ حسن بن الشيخ على العجمي المكي من علماء أواخر القرن الحادي عشر.

(4) الميروقي:الشيخ أحمد ابن علي العبدري الميروقي المالكي، توفي سنة 678 له رسالة(بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج).

هؤلاء عنهم، كياقوت [1]، وابن أبي الصيف[2]، أو نقلوا عن هؤلاء وأولئك، كالقاري[3] وغيره إذ يراهم متفقين، ويكادون يتفقون، على أن الطائف قطعة نقلت إلى الحجاز من الشام، وفيهم من يقول من اليمن، يستدلون على هذا بخصبها واختلافها، عن غيرها من بقاع الديار الحجازية بطيب هوائها وعذوبة مائها، وجمال نضرتها وحسن خضرتها.

لنفرض أن هؤلاء، وفي جملتهم بعض أصحاب المعاجم العربية، كانوا يعتقدون حقيقة أن جبريل انتزعها من الشام أو اليمن، وطاف بها على البيت الحرام، ثم ألقاها في هذه البقعة بعد أن اقتلع البلدة، التي كانت في موضعها وقذفها إلى المكان المحمولة تلك منه، فذهبت الأولى بحرّها وجفائها الموروثين عما جاورها، من بادية الحجاز وأتت هذه بما كان لها، من طيب المناخ وجمال المنظر وقوة الإنبات!

ولنفرض أن القلقشندي كان على ثقة من أن الطائف انقطعت من الشام في طوفان نوح وحملها الماء وطافت بالأرض حتى أرست في هذا الموضع!..

لنفرض أنهم كانوا يعتقدون هذا الوهم حقيقة، فلا يمنعنا ذلك من أن نراه اليوم خيالاً شعرياً جميلاً مقبولاً! وما بين أيدينا وتحت أنظارنا، من آداب العرب والإفرنج مفعم بأنواع المجاز الجاري مجرى الحقيقة، مملوء بضروب الأمثال الموضوعة وضع التشبيه والتمثيل. فلنقل معهم إن الطائف من غير أرض الحجاز، وإن الملائكة قد حملوها من أقاصي الديار لتكون جنة هذه الأقطار! ولنقل ونحن في هذه البقعة من

---

(1) ياقوت: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي صاحب (معجم البلدان) توفي سنة 626هـ.

(2) ابن أبي الصيف: مفتي الحرمين أبو عبد الله ابن أبي الصيف اليمني المتوفى سنه 609هـ له كتاب في الطائف سماه (زيارة الطائف

(3) القاري: الشيخ عبد الحفيظ القاري من علماء الطائف المتأخرين له رسالة في تاريخ الطائف لم يزد فيها على ما في كتب سابقيه إلا بقوله عند ذكر ما كان في الطائف من المآثر والمزارات: وقد اندرس أكثر المآثر التي ذكرها المؤرخون. كتب هذه الرسالة سنة 1308هـ.

بقاع الحجاز، إننا في مصيف من مصائف الشام ، أو مخلاف اليف اليمن أو جنة من جنان مصر. فليس على الخيال حرج. وللشاعر أن يشبه ما شاء ولنقل بها شاء ما اتفق له وجه الشبه.

وقد يأخذ الشاعر أخذ المؤرخ الإفرنجي (سيديو)، فيقول معه: (الطائف بستان مكة)! وربما عاد إلى دواوين فأعجبه منها قول عروة بن حزام، وقد خرج من سور الطائف ونظر إلى واديه (وج)، فإذا حمامة ترفرف على أحد أغصانه:

أحقا يا حمامة بطن وجّ	بهذا النوح إنك تصدقينا
غلبتك بالبكاء لأن ليلاً	أواصله، وأنك تهجهينا
وإني إن بكيت، بكيت حقا	وأنك في بكائك، تكذبينا
فلست وإن بكيت أشد شوقاً	ولكني أسير وتعلمينا
فنوحي يا حمامة بطن وج	فقد هيجت مشتاقاً حزينا!

ذلكم هو الطائف في نظر الشاعر المفتون بجمال الطبيعة، المأخوذ بمحاسنها.

وأما الباحث فإذا عرف الطائف وأنعم فيه نظره، رأى غير ما يراه الشاعر، من شأنه وموقعه ومكانته. للباحث في الطائف كلمات ثلاث: الأولى في موقعه العسكري والسياسي، والثانية في مكانته الاقتصادية، والثالثة في شأنه التاريخي. ولا أرى بأساً في الإشارة بإيجاز، إلى هذه الأمور الثلاثة:

1- موقعه العسكري والسياسي: غير خاف أن حكومة الحجاز الحاضرة، والحكومات التي دالت من قبلها، لم تختر الطائف ليكون مقر جيشها النظامي، إلا بعد أن عرفت عظم شأنه بوقوعه الفاصل المدني، بين سهول العراق من شرقه، وديار الحجاز من غربه، وأصقاع اليمن من جنوبه. فهو وما يليه من أراض واسعة وأودية وجبال وسهول، يعدُّ أمنع ثغور الحجاز البرية، وأشدها حاجة إلى ما فيه من قوة، وهو مجتمع القبائل ومحتشد العشائر. قال الفاكهي في تاريخ مكة: (كان لمدينة الطائف خطر

عند الخلفاء في ما مضى وكان الخليفة يوليها رجلا من عنده ولا يجعل ولايتها لصاحب مكة)، وروى غيره من أصحاب التواريخ أن الحجاج بن يوسف الثقفي، كان قد اتخذ الطائف معسكراً لجيشه في محاربته لعبد الله بن الزبير يرسل منه الجند إلى مكة فصيلة أثر فصيلة.

ولأمراء مكة وأشرافها عناية خاصة به، فهو مصيفهم ومتنزههم يمكثون فيه شهرين أو ثلاثة أشهر، من كل عام، يبتعدون عن قيظ مكة، وينظرون في شأنه عن كثب. وكان الملك حسين قبل النهضة، لا ينقطع في كل سنة عن الإقامة فيه أكثر الصيف، تفد عليه به وفود القبائل فيتفقد أحوالها، ويستميل شذاذها، حتى كانت النهضة فاكتفى بأن يوفد كل سنة أحد أبنائه، فينوب عنه هناك.

وفي أخبار جاهلية العرب أن الطائف، لما عمرت ونمت كرومها وكثرت خيراتها، حسدت القبائل سكانها بني ثقيف، فشنت عليهم الغارات، وأقبل نحوهم الغزاة حتى اضطروا إلى إحاطة مدينتهم بسور يمنع العادي ويصد المقتحم، فأقاموه واتقوا ما كانوا يحذرون، وضعفت عن قتالهم العزائم، فتركتهم قبائل العرب وشأنهم، حتى قيل إنهم بمناعة بلدهم ووفرة خيره أغبط الناس عيشاً، وضربت الأمثال بامتناع الطائف، على من اقتحمه -قال أبو طالب ابن عبد المطلب:

منعنا أرضنا من كل حيّ كما امتنعت بطائفها ثقيف!

أتاهم معشر كي يسلبوهم فحالت دون ذلكم السيوف!

2- مكانته الاقتصادية: الطائف أحد أبواب الحجاز التجارية الكبيرة. وأرضه أغنى أراضي الحجاز بعد وادي فاطمة. يحمل ما يزيد عن أهله من حاصلاته وفاكهته إلى مكة وغيرها، ويكثر فيه السمن والصوف لكثرة القبائل الضاربة، في قراه والمخيمة في أطرافه، وكلها تعيش من أوبار إبلها وحليب نوقها. وللماشية والاذواد في هذه البلاد قيمة كبيرة لأن ما تنتجه قد يعدل ما تأتي به المزارع الخصبة والبقاع المنبتة. ومتى كثر العاملون في تربية المواشي استفادت البلاد من خيراتها، فكيف بالطائف وأكثر قبائله لا عمل لها، إلا إصلاح شأن ماشيتها واستدرار إخلافها، والانتفاع من أثمان صوفها

ووبرها، والعادة إن المدن القريبة من منازل البداة، يعود عليها من التجارة منهم ما لا تفوز به المدن البعيدة عنهم، فالطائف من هذه الوجهة أكثر استفادة من غيره، لأن القاطنين حوله وفي قراه من أبناء البادية وأرباب الماشية وأصحاب المزارع أكثر ممن حول سواه، من مدن الحجاز وأوفر ثروة وأنعم عيشاً.

وللمؤرخين إعجاب شديد بكروم الطائف وزروعها، وناهيك بمثل سليمان بن عبد الملك الأموي يدهش من كرم في قرية من قرى الطائف. نقل صاحب معجم البلدان في كلامه على الوهط (إحدى قرى اللطائف يأتي ذكرها) أن سليمان مر بها بعد حجه، فأطال النظر إليها وسأل: لمن هذا الكرم؟ فقيل: لعمرو بن العاص فقال: هذا أكرم مال وأحسنه، ما رأيت لأحد مثله!!

وفي كتب السيرة النبوية إن المسلمين، لما بلغوا أطراف الطائف مع النبي (ص)، ورأوا واديه (وجاً) أعجبهم سدره، فلهجوا به وقالوا: يا ليت لنا مثل هذا! ثم قالوا: يا رسول الله أفي الجنة سدر كسدر وج؟! فأنزل الله تعالى: [..وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود] أي لا شوك فيه!

ويدل ما ينقله المؤرخون أيضاً على أن أهل الطائف، كانوا في جاهليتهم أهل قصف ولهو وغنى ويسار، حتى إن النبي (ص) لما صالحهم اشترط عليهم، أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم، وأن لا يرابوا، وأن لا يشربوا الخمر.

قال البلادزي في فتوح البلدان: وكانوا- أي ثقيف- أصحاب ربا. ونقل عن المائني أنه كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب، فأقاموا فيه للتجارة فوضعت عليهم الجزية، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف.

3- **شأنه التاريخي**: وأما شأنه التاريخي، فإنه من أقدم البلاد العامرة في الحجاز، حتى إنك لترى المؤرخين وعلماء تخطيط البلدان، يخبطون في تاريخه على غير هدى، فياقوت يقول: إن الطائف كان يسمى وجاً باسم وج بن عبد الحي من العماليق، ويذكر أن وجاً هذا هو أخو أجاء الذي سمي به جبل طيء، وهما من الأمم الخالية. وابن عباس ينقل عنه أن الطائف بني في زمن إبراهيم عليه السلام عصر بنيت الكعبة. وابن الكلبي يروي أن الطائف، هي بلد الثمرات التي رزقها الله إبراهيم نبيه حين

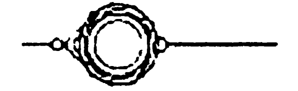
دعاه: [..فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات]. وأكثر المفسرين على أن الطائف، هو إحدى القريتين الواردتين في قوله تعالى: [وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم]. يرون إن القريتين هما مكة والطائف، إلى آخر ما هنالك من أخبار وأقوال. وسواء أصح ذلك كله، أم اتفق حدوث بعضه فإن للطائف شأناً في تاريخ الحجاز غير يسير. ولئن كان أكثر أصحاب الرحلات والخطط، لم يسهبوا كل الإسهاب في الكلام عليه، فذلك لأن هؤلاء إنما كانوا، يكتفون من الحجاز بأداء فريضة الحج في مكة المكرمة وأطرافها القريبة منها، ويزورون قبر النبي عليه الصلاة والسلام، فيرون في مكة والمدينة، وما بينهما الغنية عن قطع المراحل وزيارة الطائف، وما إليه من جهاته الأربع. خذ مثلا صاحب معجم البلدان، وابن بطوطة وابن جبير وصاحب نفح الطيب، وغيرهم من أكثر الرحالين وجوابي الآفاق والمؤلفين في هذه الأبحاث، فإنهم لم يزوروا الطائف، ولا عرفوه إلا بما يسمعون عنه من الأقدمين أو ممن عاصرهم، معرفة رواية لا شهادة، وخبر لا اختبار.

أما مؤرخو الطائف المتأخرون كالفاكهي والعجيمي وأمثالها، فإنهم بم يجدوا بين أيديهم من المادة التاريخية، ما يزيدون على ما يتلونه في تواريخ سابقيهم، إلا شذرات ونتفاً من أسماء بعض قرى الطائف وآبارها.

هذه على الغفلة من المؤرخين، عن التعرض للطائف بالإطالة المعهودة فيهم عند الكلام، على أمثاله من البلاد التاريخية القديمة.

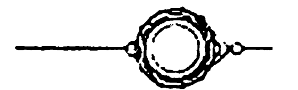
ولقد عانيت ما عاناه متأخرو الكاتبين عن الطائف، بعد أن اندرس جل ما فيه من آثار ومعالم فظفرت باليسير من الكثير والنزر من الوفر، ولعل من سيكتب عنه بعدي يزيد عليّ، ما لم أعثر عليه، فإن البحث في الطائف ما زال قاصراً عن التعريف بحقيقته، وليكشفنّ العلم للناس في الغد، ما هم غافلون عنه اليوم.

تسمية الطائف



لم أجد حتى الآن ما أعوّل عليه في تحقيق الباعث، على تسمية هذه الديار بالطائف وأهل التاريخ، يتناقلون أخباراً فيها ما هو أشبه بالأوهام منه بالحقائق، ولعل أقرب ما

ينقلونه من الصحة رواية القلقشندي وياقوت، أن اسمها القديم (وجّ) ثم أقامت بها جموع ثقيف، وبنوا عليها حائطا مطيفاً بها (هو ما يسمونه الآن بالمسور وقد جددت عمارته مؤخراً)، فسميت الطائف من إطافة الحائط بها. ويوردون في اسم من ارتأى بناء ذلك الحائط قصصا، منها أنه رجل من أهالي حضرموت، من قبيلة اسمها الصدف يقال له الأمون بن عبد الملك قتل ابن عم له، يدعى عمراً وفر من حضرموت لاحئاً إلى من يؤويه، حتى بلغ وجاً ومعه مال كثير، فأتى مسعود بن معتب الثقفي فقال: احالفكم على أن تزوجوني وأزوجكم وأبني لكم طوفاً عليكم مثل الحائط لا يصل إليكم أحد من العرب فيه؟ قالوا: فأين. فبنى بها معه من المال طوفاً، فسميت الطائف وتزوج إليهم الدمون فزوجوه. وفي معجم البلدان (ج6 ص12) قصة يرويها عن ثقيف والنخع تنتهي بمثل ما انتهت إليه هذه القصة، من شاء فليتلها فيه، فإني لا أجد فائدة من الإطالة في مثل هذا.



فتح الطائف

بدء الدعوة إلى الإسلام، حصار الطائف، إسلام ثقيف

لا أريد الإفاضة في الكلام على فتح الطائف في زمن النبوة لأن هذا مما يجده المطالع في أكثر كتب السير والفتوحات، ولكني سأوجزه في إيراد قصة وفود النبي على ثقيف قبل استفحال شأن الإسلام لما فيها من بيان ما عاناه رسول الله (ص) في بدء ظهور دعوته، وأختمها بما انتهت إليه حال ثقيف في الإسلام:

قال علماء السير: لما انتهى رسول الله (ص) إلى الطائف يلتمس من ثقيف(ثقيف: أهل الطائف في العصر الإسلامي، وأما اليوم فلا منازل لهم في بلده وإنما ينزلون في بعض القرى المجاورة له كالمثناة والسلامة وقروة والعقيق والمليساء. وقد وهم صاحب (تاريخ سيناء) فضبط اسم القبيلة بالتصغير (ثقيف) والصواب فتح الأول وكسر الثاني. ونقل صاحب (تحفة اللطائف) أن ثقيفا بطن من هوازن من العدنانية ينسبون إلى أب لهم لقبه ثقيف واسمه قيس بن منيه بن بكر بن هوازن) نصرته، بعد أن

أخرجه قومه من مكة (وذلك في شهر شوال من السنة العاشرة للنبوة) عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادات قومهم وهم ثلاثة إخوة: عبد ياليل ومسعود، وحبيب: أبناء عمرو بن عمير بن عوف الثقفي، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس رسول الله إليهم، وكلمهم فيما جاء به من طلب القيام معه على من نألفه من قومه، فقال له أحدهم: أمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، فما ينبغي أن أكلمك!

فنهض رسول الله وقد يئس من خير ثقيف، واستكتم الثلاثة ما دار بينه وبينهم، خيفة أن يبلغ ذلك قومه فيزيدهم عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وسيبة بن ربيعة، وهما فيه، فجلس -وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما يصنعه سفهاء أهل الطائف- فتحركت له رحمتهما، فدعوا غلاما لهما نصرانياً اسمه عداس فقالا: يا عداس خذ قطفاً من هذا العنب إلى ذلك الرجل، وقل له يأكل منه، ففعل عدّاس ما أمره به. فلما وضع العنب بين يدي النبي (ص) ودعاه ليأكل، مدّ إليه النبي يده قائلا: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلدة! فسأله رسول الله (ص) من أي بلدة هو وما دينه؟ فتسمى له وقال: أنا رجل نصراني من أهل نينوى، فقال رسول الله: من قرية الرجل الصالح يونس بن متي؟ قال عداس: أو تعرف شيئا عنه؟. قال: ذلك أخي كان نبيا وأنا نبي! فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه، وأسلم، وابنا ربيعة يبصرانه عن بعد، ويعجبان من أمره. فلما جاءهما قالا له: ويلك ياعداس! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه؟ قال يا سيدي ما في هذه الأرض خير من هذا! لقد أخبرني بخبر ما يعلمه إلا نبي. فقالا له: ويحك، لا يصرفنك عن دينك! فثبت على إسلامه.

وهذه الزيارة، هي أول زيارة قدم بها النبي (ص) الطائف، ولا يزال المكان الذي أسلم فيه عداس معروفا في المثناة يزار.

ثم عاد رسول الله (ص) من ليلته، فبات في مكان يدعى (بطن نخلة)، وانصرف من صبيحته إلى مكة، فدخلها بعد أن أجاره مطعم بن عدي. ولم يدخل الطائف بعدها حتى فتحت مكة وكانت غزوة حنين، وفاز بها المسلمون فقصد الطائف ماراً (ببحرة الرغا) من (لية)، ونزل أمام حصن الطائف، فحاصر ثقيفا أربعين ليلة وذلك سنة ثمان من الهجرة، وضرب سورهم بالمنجنيق وسير إليهم الدبابات، فألقوا عليها سكك الحديد محماة بالنار، فقتلوا بعض من بها لأنها كانت تصنع من جلود الإبل والبقر، ويدخلون جوفها فتقيهم من السهام والحجارة، كما رأيت في هامش على كتاب تحفة اللطائف لجار الله المكي[1].

ولما لم يسلموا، أذن رسول الله (ص) للجيش بالرحيل، وعاد به إلى أن بلغ الجعرانة فقسم بها غنائم حنين وكانت الغنائم قد أرصدت[2] بها.

ولما كان العام الثاني، قدم على رسول الله (ص) وفد من ثقيف إلى المدينة فأسلموا، وفشا الإسلام في ثقيف، وكانوا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام من أثبت الثابتين على الإسلام حتى كانوا يقتلون من يرتد منهم!.

خروج الترك

ثورة الحجاز، مهاجمة الطائف، الاستيلاء عليه، عرب البادية في حروبهم

لما اشتدت وطأة الترك على العرب، وقام الشريف حسين بن علي بنهضته، موالياً للحلفاء، ومعاهداً لهم، على ما سأجمله في ما يلي من هذا الكتاب، عهد إلى ثاني أبنائه الشريف عبد الله بمهاجمة الطائف وإجلاء الترك عنها، فقصدها عبد الله يوم الخميس 7 شعبان 1334هـ وتم له فتحها يوم 26 ذي القعدة من السنة نفسها بعد أن قاومت

(1) جار الله المكي: : محمد عبد العزيز بن عمر العلوي الهاشمي المكي، من علماء القرن العاشر. زار الطائف مع أبيه سنة 915هـ وألف كتابه هذا (تحفة اللطائف في فضائل ابن عباس ووج والطائف).

(2) أرصدت: جمعت.

ثلاثة أشهر وستة عشر يوماً. وآب إلى مكة فنشر في جريدة (القبلة)[1] حديثاً مع مديرها. هذه خلاصته:

قال الأمير عبد الله: قصدت الطائف في 70 هجاناً عقيلياً، فوصلتها يوم 9 شعبان 1334 وعلمت إن الترك قد شعروا بحدوث أمر في الحجاز فاستطعت أن أمحو هذا الحس من نفوسهم بعد أن اجتمعت بغالب باشا"103" في داره وأبديت له سروري وشكري من حسن سلوكه معنا.. وتوجهت من داره إلى معسكري في (الوجريات) بجهة (القديرة) من قرى الطائف. وهناك اجتمع لي جمع قسمته إلى ثلاثة أقسام أعظمها قسم قبائل (عتيبة) في الشمال الغربي للطائف ويدخل فيه الشرق كله، والقسم الثاني وهو الجنوبي مؤلف من قبائل عوف وثمالة وبني سفيان وهذيل، والثالث وهو الغربي مؤلف من قبائل قريش وطويرق والنمور. فقطعنا الأسلاك البرقية وهاجمنا الطائف صباح الاثنين 11 شعبان ثم حاصرناها فخرجت قوة الترك إلى جبال (أم الشيع) و(المداهين) و(شرقرق) في شمال الطائف، وهضبة (أم السكارى) في الجهة الغربية. وبعد خمسة أيام وصلت إلينا أسلحة جديدة من البنادق وخرجت قوة من الترك فاستولت على هضبة (الشهداء) شرقي الطائف وهضبة (دقاق اللوز) فوجهت إليهم ثلة من الخيالة بقيادة الشيخ فاجر بن شليويح الروقي فأخرجناهم بعد أن قتلنا منهم 48 جندياً، وأمرت قسماً من هذيل الطلحات وآل حجة من بني سفيان فأغاروا على هضبة (أم السكارى) وقتلوا حاميتها وضبطوها، فانسحب الترك من جبال (أم الشيع) و(المداهين) و(شرقرق) إلى هضاب (الشريف) وجبال (أبي صحفة) و(معشي) و(عكابة). وفي العشر الثاني من رمضان وصل إلينا ستة مدافع وست رشاشات، ثم جاءنا في العشر الثالث من شوال المدفع الضخم من طراز (هاوتزر). ويوم 22 ذي القعدة اضطر القائد التركي للالتجاء إلى بيت عربي في الطائف، فأصلينا هذا البيت ناراً حامية، فاضطر للتسليم وأمضى بقبول الشروط في قرية (المكليساء)،

---

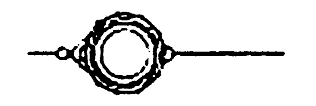
(1) جريدة أسبوعية كانت تصدر بمكة.

على أن يخرج هو ومن معه من الضباط -وكانوا نحو خمسين ضابطاً- إلى شبرة في ظاهر البلد، ثم تذهب إحدى القوى العربية إلى الشكنة، فيشبكون بنادقهم في أحد جوانبها، ويجلسون في غرفها. وتم ذلك كله في اليوم التالي، فكان دخولنا الطائف يوم 26 ذي القعدة سنة 1339هـ. وقد حافظنا على عائلات الأسرى، وبعثنا إليها بالمؤن الكافية ولم نجرد الضباط من سيوفهم، ولم نأخذ منهم مسدساتهم، وجيء بهم إلى مكة ثم إلى جدة، حيث سيقوا إلى معاقل الأسرى. وكانت قوة الترك في الطائف ثلاثة آلاف مقاتل، جرح منهم 300 وقتل منهم 700.

ثم تكلم عن طرائق أهل البادية في حروبهم فقال: نشأ العرب في وسط السلاح، ومهروا في أساليب الحرب، وهم لا يحاربون إلا متفرقين، لئلا يؤذيهم رصاص البنادق وشظايا القنابل. ومن أبهج أحوالهم إنهم في أثناء نشوب المعارك، يتفرغ بعضهم للقتال، ويشتغل بعضهم بتهيئة الطعام، ويجلس بعضهم لشرب القهوة، ويتسلى بعضهم بألعابهم وأغانيهم، حتى كأن هؤلاء الجماعات لا يدرون شيئا من أمر المعارك الناشبة في جانبهم، وبعد قليل يذهب المستريحون بسلاحهم إلى ساحة القتال، ويعود المحاربون إلى المعسكر للاستراحة كأنهم لم يكونوا في حرب.

ولهم في أثناء القتال مهارة عجيبة، في الاختفاء وراء الحجارة الصغيرة، والانبطاح على الأرض، والتقلب من مكان إلى مكان، دون أن يرى الأعداء أشخاصهم. ولهم في كل غرض صاحبها. والعربي وقت الحرب قائد نفسه، له الحرية في اختيار المكان، الذي يرى السلامة فيه، من حيث ينال مأربه من عدوه، ولا يتقيد بالخطط العامة التي يعطاها. وكان الأعداء لا يستطيعون التفريق بين أحجار الأودية وأجسام العربان، بل ربما كان يخيل لهم أن الرصاص يأتيهم من الصخور والأحجار لا من بنادق الرجال.

وأكثر ما يحارب العرب وقت الظهيرة، وإذا أرادوا الهجوم اختاروا له منتصف الليل، ورجحوا وقت احتجاب القمر. ولهم حروب سهلية وحروب جبلية، فالحروب السهلية يمتطون فيها الخيل والهجن لسرعة الانتقال. وأكثر عربنا مهارة في ذلك قبائل عتيبة، وأما الماهرون في حرب الجبال، فهم ثقيف وقريش وبنو سفيان. والنمور وطويرق وهذيل وأشباههم من عرب الحجاز.



آثار الطائف

مساجده، المقابر والأنصاب، الخطوط القديمة في جباله، الأصنام

الطائف قليل الآثار القديمة، لكثرة ما طرأ عليه من نوازل الحروب والسيول، وإني لذاكر ما رأيته تاركاً الزيادة عليه، لمن يتوسع في بحثه عنه، ويكون له من الوقت والوسائط والمعرفة بأنواع الخطوط القديمة كالكوفية والمسمارية والمسند، ما يكفي لتتبع كل أثر قديم فيه. أما الشاخص اليوم من آثاره، فينحصر في ثلاثة مواضع: المساجد، والمقابر، والجبال، وإليك مجمل ما عثرت عليه فيها:

الأول- المساجد القديمة البناء: وهي في شكلها وحجارتها وهندسة بنائها جديرة في أن تؤخذ رسومها، إلا أنني لم يكن معي ما أصورها به، كما إنه ليس في الطائف رسام ماهر، أعتمد عليه في هذا الشأن، فمنها:

1- **المسجد العباسي:** وهو مسجد الحبر ابن عباس وله الشأن الأكبر في مساجد الطائف ومزاراته، وقد دفن فيه جماعة (يأتي الكلام على بعضهم في ذكر أشهر المدفونين في الطائف) وهو متسع مستطيل ينسب إلى ابن عباس، لأنه مدفون فيه. وقد كان وما زال موضع عناية زائريه، كلما تخرب منه جانب عمِّر. قال العجيمي: ومن جملة من كانت لهم يد في عمارته الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي ابن رسول ، صاحب اليمن سنة 675هـ والمستضيء بأمر الله العباسي سنة 592هـ، وأمير الحاج المصري رضوان بك سنة 1047هـ والشريف زيد بن محسن بن الحسن بن الحسين بن أبي نمي سلطان مكة (كذا) جدّد عمارته سنة 1061هـ قال: وقد زادت القبور في المسجد العباسي، وكثرت حتى امتلأ نصف صحنه بها ولولا نهي الشريف زيد بن محسن عن الدفن فيه، لتواصل وصار جميعه مقبرة. وكانت صلاة الجمعة تقام في مسجد في (السلامة) حتى اتفق في أيام هذا الشريف، أن كثر القادمون على الطائف، فأمر بإقامة الصلاة في المسجد العباسي، وذلك في 3 جمادى الأولى سنة 1054 ثم قال: وكانوا لا يقيمون الجمعة فيه لاعتباره مقبرة لا مسجداً.

وجاء في كتاب (أشراف مكة وأمرائها)[1] إن والي الشام محمد باشا العظم عهد إلى الشيخ محمد العنتبلي سنة 1193هـ بأن يزيد في مسجد الحبر، فزاد فيه 32 ذراعا طولا ومثلها عرضا، وكان ذلك في أيام إمارة الشريف سرور بن الشريف مساعد بن الشريف سعيد فلما اطلع على هذه الزيادة جدد في المسجد عقدين في العام نفسه. قال صاحب هذا الكتاب: وفي 28 رجب سنة 1193 توجه الشريف سرور بأهله إلى الطائف من مكة، ونزل في قرية السلامة. وفي نصف شعبان أخرج له الهلال القديم، الذي كان على قبة الحبر منذ بنيت هذه القبة على يد المستنجد بالله يوسف العباسي سنة 555هـ، وكان الهلال صفراً مموّهاً بالذهب، فوضع الشريف سرور بدلاً منه هلالاً أبدع في صنعته، زنته 600 أوقية من الفضة النقية، ثم سوّده الندى فأمر بتمويهه بالذهب. وبعد زمن غير طويل أخرجه ووضع آخر أكبر منه، يقارب وزنه قنطاراً وموّهه بالنضار سنة 1196هـ.

2- مسجد عدّاس في المثناة: ينسب لعداس أول من آمن في الطائف وقد مرّ ذكره في فصل فتح الطائف، وهو مدفون في هذا المسجد. وفي تاريخ الميورقي أن هذا المسجد أقيم في المكان الذي آوى إليه النبي (ص)، وأسلم به عداس ودفن فيه، قال: ووقف له أحد أهل الخير بستاناً لخدمته.

وفي (اللطائف) للحضراوي[2] ما يؤخذ منه إن هذا المسجد، كان يعرف قبل زمنه باسم (مسجد السنوسي)، وعرف في أيامه باسم (مسجد الربع). قال: وهو مشرف على السلامة، أما اليوم فما زال الكثيرون، يعرفونه بمسجد الربع،

---

(1) كتاب أشراف مكة وأمرائها: مخطوط، فيه تراجم جماعة من أشراف مكة وأمرائها ابتداء من سنة 1165هـ إلى سنة 1220هـ وهو مرتب على السنين، بارد السجع، ضعيف الإنشاء، وفي آخره أخبار كثيرة عن حرب الوهابية.

(2) الحضراوي: هو الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الحضراوي من علماء مكة المكرمة توفي بعد سنة 1330هـ بقليل، واسم كتابه (اللطائف في تاريخ الطائف) جمعه من عدة تواريخ، وهو في خمسة كراريس.

وأدباء الطائف محافظون على تسميته باسمه القديم (مسجد عداس)، وهو من قديم الآثار والمزارات.

3- **مسجد ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم:** أول من بناه عمرو بن أمية بن وهب بن معتب بن مالك لما أسلمت ثقيف، ثم خرب فجددت عمارته زبيدة بنت جعفر العباسية. قال الفاسيّ في شفاء الغرام: وجدت بخارج الجدار القبلي من المسجد العباسي حجراً مكتوباً فيه: (أمرت السيدة أم جعفر زبيدة بنت جعفر أم ولاة عهد المسلمين بعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف وذلك في سنة اثنتين وتسعين ومائة 192). وقال الحضراوي: المسجد المنسوب للنبي (ص)، هو الآن (أي بعد سنة 1300هـ) تحويطة صغيرة، طولها يزيد عن ذراع ملاصقة للجدار القبلي من القبة الأخيرة الواقعة، في آخر المسجد العباسي، على يمين الداخل من بابه الشرقي. اهـ، ولا يزال إلى يومنا على هذه الصفة.

هذه أشهر المساجد القديمة في الطائف.

الثاني- المقابر والأنصاب: وهنا يجد المنقب كثيراً من الخطوط القديمة، منها الكوفي والنسخي وما بينهما، وجلها يرجع عهد كتابته إلى القرن الخامس والرابع للهجرة، وفيها ما هو قبل ذلك يدل عليه أنه مهمل من النقط. وتقرأ في ظاهره صورة من مرور الإعصار والأزمان. وأكثر هذا النوع بل كل ما رأيته منه عار عن تاريخ كتابته، إلا ما جاء فيه من أسماء الرجال المدفونين في تلك المقابر، فإن فيهم القديم والحديث. ولم أر بين هذه القبور ما يرتدّ زمنه إلى أوائل العصر الإسلامي، لأنهم في ذلك العصر لم يكونوا يعنون بنقش الأنصاب (وهي المعروفة الآن بالشواهد [1])، بل كانوا يدفنون الميت وينهلون عليه التراب، ويكتفون بوضع حجر عليه، إشارة إلى أنه موضع دفنه ليزوره أهلوه وأقرباؤه. أما الاهتمام بشأن المدافن واللحود فقد حدث بعد الجيل الأول من أجيال الإسلام، كما يظهر لمن تتبع آثار الرمم البوالي والعصور الخوالي.

---

(1) الشواهد:ج شاهدة وهي قطعة من الحجر أو الرخام توضع على مقدمة القبر تحمل اسم الميت وآيات قرآنية عادة.

ولم تكن العرب في القرون الثلاثة: من أواخر القرن الأول، إلى أواخر القرن الرابع للهجرة تعنى بكتابة شيء على قبورها غير آيات من القرآن الكريم، وتابعها على ذلك أبناء المئات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة، فجعل أكثرهم يكتب الآية ويتبعها باسم المدفون، وفيهم من يكتب نسبه وشأنه وتاريخ وفاته، إن كان من ذوي الأنساب أو الزعامة والشأن. وفي أبناء هذه المئات من يضيف إلى الآية والنسب والتاريخ أبياتا من الشعر الجيد، يصح التمثل بها في باب الزهد بالحياة والحنين إلى لقاء وجه الله. فمن نوع ما كان يكتب بعد القرن الأول نصب،رأيناه خارج سور الطائف في المقبرة العامة استدللنا من خطه واكتفاء ناقشيه بالآية، على أنه مما كتب بين المائة الثانية والثالثة.

وأما ما كان يكتب بعد الرابعة، فرأينا كثيراً منه، أحده: نصب في هذه المقبرة أيضاً، نقشت عليه آية الكرسي، وفي أدناه (هذا قبر يوسف بن الحكيم رحمه الله) وليس عليه تاريخ، ولكن الخط جميل واضح على القاعدة الكوفية. وثانيه: نصب لم يكتب عليه شيء من آي القرآن الكريم، بل اكتفى فيه بذكر الاسم والنسب والتاريخ وهو: (هذا قبر يحيى بن شجاع بن يوسف بن عبد الله ابن علي بن (غير واضحة لعلها الكبير) توفي سنة تسع عشرة وخمسمائة).

وفي مكة كثير من هذا النوع، أجمله وأوضحه نصب رأيته محفوظاً في دار الحكم (قصر الملك)، طوله شبران وعرضة شبر واحد، كتب في أعلاه [بسم الله الرحمن الرحيم: قل يا عبادي الذين أسرفوا- الآية] وتحتها (هذا قبر الأمير مفرج بن الحسين بن يحيى بن فليته بن القاسم -إلى- ابن موسى الجون -إلى- ابن الحسين بن علي، توفي يوم الجمعة الرابع من ربيع الآخر سنة ست وثمانين وخمسمائة) وعلى أطراف الآية والنسب أبيات يقرأ منها:

هي الحياة إذا سرَّت أوائلُها	ففي عواقبها التفريقُ والنكد
إذا الزمانُ بصرف الدهر، مدَّ يدّا	فمن له بتصاريف الزمان يدُ
والموت يحترم الأحياء، عن أمم	غصبا، فلا ديةٌ فيها ولا قودُ

وبعد هذه الأبيات بيتان أحدهما ممحوّ والآخر:

رحلتُ وكنت ما أعددتُ زادا	وما قصّرتُ في زاد المقيم

وعلى جانب النصب، من أعلا ه هذان البيتان:

ترحَّم بفضلك، يا واقفاً وأبصر مكاناً، دفعْت إليه

ترابُ الضريح على صفحتيّ كأنيَّ لم أمش يوماً عليه!

وفي أسفله: (عمل عبد الرحمن بن أبي حرمي عفى الله عنه).

ومن أراد مثل هذا في قبور الطائف ومكة، وجد كثيراً من أشباهه تختلف خطوطها بين الوضوح والغموض والجودة والرداءة، أكتفي منها بما قدمته.

3- **جبال الطائف**: وهنا ما تضيق الصفحات عن استيعابه فإن فيها ما هو مليء بالكتابات القديمة والمفاخرة والحديثة، منها بالعربية ومنها بحروف أظنها المسمارية، ومنها برسوم كأنها كتابة، ولعل فيها ما كتب قبل الإسلام.

من ذلك صخرة كبيرة مرتفعة، تستقبل القادم عليها من الطائف، وهي على مسيرة ثلاثة كيلو مترات من باب الحبر في الطائف، صعدنا إليها فإذا كتابات ونقوش وفيرة، قرأنا بعد الجهد من كتاباتها: [إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما]-وفي آخرها- محمد بن مهدن، وأظنها من آثار القرن الثالث أو الرابع. وهناك كتابات أحدث منها، لم أتعرض لها. أما القديم فيها فهو صور حيوانات متناسقة، أوشكت نقوشها أن تزول ويغلب على الظن، إنها مما نقش أيام عبادة التماثيل والهياكل والصور والأصنام، منها صور لا نعرف لها حقيقة، غير أنها أقرب إلى صورة الفيل، لولا أن شكل الخرطوم كنصف دائرة في رأسه منحنية إلى الداخل من طرفيها، يجاورها غزال ووعل وفرس، وربما تكررت هذه الصور.

ومن الكتابات الكثيرة في هذه الصخرة، وما حولها من الصخور الكبيرة الضخمة، ما هو في سطرين أو عدة سطور، وبعضها في دائرة، وكثير منها لم نستطع قراءته، وأما الواضح أو الأقرب إلى الوضوح، فمن كتابة القرن الخامس أو السادس لمشابهته خطوط الأنصاب السابق ذكرها المكتوبة في ذينك العصرين.

وقبل هذه الصخور جبل يسمونه (أم السكارى)، يزعمون أن سبب تسميته اتخاذ العرب إياه في الجاهلية موضِعاً لاحتساء الشراب، ويؤيدون هذا بكثرة ما حوله من

الكروم في وادي المثناة والسلامة، ولم أجد له ذكراً في المعاجم العربية القديمة. أخبرني قاضي الطائف بأن عليه أسطراً تاريخها سنة 188هـ، فصعدته وهو على الجانب الغربي من المثناة، فرأيت كتابات كثيرة، ولم أر التاريخ الذي ذكره لي ولكنه يؤكده إنه رآه، وعلى إحدى صخور هذا الجبل رأيت كتابة تقرب حروفها من اللاتينية، فنقلتها ولم أهتد إلى من يترجمها لي.

وهناك جبل آخر يبعد عن الطائف مسيرة ساعة إلى جهة الغرب الجنوبي منه، يسمونه (الردّف)، ويعلّلون هذه التسمية بترادف حجارته وصخوره بعضاً فوق بعض، والكثيرون يسمونه (السداد) باسم القرية، التي هو فيها، وسميت بذلك لأنه كان فيها ثلاثة سدود لمنع السيول، خرب اثنان منها وبقي الثالث متداعياً.

وفي هذا الجبل ما هو أكثر فائدة مما تقدم، فقد رأيت فيه خطوطاً متعددة أكثرها غير مقروء يلوح لي أنها من كتابة القرن الثاني أو بعده بقليل، وفيها ما هو قبل ذلك.

ويظهر أن عبد الله بن علي بن أبي محجن الثقفي، كان كثير الولوع بالنقش في هذا الجبل، فقد رأيت له فيه أثرين غريبين، أحدهما هذا نصه:

(عبد الله بن علي بن أبي محجن يسأل الله بوجهه الكريم الجنة)

ونص الثاني:

(عبد الله بن علي بن أبي محجن يسأل الله القتل في سبيله على بركته)..

ومما قرأته في صخور هذا الجبل:

(عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الرحمن، يشهد أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً).

وهذه الخطوط الثلاثة، يظهر أنها من أواخر القرن الأول للهجرة أو أوائل الثاني.

هذا ما رأيت إثباته مما اطلعت عليه من آثار الطائف القديمة، وهناك أقوال في آثار آخر لم تصح عند الباحثين، كصخرة خارج سور الطائف إلى الجهة الغربية منه، فيها حفر على نسق واحد يقال إنها مواطئ أقدام الغزالة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بثابت كما حققه الحافظ ابن الأثير، وكخرق يسير في جانب صخرة، بعد

قصر (شبرة) للذاهب من الطائف شرقاً. يقولون إن النبي (ص) أو علياً (رض) خرقها بإصبعه، ليضع فيها زمام راحلته. وهذا غير صحيح أيضاً، وإنما ننفي صحة هذين الأثرين -خلافاً للشائع-، لأنهما بعيدان عن المعقول وغير ثابتين في المنقول. وفي كل بلد من أمثالهما ما يرده البحث، فلا نتعرض للإطالة في وصفهما.

الأصنام

وقد يلحق ببحث الآثار الكلام على أصنام العرب في الجاهلية، وإن كنت لم أعثر لها على أثر، غير ما نقل لي وأنا في الطائف عن هيكل (العزى)، من أنه كان محفوظاً هنالك، حتى كانت وقعة الوهابية ومحمد علي باشا، فعثر الوهابيون عليه فكسروا رأسه، ومددوه في الطريق على باب المسجد العباسي، إلى أن زال منذ عهد قريب. وروي لي أن في طريق السيل (بين مكة والطائف) أثراً شاخصاً، يراه المار به عن بعد في صورة إنسان، منقوشاً على صخرة، وحين يقترب منه لا يشهد غير أثر تخطيط ونقوش هي أقرب إلى الغموض.

وقد كانت قبائل ثقيف قبل الإسلام، تعبد صنمين أحدهما اللات والثاني العزى، كما كان لكل قبيلة في العرب صنم يعبده جهلاؤها، ويتقرب فيه إلى الله عقلاؤها، وإتماما للفائدة أذكر أشهر هذه الأصنام بإيجاز ما استطعت:

1- اللات: قال علماء التاريخ: هو صخرة بيضاء مربعة، كان يجلس عليها رجل يبيع السمن واللبن للحجاج في زمن الجاهلية الأولى، ثم اعتقدت ثقيف أن إلها دخل في تلك الصخرة، فبنوا عليها بنياناً وعبدوها، وجعلوا لها سدنة، وطافوا حولها، وضاهوا بها الكعبة، وجعلوا لها كسوة، وحرموا الصيد في واديها. فلما أسلمت ثقيف بعث رسول الله (ص) المغيرة بن شعبة، فهدمها وأحرقها بالنار. وقال ياقوت: هي اليوم (أي في عصره) تحت مسجد الطائف، فلعل ذلك ما بقي من الصخرة بعد إحراق البناء، الذي فوقها وهدمه. وقيل إن أصل اسمها (اللاه) فأبدلوا الهاء بالتاء قبل الإسلام.

2- العزى: تأنيث الأعز. يظهر من كلامهم أنها كانت على شكل امرأة، نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها. وكانت في واد من نخلة

الشامية (على ليلتين من مكة) إلى يمين المصعد إلى العراق. اتخذها رجل يسمى ظالم بن أسعد فبنى عليها بيتاً، وهي أحدث من اللاة ومناة، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبائح. ويقال إن النبي (ص) ذكرها يوماً فقال: لقد اهتديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي. وكانت قريش تخصها بالإعظام وقد حمت لها شعباً من وادي حراض، يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة. وكان سدنة العزى بنو شيبان بن جابر، وكان من الناصبين في عبادتها أبو احيحة سعيد بن العاصي بن أمية- وكان عزيزا في قريش يعتم بمكة، فلا يجسر أحد أن يعتمّ بلون عمامته -ولما قوي ساعد الإسلام بعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد إلى العزى، فكسر رأسها وقتل سادتها دبية بن حرمي السلمي.

3- مناة: صنم كان بيثرب (المدينة المنورة) يقال إنه أقدم أصنام العرب، وكان أشد الناس تعلقا به الأوس والخزرج، ومن يحذو حذوهم من عرب يثرب وما جاورها، فكانوا يحجون (إلى الكعبة)، ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا، لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك. وكانت قريش وجميع العرب تعظم مناة حتى خرج النبي (ص) سنة ثمان للهجرة (وهو عام الفتح) فبعث أبا سفيان بن حرب فهدم مناة وأخذ ما كان لها، ووجد عندها سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغاني أهداهما إليها، أحدهما يسمى مخذماً والثاني رسوباً، وهما من أسياف العرب المشهورة. ولم أجد وصفاً لمناة.

4- هبل: قيل إنه كان من عقيق أحمر، على صورة الإنسان، مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب ووضعته في جوف الكعبة. أول من نصبه خزيمة بن مدركة، وقد يسمونه (هبل خزيمة). وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة، وحولها أعظمها عندهم هبل. وعبدته بنو كنانة - وكانت تعبد ما تعبده قريش- وقد كسر مع أصنام الكعبة يوم فتح مكة.

5- ودّ: تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، نقش عليه حلتان متزر بحلة

ومرتد بأخرى، عليه سيف، قد تنكب قوسا، وبين يديه حربة فيها لواء، وجعبة فيها نبل. كان لبني وبرة في دومة الجندل[1]، وكانت سدانته لبني القرافصة بين الأحوص الكلبيين، هدمه خالد بن الوليد.

6- سواع: صنم كان لهذيل في ينبع. سدنته بنو لحيان.

7- يغوث: صنم قديم، كان امذحج على أكمه في اليمن تعرف بأكمة مذحج ثم نقل إلى نجران.

8- يعوق: صنم قديم أيضا كان لهمدان في اليمن. قيل في قرية تدعى خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة. قال ياقوت: ولم أسمع لهمدان ولا لغيرها شعراً فيه، وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء، واختلطوا بحمير فدانوا معهم باليهودية أيام تهوّد ذي نواس فتهوّدوا معه.

9- نسر: من الأصنام القديمة. كان في موضع من أرض سبأ في اليمن فعبدته حمير ومن والاها، ولم تزل تعبده حتى تهودت مع ذي نواس. سعوا مسحوا به. كسر يوم الفتح.

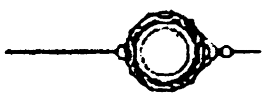
10- إساف: من قديم الأصنام كان بمكة على الصفا وكسره الصحابة يوم الفتح.

11- نائلة: صنم قديم أيضا كان منصوبا على المروة بمكة وهو في شكل امرأة

12- ذو الخلصة: صنم مشهور اختلف المؤرخون في مكانه وهيأته، ومن أقوالهم - ولعله الأقرب إلى الصحة- إنه مروة بيضاء منقوشة، عليها كهيأة التاج كانت بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة. وكان سدنتها بني إمامة من باهلة. وكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة تعظمها وتهدي لها. هدمها جرير بن عبد الله وأضرم في بنيانها النار بعد أن أسلم.

---

(1) دومة جندل:تعرف الآن باسم الجوف على شرق سورية إلى الجنوب الشرقي من دمشق.



(شهداء وقعته، بعض المعروفة قبورهم فيه، رجال ثقيف، نساء ثقيف)

تهاون المؤرخين المتقدمين في الكلام على الطائف، أضاع على ابن هذا العصر تراجم كثير من أبنائه في الجاهلية والإسلام، وما بعده إلى يومنا. ولما كانت القاعدة المعمول بها إن ما لم يكن كله فليكن جله أو أقله، رأيت أن أسمي هنا أشهر من ولدوا في ديار الطائف، أو دفنوا فيه ممن توصلت إلى معرفتهم بالنقل أو بالأثر.

شهداء وقعته

يحسن بي أن أبدأ هذا الفصل بالكلام على من ثبت استشهادهم، في الطائف من الصحابة رضوان الله عليهم، في غزوة النبي (ص) لثقيف عام ثمانية للهجرة، وهم اثنا عشر رجلاً وبعض المؤرخين يضيف إليهم عبد الله بن أبي بكر الصديق، لأنه جرح في غزوة الطائف وتوفي في المدينة متأثراً من جرحه، فيكونون ثلاثة عشر: سبعة من قريش، وأربعة من الأنصار، وواحد من بني الليث، وآخر من ثقيف.

1- **عبد الله بن أبي بكر الصديق**: لم يمت في الطائف، وإنما جرح في غزوته، واندمل جرحه مدة حتى إذا كان في المدينة انتكث الجرح فتوفي بها.

2- **سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي**: أمه صفية بنت المغيرة عمة خالد بن الوليد. أسلم قبل فتح مكة بيسير وقتل شهيداً يوم الطائف.

3- **عرفطة بن عبد الله بن أمية**: أحد ثلاثة كانوا يعرفون بزاد الراكب لأن من سافر معهم كان زاده عليهم. توفي شهيداً في هذه الوقعة على الأرجح.

4- **السائب بن الحارث بن قيس الفرشي**: أحد المهاجرين إلى الحبشة قتل في هذه الوقعة.

5- **عبد الله بن الحارث بن قيس**: من المهاجرين إلى الحبشة أيضاً. قتل في الوقعة نفسها وهو أخو السائب، وبهما انقرضت ذرية أبيهما الحارث.

6- طلحة بن عبد الله بن ربيعة: قتل في وقعة الطائف بسهم من أحد أهلها.

7- ثابت بن الجزع، ويسمى ثعلبة، الأنصاري الخزرجي السلمي: شهد العقبة وبدراً وقتل بالطائف شهيداً.

8- الحارث بن سهيل بن أبي صعصعة الأنصاري: قتل في هذه الوقعة.

9- المنذر بن عبد الله الأنصاري من الخزرج: من شهدائها.

10- رقيم الأنصاري: من شهدائها.

11- رجل من بني الليث لم يذكروا اسمه: من شهدائها.

12- عروة بن مسعود الثقفي: من شهدائها.

13- عبد الله بن عامر بن ربيعة: من شهدائها.

وفي تراجمهم والمواضع التي توفوا بها خلاف لا حاجة بي إليه.

بعض المعروفة قبورهم فيه:

1- ابن عباس: أشهر من دفن في الطائف ذكراً. صاحب المسجد العباسي فيه، الصحابي، ابن عم صاحب الرسالة (ص): عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، جد الخلفاء العباسيين. قال صاحب دستور الأعلام: ابن عباس الهاشمي الفقيه المفسر ترجمان القرآن ورباني هذه الأمة. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين. وقال غيره: ابن عباس أحد الستة المكثرين من حفظ الحديث عن رسول الله الراوين الألوف، وهم: أبو هريرة، وابن عمر، وجابر، وابن عباس، وأنس، وعائشة. وكان سعد بن أبي وقاص يقول: ما رأيت أحداً أحضر فهما ولا أدباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلما من ابن عباس. وكان علي يقول في ابن عباس: إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق!

وكان أبيض وسيما جسيما مشربا بصفرة طويلا صبيح الوجه، له وفرة يخضب بالحناء، ويلبس الخز ويعتمّ بعمامة سوداء يرخيها شبراً. توفي سنة 68هـ وقد كف بصره.

2- عبد الله بن عون: أحد أمراء مكة وأشرافها من ذوي عون. الشريف عبد الله

باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون، وبقية النسب معروفة. قال زيني دحلان في الجداول المرضية: ولي إمارة مكة بعد وفاة أبيه سنة 1274هـ وكان في الأستانة برتبة الوزارة، فوصل مكة سنة 1275هـ، واستمر إلى أن توفي سنة 1294هـ، وهو بالطائف في بستانه المسمى بشبرة وعمره سبع وخمسون سنة، ومدة ولايته عشرون سنة إلا ثلاثة أشهر، ونقل إلى قبة ابن عباس فدفن فيها.

3- الشريف جعفر: من أمراء مكة أيضاً، وهو الشريف جعفر بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن. ولي الإمارة سنة 1172هـ ثم تنازل عنها بعد شهر إلى أخيه مساعد، وتوجه إلى الطائف فمكث به إلى أن توفي سنة 1178هـ.

4-ابن الحنفية: أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب. المعروف بابن الحنفية نسبة لأمه، وتمييزاً لسبطي رسول الله (ص) من فاطمة عنه. كان عالماً ورعاً، شديد القوة، له فيها أخبار عجيبة (أنظر وفيات الأعيان). ولد سنة 21 وتوفي سنة 81هـ، والمؤرخون مختلفون في موضع وفاته ودفنه، وأهل الطائف لا يشكّون في أنه بمقبرة ابن عباس، على أن في جملة الأقوال إنه مات في الطائف.

5- الميورقي المؤرخ: أبو العباس الشيخ أحمد الميورقي، توفي سنة 678هـ سبقت لنا كلمة عنه. دفن في مقبرة ابن عباس. قال ابن عراق في نشر اللطائف: وفي جبانة ابن عباس قبر الشيخ أبي العباس ابميورقي، وبقربها شجرة سدر تسمى الحدباء كانت قريش تعقد الرأي تحتها (وقد زالت الآن).

6- عون الرفيق: الشريف عون الرفيق (باشا) ابن الشريف محمد بن عبد المعين بن عون. ولي إمارة مكة في 24 ذي القعدة سنة 1299 ووصل مكة يوم 10 ذي الحجة وظلّ متربعاً في دست الإمارة إلى أن توفي في الطائف عام 1323هـ فدفن في مقبرة الحبر بن عباس.

وهناك آخرون من المعروفة قبورهم في الطائف، أضربت عن ذكرهم إيجازاً.

1- زياد: من أشهر المولودين في ديار الطائف زياد بن عبيد [1] وهو المعروف بزياد بن أبيه لاختلاف المؤرخين في نسبته، كنيته أبو المغيرة، وأمه سمية ولد سنة الهجرة. وأسلم في عهد أبي بكر، وكان كاتب أبي موسى الأشعري في أمرته على البصرة. ولما توفي علي بن أبي طالب كان زياد عامله على فارس فتحصن في قلعة وعصى معاوية. فألحقه معاوية بنسبه وأثبت أنه أخوه من طلب أبي سفيان. وصالحه على ألفي ألف درهم (2ر000000 درهم) فجمع له زياد إمرة العراق. قال ابن حزم في الفصل: امتنع زياد وهو قفعة القاع لا عشيرة له ولا نسب ولا سابقة ولا قدم فما أطاقه معاوية إلا بالمداراة وحتى أرضاه وولاه! وقال الذهبي: كان زياد لبيباً فاضلا حازماً من دهاة العرب بحيث يضرب به المثل، وقال الشعبي: ما رأيت أحداً أخصب نادياً ولا أكرم مجلسا ولا أشبه سريرة بعلانية من زياد. وقال الأصمعي: أول من ضرب الدنانير والدراهم ونقش عليها اسم الله ومحا عنها اسم الروم ونقوشهم زياد. وقال العتبي: إن زياداً أول من ابتدع ترك السلام على القادم بحضرة السلطان. وقال الشهبي: أول من جمع له العراق وخراسان وسجستان والبحران وعمان زياد. وهو أول من عرّف العرفاء ورتب النقباء ومشى الأعوان بين يديه ووضع الكراسي وربع الأرباع بالكوفة والبصرة وخمس الأخماس.

وقال الأصمعي: الدعاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة وزياد لكل كبيرة وصغيرة. ولي العراق وحاول ضم الحجاز إليه، فعاجله الموت سنة 52هـ ولم يخلف غير ألف دينار وقميصين وإزارين لا دار له ولا عقار.

2- الحجاج: ومن مواليد ديار الطائف الحجاج الثقفي. قال الذهبي في تاريخه: هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي(أمير العراق)

---

(1) زياد بن عبيد:عبيد مولى للحارث بن كلدة الثقفي.

ولد سنة 41 للهجرة. وروى عن ابن عباس وسمرة بن جندب وأسماء بنت أبي بكر الصديق وابن عمر. وكان له بدمشق أمر. ولي إمارة الحجاز، ثم ولي العراق عشرين سنة.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أحدا أفصح من الحسن والحجاج والحسن أفصحهما. وقال يزيد بن أسلم الثقفي: كان الحجاج على مكة فكتب إليه عبد الملك بن مروان بولايته على العراق فخرج في ثمانية أو تسعة على النجائب. وقال عبد بن شوذب: ما رؤي مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه. كان سفاكا سفاحاً للدماء. عاش خمساً وخمسين سنة وتوفي ليلة 27 رمضان سنة 95هـ. قال ابن خلكان: مات الحجاج بواسط وأجري الماء على قبره فاختفى واندرس. والشائع اليوم أن مولده في قرية بني صخر من قرى الهدة وقد مرت لنا كلمة في هذا الشأن. وخطبه معروفة أشهرها البتراء.

3- ابن أبي العاص: أبو عبيد الله عثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي أحد الوافدين على رسول الله من ثقيف، وكانوا بضعة عشر رجلا هو أصغرهم سناً لا يتجاوز عمره إذ ذاك 27 سنة. توسم فيه النبي (ص) الخير والنجابة فاستعمله على الطائف فكان أول أمير عليه في الإسلام ولم يزل في عمله مدة حياة النبي وأقره أبو بكر ولما انتهى الأمر إلى عمر أبقاه سنتين ثم نقله منه وولاه عمان والبحرين سنة 15هـ. وفي أواخر أيامه رحل إلى البصرة فمات بها سنة 51 وقيل 55هـ.

4- **الحكم بن أبي العاص**: أخو عثمان السابق ذكره، قيل كانت له صحبة وولاه أخوه عثمان البحرين فافتتح فتوحاً كثيرة، قال ابن سعد في الطبقات: ولما كان أخوه على الطائف كتب إليه عمر: أقبل واستخلف أخاك الحكم. فاستخلفه حتى عاد. ولما ولي عثمان عمان والبحرين في أيام عمر عهد إلى أخيه الحكم بولاية البحرين فأدار شؤونها. ولعله توفي بها.

5- **عبد الله بن عمرو**: بن غيلان الثقفي. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل حجة الوداع. ثم رحل من الطائف إلى الشام فاتصل بمعاوية فكان من كبار رجاله، وولاه البصرة بعد موت زياد فأقام عليها أميراً ستة أشهر.

6- **عبد ياليل**: بن عمرو بن عمير الثقفي. من عظماء ثقيف ووجوهها في الجاهلية والإسلام. تقدم ذكره في فتح الطائف وإسلام ثقيف، أرسله قومه إلى رسول الله (ص) بعد رحيله من حصار الطائف، يفاوضه في إسلامهم وبيعتهم فاستصحب معه وفداً منهم، وأتفق مع النبي (ص) فأسلم هو ومن معه وعاد إلى ثقيف فأسلمت كلها.

7- **جبير بن حية بن مسعود الثقفي**: ابن عم المغيرة بن شعبة، وابن أخي عروة ابن مسعود. شهد الفتوح في عهد عمر، وكان يسكن الطائف يعلم الصبيان فيه، ثم قدم العراق فاستقر كاتباً في الديوان ثم ولاه زياد أصبهان وعظم شأنه. ومات في خلافة عبد الملك بن مروان.

8- **الأخنس الثقفي**: أبو ثعلة أبيّ بن شريق، يلقب بالأخنس، من شجعان ثقيف كان حليف بني زهرة، أسلم وشهد حنيناً، ومات في اول خلافة عمر.

9- **الأسود بن مسعود**: من شعراء ثقيف، وفد على النبي (ص) ومدحه بأبيات.

10- **أسيد بن جارية**: بن أسيد الثقفي. كان حليفاً لبني زهرة، أسلم يوم فتح مكة، وشهد حنيناً وأعطاه النبي (ص) مائة من الإبل.

11- **أمية بن أبي الصلت**: الشاعر الجاهلي المشهور. من حكماء العرب وعقلائهم كان له نظر في الجاهلية بكتب الأديان، وتزهد فلبس المسوح وتعبد على دين إبراهيم وإسماعيل، وحرم على نفسه الخمر، وتجنب عبادة الأوثان، وأدرك بدراً ورثى قتلاها. وشعره كثير، وهو من ثقيف مات أيام حصار الطائف وهو فيه، عام تسع.

12- **يوسف الثقفي**: بن محمد بن يوسف. ابن أخي الحجاج. عدّه صاحب (الأرج المكي)[1] في جملة من ولوا أمر مكة المكرمة غير الأشراف. وذكر إنه وليها من

---

(1) الأرج المكي والتاريخ المكي: للعالم الإمام عبد القادر الطبري الشافعي المكي، كتاب في مجلد غير ضخم. منه نسخة مخطوطة بمكة.

قبل الوليد بن يزيد بن عبد الملك عام 125هـ. وفي (إتحاف فضلاء الزمن)[1] ما يؤكد هذا وزاد عليه إن ولايته دامت إلى انقضاء دولة الوليد سنة 126هـ، ولم يذكرا تاريخ وفاته.

13- خفاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفي: وفد على النبي (ص) فأسلم وأنشد قصيدة أورد ابن حجر في الإصابة بعض أبياتها.

14- العرجي: الشاعر المشهور، عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان القرشي الأموي. قيل له العرجي لأنه كان يسكن قرية العرج في الطائف. وفي (العقد الثمين)[2] أن محمد بن هشام بن إسماعيل كان والياً على مكة لهشام بن عبد الملك، فسجن العرجي في تهمة دم مولى لعبد الله بن عمر، فلم يزل في السجن إلى أن مات ولم يذكر تاريخ وفاته.

15- السائب الثقفي: السائب بن الأقرع بن عوف بن جابر. روى الكلبي عن ابن عباس أنه لم يكن في العرب أمرد ولا أشيب أشدّ عقلاً من السائب بن الأقرع. دخلت به أمه على النبي (ص) وهو غلام فمسح رأسه ودعا له، ثم استعمله عمر (رض) ووجهه إلى نهاوند، وشهد فتحها. وكان عاملا لعمر على المدائن، ثم ولي أصبهان ومات فيها.

16- سفيان بن عبد الله: ابن أبي ربيعة الثقفي. أسلم مع الوفد، وكان عاملا لعمر على صدقات الطائف عام 24هـ وقيل إنه كان أحد عمال النبي (ص) في الطائف.

---

(1) إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن -للشيخ محمد بن علي بن فضل بن عبد الله بن محمد ابن يحيى بن مكرم بن المحب محمد الطبري الحسيني المكي إمام المقام الإبراهيمي الملقب بالجمال الأخير، توفي سنة 1163هـ ودفن بالمعلى في شعبة النور. وكتابه هذا من أجل ما رأيت في موضوعه، أتى فيه على ذكر أمراء مكة المكرمة وغيرهم من أبناء الحسن (رض) وهو مجلد كبير.

(2) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين:كتاب في عدة مجلدات للمؤرخ الإمام الحافظ أبي الطيب محمد الفاسي المكي المتوفى في منتصف القرن التاسع الهجري ويحفل بأخبار مكة.

17- الحارث بن كلدة: طبيب العرب، الحارث بن كلدة بن أبي علاج بن أبي سلمة الثقفي. وفد على كسرى قبل الإسلام وقصته مشهورة، واختلفوا في إسلامه، وكان في الطائف أيام حصاره. والراجح إنه مات قبل حجة الوداع لما يذكرونه من إنه لم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم، وشهدها أكثرهم. وكان الحارث يعالج مرضى المسلمين إذا جيء بهم إليهم. وفي ترجمته طول.

18- المغيرة بن شعبة: ابن أبي عامر بن مسعود بن معتب الثقفي: الأمير الداهية من كبار أمراء العرب في صدر الإسلام، أشتهر بجودة آرائه حتى قيل له مغيرة الرأي. أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وشهد بيعة الرضوان، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق، وأصيبت عينه في وقعة اليرموك ففقدها. ولاه عمر البصرة ففتح ميسان وعدة بلاد غيرها. ويذكر إنه أول من وضع ديوان البصرة وأول من سلم عليه بالإمرة، وكان من قبله عمالاً لا إمارة لهم، ثم نقله عمر إلى الكوفة، وأقره عثمان ثم عزله. ولما قتل عثمان اعتزل المغيرة القتال إلى أن حضر مع الحكمين، فبايع معاوية بعد اتفاق الناس على بيعته. وولاه معاوية الكوفة فاستمر على إمارتها حتى مات سنة 50هـ.

19- الشريد بن سويد: الثقفي من سكان الطائف، قيل كان اسمه مالكا والشريد لقبه. رحل إلى مصر في الجاهلية مع المغيرة بن شعبة ثم كانت له صحبة وكان النبي (ص) يستنشده شعر أمية ابن أبي الصلت فيرويه. وشهد بيعة الرضوان.

20- طريح بن إسماعيل: ابن عقبة الثقفي: شاعر مجيد ضاع شعره. أدرك عصر النبوة فأسلم. ولما صارت الدولة إلى بني أمية وآل الأمر إلى الوليد بن يزيد في الشام وفد عليه وتوسل له بالخؤولة لأن أم الوليد ثقفية، فاختصه الوليد نديماً فكان أكثر شعر طريح في مدح الوليد. وعاش إلى خلافة المهدي بن المنصور العباسي فقصده وأراد الدخول عليه ليسمعه شعره فأبى المهدي. ومات في أيام الهادي.

21- غيلان بن سلمة: ابن معتب بن مالك الثقفي. شاعر خطيب فصيح ذو شأن وفد على كسرى في خبر طويل. أسلم بعد فتح الطائف وأسلم أولاده وهم

أربعة: عامر وعمار ونافع وبادية. مات في آخر خلافة عمر.

22- **عامر بن غيلان**: ابن سلمة الثقفي. أسلم مع أبيه بعد فتح الطائف ورحل إلى الشام مع خالد بن الوليد. وكان عامر فارس ثقيف يومئذ. توفي بطاعون عمواس سنة 18هـ، ورثاه أبوه غيلان.

23- **ابن أبي عقيل**: عبد الله بن أبي عقيل الثقفي. كان شجاعا حازماً. نزل بالكوفة، وهو أحد أربعة بعث بهم عمر سنة 21هـ مادة (نجدة) للأحنف بن قيس في مرو الشاهجان. ذكره الطبري في تاريخه.

24- **عثمان بن ربيعة**: من شجعان ثقيف بعثه عثمان بن أبي العاص حاكم الطائف عند وفاة النبي (ص) إلى من تجمع من الأزد في شأن الردة فحاربهم وهزمهم وقال في ذلك من أبيات:

وأبـرق بـارق لمـا التقينا وعـادت خلباً تلك البروق!

25-**عمرو بن شبيل**: من ولد عتاب بن مالك الثقفي: شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة. وفي معجم الشعراء للمرزباني إنه مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وله شعر لم يحفظ.

26-**عمرو بن مسعود بن معتب الثقفي**، أخو عروة الصحابي المشهور. كان صديق أبي سفيان بن حرب في الجاهلية ينزل عليه أبو سفيان، إذا أتى الطائف وعاش إلى أن أسن ووفد على معاوية، وهو شيخ كبير فأنشده أبياتاً وكان شاعراً.

27- **قارب بن الأسود**: ابن مسعود بن معتب الثقفي. كان قائداً شجاعاً صاحب رأي. حمل راية الأحلاف يوم حنين، وقيل بل حمل راية ثقيف في الأحلاف فلما تبين الوهن فيهم قال لقومه: اعصبوا رأيتكم بشجرة، ليحسب من رآها إنكم لم تبرحوا وانجوا على قيلكم، ففعلوا فنجوا. أسلم في وفد ثقيف وقيل قبله.

28- **القاسم بن أمية ابن أبي الصلت الثقفي**: كان شاعراً. وأدرك مقتل عثمان بن عفان فرثاه.

29- **كنانة بن عبد ياليل**: من رؤساء ثقيف يروى إنه الوحيد الذي أبى أن يسلم

منهم، ولما أسلمت ثقيف خرج إلى نجران، ثم توجه إلى بلاد الروم فمات بها على دين الجاهلية بعد السنة العاشرة من الهجرة.

30- مالك بن عمرو: من خطباء ثقيف وشعرائها. وجهه أبو بكر بعد الردة رسولاً إلى مسيلمة باليمامة، فخطب عنده خطبة بليغة دعاه فيها للرجوع إلى الحق فغضب منه وهمّ بقتله، فنجا.

31- شرحبيل بن غيلان الثقفي. أحد من أوفدتهم ثقيف بإسلامها إلى رسول الله وكان وجيهاً في قومه، من ذوي الرأي والعقل، مات سنة 60هـ.

32- عروة بن مسعود: الثقفي، الصحابي المشهور. قدم على النبي (ص) بعد انصرافه من الطائف فأسلم وسأل النبيّ أن يأذن له بالإياب إلى قومه يدعوهم للإسلام، فأذن له بعد أن أنذره بشر يصيبه منهم. وكان عروة وجيهاً في ثقيف ذا منزلة وشأن، فلما عاد إلى الطائف صعد إلى علية له، ودعا قومه إلى ما جاء به فرموه بالنبل فقتلوه. قيل له وهو يلقى الموت: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني بها الله وشهادة ساقها إليّ، ليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا بين يدي رسول الله فادفنوني معهم. فلما مات دفنوه بين شهداء الطائف السابق ذكرهم وعدّ منهم، وكان قتله سنة تسع من الهجرة.

54- الحكم بن مسعود: بن عمرو الثقفي. أخو أبي عبيد. شهد وقعة الجسر مع أخيه سنة 13هـ واستشهد بها.

34- عبد الله بن مسعود: أخو الحكم وأبي عبيد. استشهد معهما في وقعة الجسر.

35- أبو عبيد بن مسعود: بن عمرو الثقفي. والد المختار الثقفي. كان قائداً من كبار الغزاة. آخر ما عرف عنه قيادته الجيش في وقعة الجسر سنة 13هـ واستشهد فيها، واتخذ يومه تاريخاً، يقال: قتل فلان يوم جسر أبي عبيد.

36- المختار الثقفي: ابن أبي عبيد الثقفي. في ترجمته أعاجيب كان شجاعاً مقداماً وخطيباً حازماً وداهية صليب العود. له مثالب ومناقب. ولد عام الهجرة ورحل من الطائف مع أبيه في أوائل أيام عمر حين ندب الناس إلى العراق، فاستشهد أبوه وأخوان له يوم الجسر وأقام المختار في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم، ثم كان مع

علي بالعراق، وسكن البصرة بعد علي. ونفاه بنو أمية إلى الطائف بلدته فمكث إلى أن قام عبد الله بن الزبير في طلب الخلافة، فجاءه إلى مكة فسيره إلى الكوفة، وحدثت بينه وبين مصعب بن الزبير أمور اتسع خرقها، فانفرد المختار بجيشه وقاتل مصعباً حتى تغلب مصعب فقتله سنة 67هـ في الكوفة. وكان يجهر بالمطالبة بدم الحسين. وادعى النبوة، وقتل المختار كل من اشترك بقتل الحسين.

37- **أبو محجن الثقفي:** الشاعر الفارس المشهور. شهد حرب القادسية وخبره فيها معروف وسكن أذربيجان حتى مات.

من نساء ثقيف

1- **بادية بنت غيلان:** تقدمت ترجمة أبيها غيلان الثقفي. من النساء المعروفات في التاريخ والحديث. أسلمت حين أسلم أبوها ورأت النبي (ص)، وروت أحاديث عنه وعن عائشة.

2- **رفيقة الثقفية:** أسلمت حين خرج النبي (ص) من مكة إلى الطائف في المرة الأولى، وكتمت إسلامها حتى ماتت قبل فتح الطائف.

3- **زينب:** بنت أبي معاوية بن عتاب الثقفية، امرأة عبد الله بن مسعود الثقفي. روت بضعة أحاديث، وروى عنها غير واحد.

4- **الفارعة بنت أبي الصلت:** أخت أمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور. قدمت على النبي (ص) بعد فتح الطائف وكانت ذات لب وعفاف وجمال. وكان يعجبه أدبها ويستنشدها شعر أخيها فتنشده.

5- **مسمونة بنت كردم:** امرأة من ثقيف لها سمعة. رأت النبي (ص) وسمعت منه وروت الحديث.



داخل السور

سور الطائف، أبوابه، حاراته، منازله، سكانه،ثامته، ثكنته، أميره، مدارسه، أدباؤه

إذا أطلق لفظ الطائف أريد به البلدة وما حولها من قرى وجبال وأودية حتى

منتهى الحدود من كل جانب. ولذلك اخترت العنوان (داخل السور) دفعاً للالتباس وحصراً للكلام في المدينة نفسها.

أحيط الطائف بسور يضم داخل البلدة من جميع أطرافها وليس هذا بالحائط الذي يقال إن الطائف سمي لإطافته به منذ عرفت هذه الديار في العصور الغابرة، بل إن ذلك قد اندرس وأقيم هذا بعد عام الألف حول أكبر قرية في ديار الطائف. وما برح الأمراء والأشراف وغيرهم يتعهدونه بالإصلاح والترميم والبناء، حتى بقي إلى الآن حافظا مكانه.

ولسور الطائف ثلاثة أبواب تغلق كل يوم بعد الغروب، ويجوز أن تفتح إلى الساعة الثالثة من الليل (نحو التاسعة زوالية) لفريق مخصوص من الناس، أو لمن كان معروفاً لدى الشرطة حفظة الأبواب، وأما بعد الثالثة فقلّ أن تفتح لأحد. والأبواب الثلاثة هي:

1- باب الحزم: وهو الشرقي الموصل إلى شبرة.

2- باب الريع: وهو الغربي الموصل إلى السلامة والمثناة.

3- باب ابن عباس: وهو بجانب مسجد ابن عباس يقع على الجهة الجنوبية إلى الغرب من الطائف.

وهذه الأبواب (أو البيان كما يقولون) يرجع عهدها إلى زمن بناء السور على الغالب. وقد جددت عمارته قبل قدوم محمد علي باشا المصري إلى الحجاز (وكان قدومه سنة 1228هـ). وبقيت الأبواب تعرف بأسمائها إلى اليوم.

والطائف ثلاث حارات (ج: حارة —وهم يجمعونها على حواير)

الأولى: حارة فوق: وهي وراء باب الريع للداخل على البلدة.

والثانية: حارة أسفل: وهي مسكن الأمراء والأشراف وتقع خلف باب الحزم.

والثالثة: حارة السليمانية: وهي على مقربة من باب ابن عباس يراها الداخل من هذا الباب على يمينه.

وأوسع هذه الحارات وأكثرها سكاناً حارة أسفل، ثم حارة فوق ثم السليمانية. وقد تخرب، في أيام الثورة الأخيرة على الترك، كثير من بيوت حارة أسفل.

وكانت منازل الطائف قبل الحرب تناهز ألفاً وخمس مائة منزل. وفي أوائل الحرب اشتدت أزمة العيش فيه فبرحه بعض سكانه، ثم كانت الثورة فتهدم جانب عظيم من القصور والأبنية وتداعى جانب غير يسير ما زال إلى اليوم يراه الناظر شاخصاً في الفضاء. وقد جرد من الأثاث والبلور وتباعد عنه الناس مخافة سقوطه، فلا أصحاب هذه المنازل يعنون بها فيعمروها، ولا هي تسقط فيستفاد من أرضها. وقد أخبرني رئيس بلدية الطائف أن الدور العامرة الآن المسكونة قد لا تزيد على ألف دار.

وأما سكان بلدة الطائف عدا القرى المحيطة بها والقبائل الضاربة قريباً منها أو بعيداً عنها، فهي الآن لا تقل عن خمسة آلاف، وربما كان عدد الراحلين عنها قبل الثورة يقارب عدد الباقين اليوم.

وقد زرنا قلعتها وهي غير قديمة، بنيت منذ نيف ومائة عام، طول المعمور منها نحو خمسين متراً وعرضه نحو 25 متراً. وكانت ذات طبقتين (دورين) فلما نشبت الحرب بين العرب والترك اضطر الأتراك لرفع مدافعهم إلى أعلاها، وأقاموا وراء كل جدار منها جداراً ملاصقاً له يقيهم قنابل مقاتليهم من الجبال المحيطة بالطائف، بحيث تكون الجران بضخامتها كالحصون. وبعد أن أتموا بناء الجدران وأصعدوا المدافع، رأوا أن الثقل أشد على البناء الأسفل وخافوا انهياره، فعمدوا إلى السقف الأعلى فخربوه تخفيفاً، وأزالوا نحو مترين من ارتفاع جدران الطبقة الثانية، فأصبحت القلعة الآن ذات طبقة واحدة أي الطبقة السفلى. وأما الثانية فبقي نحو نصفها ولا سقف لها، وفيها رأينا الغرفة التي كانت سجن مدحت باشا زعيم أحرار الترك المشهور وهو مدفون في الطائف.

وزرنا الثكنة العسكرية أيضاً وهي واسعة جداً طولها نيف وثلاث مائة متر وعرضها نحو 250 متراً، وليس فيها أبنية مرتفعة اكتفاء بمبانيها السفلية، وهي مأوى الجند النظامي الآن.

وعرفنا في الطائف حاكمه الشريف شرف بن راجح بن فواز بن ناصر. وقد علمت من أحد العارفين أن حكومة مكة جعلت لهذه الأسرة الولاية على الطائف بالتوارث منذ زمن غير قريب، ثقة بها واعتماداً على إخلاصها.

وهنا يجدر بي أن أذكر كلمة عن اسم كانت تعرف به هذه البلدة ثم نسي، فقد اتفق أهلها اليوم ومن جاورهم من سكان القرى بل كل من عرف الطائف على اختصاص البلد بهذا الاسم. والصواب أن يقال إن الطائف هو اسم عامّ لجميع ما يدخل في حدوده من قرى ومزارع وأودية. وقد كانت هذه البلدة قرية أنشئت حديثاً بعد سنة ألف للهجرة على أثر خراب قرية السلامة القريبة منها. ثم اتسع بنيانها وكانت تدعى قرية (الهضبة) ولما كبرت تنوسي هذا الاسم وأطلق الناس عليها اسم الطائف كما يطلق اسم الشام على دمشق، والشام هي سورية كلها.

وقد جريت في هذا الكتاب على ما هو معروف في أيامنا حذراً من التشويش في البحث واكتفاء بالغاية التي أرمي إليها من التعريف بهذه البقعة الأثرية القديمة في تاريخها وشهرتها، وإنما أوردت هذه الكلمة هنا لاعتقادي أنها فائدة في تاريخ هذا البلد لا ينبغي إغفالها.

وفي هذه المدينة عدة مدارس أهلية صغيرة، ومدرسة رسمية سميت بالمدرية الخيرية الهاشمية، وهي ذات أربعة صفوف فيها نحو أربعين تلميذاً، وبناؤها حسن الموقع، كان منزلاً لأحد الأهلين فاشترته الحكومة التركية سنة 1325هـ، وأقامت فيه مدرسة من الدرجة الرشدية (ذات ستة صفوف في ست سنين) ثم قلبتها إلى ابتدائية، ثم جعلتها مدرسة إناث حتى كانت الثورة (عام 1334هـ) فجعلتها الحكومة العربية مدرسة تحضيرية للذكور ثم وسعتها سنة 1335هـ، فجعلتها ذات أربعة صفوف كما رأيناها، وفصلت التحضيرية عنها إلى مكان آخر في البلدة نفسها. وفي التحضيرية الآن نحو 65 تلميذاً. والحكومة تقدم للتلاميذ الكتب والدفاتر والأقلام والحبر مجاناً. وفي المدرسة الخيرية الهاشمية الآن أستاذان، أحدهما: الشيخ عبد الله قاضي من فضلاء الطائف ونابهه، يتولى تعليم التفسير والحديث والنحو والبلاغة والتاريخ والأدب العربي والتوحيد والإنشاء في الصف الرابع، وثانيهما الشيخ صبحي الحلبي يعلم الهندسة والجغرافية والحساب وقسم المعاملات من الفقه والقراءة العربية.

والشيخ صبحي يعد اليوم من أدباء الطائف، اطلعت على مجموعة شعره، فكان مما قرأته فيها قوله في مطلع قصيدة:

هذي الديار فقف بها يا حـادي وأعـطف لحـالي فرقتي وبعـادي

ومنها:

حـرّمت نومي بعد بعدكـم فـما والله زار العـين طـيب رقـاد

لي أنّـة مـذ غـبتم عـن نـاظري مصـحوبـة بـعـويـلي المتـمادي

وقوله من قصيدة:

رعى الله قوماً بلدة (الحبر) دارهم لهـم في ربى عليـائها المسكن العالي

وزرت دائرة البرق والبريد والتلفون في الطائف فرأيت في صدرها الأعلى هذا البيت (لكعب بن سعد من قصيدة):

ولسـت بمهـد للـرجال سريرتي! ولا أنـا عـن أسـرارهم بسؤول!

فأعجبني حسن اختيار هذا البيت لذلك المكان، ولاح لي أن في الدائرة أديباً ثم عرفت مديرها الشيخ عثمان بن عبد الرحيم قاضي، فإذا هو ذلك الأديب. ولم ألبث أن قرأت له قصيدة يرحب فيها بالأمير زيد عند عودته من إيطاليا إلى مكة المكرمة.

وممن عرفت في الطائف قاضيه الشيخ عبد الله ابن أبي بكر بن علي كمال، وهو أفقه من في هذه المدينة وأعلمهم بالأدب وفنونه. رغبت إليه أن يطلع على شيء من شعره، فتلا لي بضع قصائد، منها قصيدة نظمها وهو مع جلالة الملك في رحلته إلى اليمن، وقصيدة قالها في فتح المدينة المنورة، نشر الأولى في كتاب الرحلة اليمانية والثانية في جريدة القبلة. ومن شعره قوله من قصيدة:

تـرفـق أيـهـا الحـادي وعـج بي نحـوهم عج بي

كـرام قـد عهـدنـاهـم بـذاك السـفح والشـعب

أريـج المسـك ربـاهـم وريـح المنـدل الـرطب

إذا وافـيت أفـيـاءً بـذاك المنزل الـرحـب

وأوردت المطـايـا القـو د مـن سلسـالهـا العذب

فبـلغهـم سـلامـاً من محـب هـائـم صـبّ

وإن حيوك بالـلـطف وبـالتسـآل والـرحـب

فقـل عهـدي بـه مضني سـمير الأنـجـم الشهب

وأطلعني على مجموعة أدب مخطوطة عنده قرأت فيها الأبيات الآتية لمحمود سامي باشا البارودي المصري:

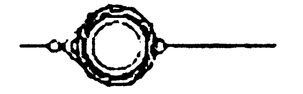
الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذام

يا طالما عز به معشر وربما أزرى بأقوام

فاجعله ما أنشدت في حكمة أو عظة أو حسب نام

واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى الرامي!

الطرق إلى مكة



بين الطائف ومكة عدة طرق لا يسلك منها اليوم غير طريق واحدة، وهي التي اجتزناها في رحلتنا. وقد تسلك طريق ثانية يسمونها اليمانية أو طريق السيل، وجميع الطرق القديمة ما زالت معروفة إلى اليوم ويمكن سلوكها، إلا أن أكثر الناس هجروها ما عدا هذين. وقد رأيت في عقود اللطائف إسهاباً في الكلام على المسالك بين المدينتين يفيد المطالع والباحث، أختصره في ما يلي:

1- كرا (وهو طريقنا): قال فيه: هو جبل في غاية الكبر والصعوبة صعوداً وهبوطاً، وإن كان الثاني أخف.

2- يعرج: وهو طريق جبلي أسهل من كرا وأقرب ما بعده من المسالك الآتي ذكرها. على إن فيه حرجة، بعد هبوط، عسرة يتعب فيها الراكب والماشي.

3- الثنية: طريق جبلي فيه عقبات أكثرها سهل بالنسبة لغيره، ولذلك يؤثره أكثر أهل الحجاز على غيره لما تجده جمالهم فيه من الراحة.

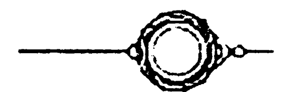
4- غرزة:

5- خروب: وهما دون الثنية

6- عفار: قل من يسلكه، يأتي على الوهط ثم ينزل على رأس وادي نعمان.

7- اليمانية: أسهل الطرق، على ما فيه من هبوط وصعود متكرر في جبل يقال له المنحوت، وتسلك هذه الطريق لأغلب الناس في ثلاث مراحل كبيرة: مرحلة من مكة إلى الزّيمة، ومرحلة منها إلى السيل، ومرحلة منه إلى الطائف، وكثيرون يجتازونها في مرحلتين.

وهذه الطريق قد تعرف اليوم باسم (طريق السيل) كما قدّمت.



عكاظ

وعلى ذكر طريق السيل أو اليمانية، لا أرى أن تفوتني الإشارة إلى أشهر سوق من أسواق العرب، أعني سوق عكاظ لوقوعها في تلك الطريق.

على مرحلتين من مكة للذاهب إلى الطائف في طريق السيل، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين فيسير نحو نصف الساعة، فإذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها (القانس)-بالكاف المعقودة- وهي موضع سوق عكاظ الذي لا تكاد تقرأ كتاباً من كتب الأدب أو التاريخ العربي إلا وجدت له ذكراً فيه.

وهذه الباحة التي يسمونها (القانس) هي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن وبينها وبين الطائف مرحلة واحدة. كل ذلك يدلك على ما دعا العرب في الجاهلية لاختيار هذه البقعة المتوسطة من دون غيرها لتكون مجمعهم الأكبر ومعرضهم الأشهر، ولم أجد فيما بين يدي من مصنفات التاريخ تعليلا لاتفاق القبائل على الاجتماع في هذا المكان غير ما عرفته الآن.

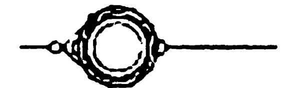
والواقف في القانس (أو عكاظ) يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدِمَة، والآخر البهيتة. وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل إلى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل (اليمانية).

أما ما جاء في كتب التاريخ عن عكاظ فلعل أفضله قول صاحب معجم البلدان ما خلاصته: عكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية تجتمع فيه القبائل كل سنة

يتفاخرون، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، ثم يتفرقون. وقال الأصمعي: عكاظ، نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال؟ كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثيداء وبه كانت أيام الفجار، وكان هناك صخور يحجون إليها ويطوفون بها. وقال ياقوت: أشهر أسواق العرب عكاظ وذو المجاز ومجنة. وقال الواقدي: عكاظ بين نخلة والطائف، وذو المجاز خلف عرفة، ومجنة بمر الظهران، وأعظمها عكاظ، كانت العرب تقيم فيه شهر شوال، ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج. اهـ.

وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون إن عكاظا كان في مكان يعرف اليوم باسم (القهاوي) في وادي ليلة من الطائف. غير أن الشيوع يؤيد ما قلناه آنفا من أنه هو (القانس) نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار.

خلاصة موجزة



استقدم الملك حسين في خريف عام 1338هـ- 1919م بعثة من المشتغلين بعلم الزراعة واستخراج المعادن من سورية، فطافوا بعض بقاع الحجاز ولا سيما الطائف، ورفعوا إليه في 15 ربيع الأول 1338 بياناً بما رأوه، هذه خرصته:

وادي منى: يمتد إلى منى واد عرضه 100متر تتخللها أراض زراعية مساحتها 5-7 دونمات، أكثرها على سفوح الجبال من الجهتين الشمالية والجنوبية تسقى بماء الآبار.

عين زبيدة:على بعد كيلو متر واحد من منى نحو الجنوب الشرقي تبدو عين زبيدة. ماء هذه العين وسرعة جريانها 63 ليترة في الثانية، وقوتها في الساعة 226800 ليتر أي 226 متراً مكعباً وكسر، وفي أربع وعشرين ساعة 5443200 ليتر أي 5663 متراً مكعباً وكسر.

عرفة: أراضي عرفة واسعة وفيها عدة أحواض كبيرة منها ما درست آثاره بمرور الأيام، والباقي منها قرب جبل عرفات المرتفع عن سطح البحر 750 قدماً، وهو محاط بشكل نصف دائرة بمجرى عين زبيدة.

الكرّ: آخر نقطة من منطقة تهامة، ترتفع عن سطح البحر 2580 قدماً، يكثر فيها من

النباتات الشجرية السلم والحرمل والضرم. ومنطقة تهامة تكاد تكون على نسق واحد في تكوّن أرضها وإقليمها وتربتها الزراعية. ويظهر أن ما بين مكة وسفح كرا مؤلف من جبال بركانية مختلفة الارتفاع تتخللها مجاري السيول وأكثبة رملية.

منطقة الطائف: تختلف عن تهامة ببرودتها التي ساعدت على نمو أشجار فيها لا تنبت في غير المناطق المعتدلة كالقريس والعرعر والتين البري والزيتون البري والجميز وغير ذلك من أشجار الفصيلة الوردية والحشائش من الفصيلة المركبة والشفوية والباذنجانية، والجوز والخرنوب وشجر الكينا (كاليبتوس) وحلاب البوم (ايفوربيا) وهو من الحشائش.

تكونها الأرضي: تعد هذه المنطقة من الأراضي البركانية، تحتوي على صخور اندفاعية صلبة، ويتخلل سلاسل جبالها مجاري سيول عديدة، وأوديتها خصبة.

تربتها الزراعية: تربتها على الإجمال رملية طينية ويزيد الرمل على الطين في أكثرها. وهي تحتوي على مقدار وافر من الكلس.

زراعتها المحلية: انحصرت الزراعة المحلية بزراعة الحبوب وأخصها الحنطة والشعير والدخن، وبزراعة الأثمار وأخصها الرمان والسفرجل والتفاح والكمثرى والعنب والليمون والخوخ وقليل من العناب، وتكثر فيها الخضر وأخصها الملفوف والكرنب والسبانخ والبندورة والباذنجان والملوخية والكوسة والبامية والفاصولية والبصل والثوم والشمام (الخربز) والبطيخ الأحمر (الحبحب) والفول والفجل والفليفلة. وفي المراعي يزرعون البرسوم دون سواه.

مواسم زراعتها: تجود منطقة الطائف بثلاثة مواسم: (1) المزروعات الربيعية أي التي يزرعونها في أوائل الشتاء ويحصدونها في أواخر موسم الربيع. (2) المزروعات الشتوية أي التي يزرعونها في أواسط الصيف ويحصدونها في أوائل الشتاء. (3) المزروعات المتوسطة ما بين الأولى والثانية.

طريقة زرعهم: طريقة الزرع عندهم أن يحرث المزارع أرضه ثلاثة أوجه ثم يبذر بذاره ولا يصفيه. ويرغب أكثرهم بزرع الحبوب الضعيفة الصغيرة زاعمين إنها تبذر أرضا أوسع مجالا مع أن في أكثر هذه الحبوب بذوراً عديدة من النباتات المضرة

كالشوفان البري، وجل الحبوب الصغيرة مصاب بالأمراض الطفلية أخصها مرض الصداء المعروف بالسقم. وأما المحاريث فإنها لا تزال على شكلها القديم. وأما زراعة الخضر فهي عندهم أرقى الزراعات فهم يستعملون السماد من أجلها ويزرعونها على طريقة صالحة نوعاً ما، ويتناولون أثماناً حسنة من تجارتها.

الحيوانات الأهلية: يعني أهل هذه المنطقة بالإبل والبقر والخيل والبغال والغنم والماعز ويستخدمون في الزراعة البقر وأحياناً الجمال، ولا يستعملون البغال والخيل في الأشغال الزراعية إلا نادراً.

مياه المثناة"113": تبلغ مياه المثناة 44 ليترة في الثانية، وفي الساعة 158400ليترة، وفي الأربع والعشرين ساعة 3801600 ليترة. وهي تسقي قسما كبيراً من وادي المثناة ثم تدخل الطائف.

ما يمكن زرعه: يمكن في منطقة الطائف زرع أكثر الأشياء النافعة كاللوز والشوندر والبطاطا والدخان (التبغ) والقنب والسمسم وأكثر البقول. وأفضل طريقة لإنجاح زراعة المنطقة هي طريقة الزراعة اليابسة.

وادي جفيجف: هو على الشمال الشرقي من الطائف، تترشح المياه فيه من كل جانب وتجري على سطحه متجهة نحو الشمال.

الأرزّ: يمكن تخصيص بقعة في وادي جفيجف لزرع الأرز لأنه يحب التربة المالحة، وهذه الخاصة من خواص وادي جفيجف الذي ينمو فيه الأرز نمواً حسناً، وإن كان من طبيعته إفساد الهواء المحلي لكثرة المياه التي تكون دائمة فوق الزرع، ولكن ما سيغرس من الأشجار حوله يصحح ما يفسده.

القطن: ويمكن أيضاً إدخال زراعة القطن والبرسيم والفصة في الأراضي التي تزرع أرزاً وذلك لأن القطن من النباتات التي تنبت في الأرض ذات السباخ ومن النباتات التي تحتاج إلى المياه في أدوار حياتها.

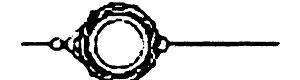
الورد: حياة الورد في الهدة وما ماثل تربتها، تشبه حياته في بلاد اسبارطه بوردو المخصصتين لزراعة الورد والاستفادة من عطره، لأن التربة والهواء هنا لا يختلفان عن ذينك الإقليمين.

معادن الطائف: الأراضي التي في منطقة الطائف (ويلحق بها ما بين الطائف وجدة) هي من أقدم طبقات الأراضي الجيولوجية. جميعها من الصخور الاندفاعية الصلبة. وهي لا تمتص المياه، ولذلك يقل وجود الماء في الجبال إذ تسري عنها وترسب في الأودية. وهذه الصخور مركبة من (غنايس) وهو رمادي اللون في ذرات سوداء، ويتركب من (ميفا) و(كوارنيس) و(قلدسبارت) ثم تليه طبقة صخور (الغرانيت)، وهو على الغالب أحمر اللون فيه بعض حبيبات رمادية لماعة وتركيبه كتركيب (الغنايس)، وتليه طبقة صخور (البازلت) وهو صخر بركاني كحلي أو أسود اللون مثقب كالإسفنج. وقد تتغير هيأة الصخور في منطقة الطائف ويكثر فيها صخر (الميكاشيت)، وهو صخر أسود اللون مصفح ذو طبقات بعضها فوق بعض، و(الكوارس) وهو صخر أبيض لماع وقد يوجد بصفة متبلورة، ويتركب منه (السيليس الصلفي). ويعلو هذه الطبقة القديمة طبقة مركبة من (كلسيت)، اجتمعت في الأودية ومجاري السيول. وعلى مرور الزمان تألفت الطبقة العليا التي هي من تفتت الصخور الممتدة فوق الأرض.

تحليل المعادن: ومن خصائص هذه الطبقات القديمة أنها تحتوي على معادن من الجنس الجيد ومن جملتها معدنان، أحدهما رمل مركب من حديد (مؤكسد) ممزوج به قليل من النحاس، ويبلغ مقدار الحديد نحو 60 في المائة، ولابد من تحسن المعدن في العمق، والثاني حديد (مؤكسد) أيضاً إنما هو صاف من الجنس الجيد يصلح للاستخراج ويحتوي على نحو 70 في المائة حديداً صرفا. وفي منطقة الطائف وخصوصاً ما بين عين الخضرة والطائف مقادير وافرة من المرمر الأحمر الجميل الذي من فوائده إنه يتخذ أعمدة للأبنية الجميلة وتوضع منه أشكال عديدة للزخرفة.

وعلى بعد أربع ساعات من الطائف محلة تدعى (المعدن) فيها جبل مرتفع 540 قدماً به حفريات قديمة تنبئ باستخراج معدن منه. وفيه آثار معدنية تحتوي على شيء من الحديد وقليل من النحاس، وإذا حفر هذا الموضع فلا بد من وجود أشكال معدنية غير الشكل الظاهر على السطح. ومما يبرهن على استخراج هذا المعدن قديماً آثار بيوت مبنية في قمة الجبل وبوادق من حجر، يحرق فيها المعدن بنار الحطب أو الفحم

ويستخرج منها الحديد. وإذا أردت متابعة استخراجه الآن لم يكلف له الحفر على وجه الأرض بل ينبغي حفر آبار، تتفرع منها سراديب تحت الأرض. وفي جبل (الوهط) جنس صخر يدعى (ميضا) أبيض اللون تتجزأ منه صحف رقيقة كالورق، شفافة كالزجاج. وهو غير قابل للذوبان في النار مهما بلغت حرارتها، ومن فوائده فإنه يستعمل للآلات الكهربائية والمواقد الحديدية المتخذة للدفء وفيه من الحجر الكلس المتبلور الصافي الصالح لاستخراج الكلس النظيف الصافي اللون. انتهى.



ما حول الطائف

قراه وجباله وأوديته وآباره وبساتينه وحصونه وعيونه مرتبة على الحروف

لا بد لي قبل الشروع في الكلام على ما حول بلدة الطائف من الإشارة إلى أربعة أمور:

الأول: إن أهل هذه البقاع يطلقون اسم القرية على كل موضع منفرد، فيه بيوت قلت أو كثرت، من الاثنين أو الثلاثة إلى الخمسين أو ما فوقها. وقد وافقتهم في الاصطلاح على طريقتهم هذه. كما أنهم يطلقون لفظ البلاد على كل موضع فيه مزارع وليس فيه بيوت، يقولون: كنا في بلاد فلان أي في مزارعه، خالفتهم في هذا ووضعت المزارع بدل البلاد.

الثاني: أن جبال الطائف كثيرة جداً، قيدت في رحلتي منها ما له تعلق بقرية أو ارتباط ببحث، أو ذكر في شعر، أو بيان في تاريخ، أو فيه أثر يذكر وأهملت ما لا فائدة للقارئ من الإشارة إليه.

الثالث: في تواريخ المتأخرين ذكر لكثير من القرى والعيون والآبار والمواضع التي لم أوفق لمعرفتها في أيامي القليلة بالطائف، فرأيت إتماما للفائدة أن أذكر ما نقل لي إنه لم يزل موجوداً، وأعرضت عن ذكر أكثر ما لم أره مما لم ينقل لي خبر بقائه إلى الآن مرجحا اندراسه أو تغير اسمه.

الرابع: من أودية الطائف الكبيرة الكثيرة القرى والمزارع (وادي لية)، لم يتفق لي

طوافه فاعتمدت في ما ذكرته على أخبار الموثوق بهم، وما اطلعت عليه من كتب التاريخ الحديثة وبعض القديمة. وإليك جملة ما يحصل عندي:

الآبار: قرية، قال العجيمي: هي خلف قرية السلامة من الجهة الشمالية، وسميت بذلك لكثرة ما حفر من الآبار بها في زمن القائدة درة جارية الشريف حسن بن أبي نمي. وهذه القرية غير معروفة الآن بهذا الاسم بل يسمونها (قروة) وسيأتي ذكر هذه.

ابن منديل: هضبة كبيرة على جنوب الطائف وراء قلعة ثكنته لا تبعد عنها كثيراً، وربما قالوا (جبل ابن منديل).

أبو نقطة: جبل في وادي لقيم بينه وبين جبل السويقة درب يقال له شعاب الماء.

أبو زبيدة: أو جبل أبي زبيدة. في طريق الذاهب من الطائف إلى وج يقابل الأصيحرين.

الأصيحران: أو جبل الأصيحرين: مقابل لشرقي قبة ابن عباس وهو المعروف الآن باسم البازمين.

الأصيفر: قرية كبيرة فيها بساتين ودور قليلة في وادي جفن- ذكرها الفاكهي- وهي لا تزال موجودة.

أم الادم: هضبة ماثلة أمام (أم السكارى) إلى جهة الغرب منها. وهي في غرب الطائف.

أم البكار: مزارع (بلاد) لقبيلة الأعصمة، فيها بئر. تتغل حبوباً ولا فاكهة فيها وهي بين الخادمية والخضراء.

أم الحمض: قرية وراء حدود لقيم في اصطلاحهم، تلي قرية الصفاة، فيها مزارع حبوب وثلاث آبار ويكثر بها شجر الطرفاء (يسمونه الأثل والعرين).

أم خبز: مزارع بعد شبرة فيها بساتين قليلة.

أم السكارى: هضبة كالجبل على الجانب الغربي من المثناة تبعد عن الطائف مسيرة نصف ساعة أو أقل وقد سبق ذكرها في الكلام على الآثار.

أم الشيع: هضاب متصلة في شمال الطائف كانت عليها وقائع بين العرب والترك في زمن النهضة.

أم صدعين: قرية في لقيم قبل المريسية بيسير تكاد تلاصقها، فيها بضعة بيوت ومزرعتان وبئران.

أم الفضلين: مزارع ذات نخيل وفيها بستان وبئر ماء، في وادي لقيم تبعد عن الطائف مسيرة ساعة وهي للشريف شرف.

أم المعين: هضبة تلي أم الأدم وكلاهما خلف قرية (قروة) من الجنوب.

أم هيثم: مزارع في وادي لقيم، بعد قرية الغنامين وقبل مزارع الوسطى، وهي من أراضي عشيرة اليخاتين.

البازمان: جبل، وأكثر ما يقال جبل البازمين. وهو المعروف قديماً باسم الاصيحرين. وقد تقدم ذكره فيه.

بحرة الرّغا: موضع في لية. قالوا: هو من ديار بني نصر. ولعله المحل المعروف الآن باسم البحرة في وادي لية. قال الحضراوي: وبحرة الرغاء من لية مسجد يقال له موضع صلى فيه النبي (ص) ما زال أثره شاخصاً.

قرية البخاتين: البخاتين قبيلة، وقريتهم كبيرة، تعرف بهم، تبلغ بيوتها العشرين وفيها بستان عنب وبستان رمان وأراض تزرع حبوباً وثلاث آبار، وهي من لقيم بعد مزارع البسيلية وقبل الغنامين.

برد: جبل في بلاد قريش يبعد عن الطائف ستة فراسخ يقال إن جميع عيون المياه التي في الطائف منشأها منه. كذا رأيت في تعليق لأحد المعاصرين على كتاب العجيمي. ولم أر هذا الجبل.

البسيلية: مزارع حبوب (وهم يجمعونها حبان) فيها بئران، أحدهما للإشراف من ذوي زيد، والثانية لأفراد من قبيلة الأعصمة وهي في وادي لقيم بعد الخضراء وقبل قرية البخاتين.

الجال: قرية ناضرة على بعد نصف ساعة من الطائف إلى الشرق، فيها بركة ماء

كبيرة على مرتفع جميل، يمر بها جدول صغير يسقي أرضها يأتيها من قرية حوايا المجاورة لجبل شهبار. ويقابل الجال إلى شمالها قريتا قملة والقطبية. وخلف الجال إلى الجنوب جبل وراءه وادي النمل. وفي الجال بساتين وبضعة بيوت، وفيها فواكه كثيرة.

جبرة: مزارع في وادي الجفيجف، شرقي الطائف، فيها بئر يخرج ماؤها من عمق مترين ونصف، وفيها بساتين.

جديدة: بئر لأفراد من قبيلة طويرق، يقال لهم التراكية وهي البئر الثانية في قرية أم صدعين.

الجزع: قرية صغيرة في وادي لية -ذكرها الفاكهي-.

الجفيجف: وادٍ في شرق الطائف على مسيرة أقل من نصف ساعة. بعد قرية الريان وقملة، فيه آبار، وعين ماء تسمى الخرار وفيه مزارع جبرة. وهو مستطيل بين جبلين يتقاربان ويتباعدان، كثير الريّ رطب الأرض، وقد يسمون أقصاه وادي الخرار باسم عين الماء التي هي فيه.

دلذان: قال ياقوت: (موضع قرب الطائف بين لية وسبل يسكنه بنو نصر ابن معاوية). لم أسمع به.

الحزمان: قرية فيها بساتين وآبار، في وادي لقيم قبل المليساء وبعد أم خبز.

الحسيرج: واد صغير، بين قرية الحماضية ولقيم، وهو على سفح جبل شرقي الطائف.

الحصنان: أو قرية الحصنين، من قرى وادي لية، ذكرها الفاكهي.

الحماضية: مزارع للشريف شرف بعد المليساء تبعد عن الطائف شرقاً أقل من ساعة، فيها دار وبئر وقد وضع للبئر محرك بخاري لإخراج الماء بواسطته، تمّ وضعه ونحن في الطائف. وبجوار الحماضية إلى يمين الذاهب من الطائف قرية الحمدة.

الحُمَدة: قرية قبل لقيم، هي المليساء، وقد تسمى الحمدة باسم القبيلة الساكنة فيها (انظر المليساء).

حوايا: قرية غربي الطائف غير بعيدة عنه كثيراً، فيها بيوت وبستان كبير وأربع آبار، وكان بها أيام الفاكهي سبع آبار.

بئر حوايا: إحدى آبار قرية حوايا، جنوبي البستان، ماؤها عذب، أخف ماء بالطائف.

الخادمية: مزارع في وادي لقيم قبل أم البكار فيها بستان عنب ورمان وتين وأراض تزرع حبوباً.

الخبزة: قرية في المثناة غربي الطائف إلى الجنوب فيها بضعة بيوت وبستان، وبها مسجد عداس السابق ذكره. وهي قديمة ضبطها القاموس بأنها كعنبة.

عين حبرة: قيل لنا إن هذه العين تسقي المثناة كلها، وهي جارية في قناة متسربة مما يجتمع من رشح الجبال المجاورة للمثناة غرباً وجنوباً.

الخرّار: أشرنا إليه في الجفيجفة، وهو واد بعده، يفصل بينهما جبل في أقصى اتلجفيجف يعطف فيه السالك إلى يساره، وهو واد خصيب كثير العيون والينابيع، أرضه ملئا بالماء الراكد من سيول جباله، حفرنا بأيدينا نحو شبر واحد في عدة مواضع منه، فكنا لا نلبث أن نرى الماء يكاد يملأ الحفرة، كثير المستنقعات يجتمع من ينابيعه جدول صغير من الماء يتسرب بين الصخور، فيسمع له خرير ولذلك سمي الخرار. وهذا الوادي يمتد إلى العرج. والخرار يبعد عن الطائف مسيرة ساعة. وقد أكد لنا أحد العارفين أن ماءه لا ينقطع طول السنة وأنه في الشتاء إذا جاءهم الغيث يجري كالنهر الكبير. وقد يملأ ما بين جبليه المتقاربين.

الخضاري: مزارع في أوائل وادي لقيم، للشريف هاشم بن عون قبل قرية العبابيد.

الخضرا: بالقصر تميزا لها عن الخضراء الآتي ذكرها، وهي مزارع للشريف علي بن زيد بن فواز، فيها بئر عليها محرك (مصعد للماء) بقوة خمسة حصن، وهي في وادي لقيم على مقربة من قرية المريسية وقد يلحقونها بالمريسية.

الخضراء: قرية فيها ستة بيوت ومزارع كثيرة تسقى من ثلاث آبار فيها، وهي للشريف علي باشا ابن عبد الله باشا.

الخضيرة: بئر في قرية الفقهاء.

الخليطي: قرية بالقرب من الشدايين في أوائل وادي لقيم عندها مزارع أم الفضلين.

الدار البيضاء: قرية في وادي القرن، ذكرها الفاكهي، وقيل لي إنها ما زالت موجودة، ولم أرها.

دحلة: مزارع محاذية للنصيلة في وادي الجفيجف تكاد تكون يباباً.

رحاب: قرية على مسيرة أربع ساعات من الطائف إلى الجنوب، عامرة، فيها بيوت ومزارع يملكها الشريفان هاشم بن عون وناصر بن هزاع من ذوي ناصر.

الردّف: جبل(وقد يسمونه الرادف) يبعد ساعة عن الطائف إلى الغرب الجنوبي وقد تكلمنا عنه في بحث الآثار.

رغاف: جبل وراء أم الحمض وبعد لقيم يبعد عن الطائف مسيرة ساعتين إلى الشرق، كأنه الحد الطبيعي لوادي لقيم، ولكنهم لا يعدونه ولا يعدون أم الحمض من لقيم. وما أدري لهذا سبباً.

رغيف: بصيغة التصغير: جبل صغير كالهضبة، ملاصق لرغاف.

أم رغيف: على صيغة التصغير: مزارع حبوب على سطح جبل رغيف، وفيها بستان جيد العنب والرمان والخضر، ولها ثلاث آبار وأرضها تزرع حبوباً. وبعضهم يلحق أم رغيف بأم الحمض.

الريان: قرية خضراء كأنها الحديقة الغناء، بعد شبرة إلى شرق الطائف في طريقنا إلى وادي الجفيجف منحرفة إلى اليمين كثيرة الأشجار، فيها رمان وعنب وفواكه متعددة الأنواع، كان فيها أربعة بيوت فخرب ثلاثة وبقي واحد عامراً. وذكرها الفاكهي فقال إنها قرية قملة نفسها، تدعى بالاسمين. والصحيح أنهما قريتان متجاورتان.

ربع التمار: هضبة صغيرة بين المليساء (الحمدة) ووادي الحسيرج، على مقربة من الحماضية.

الزبيرية: بئر ينسبونها إلى الزبير بن العوام في قرية العقيق.

الزوران: قرية صغيرة في لية، سماها الفاكهي (الوزير) ما زالت عامرة.

السايب: من قرى لية. قال الفاكهي: تعرف بدار ابن معيوق آخرها عوف القبلية، وبقربها حصن كبير جاهلي يعرف بحصن ليلى.

السداد: قرية فيها هضبة الردف. تكلمنا عنها في الآثار.

السلامة: قرية محاذية للطائف من جهة باب ابن عباس، كثيرة البيوت بعضها عامر، وبعض خرب، سكانها قليلون من قريش وغيرها، ذكرها ياقوت فقال: قرية من قرى الطائف بها مسجد للنبي (ص) وفي جانبه قبة فيها قبر ابن عباس وجماعة من أولاده ومشهد للصحابة (رضي الله عنهم). اهـ كلامه. وهي الآن في ظاهر البلدة يفصل السور بينها وبين قبة ابن عباس. وما زال المسجد فيها. وقال العجيمي: لا أعلم بدء عمارتها إلا أنها كانت معمورة في أوائل القرن التاسع، وبها كان ينزل أعيان مكة وفضلاؤها ثم خربت في حدود الثمانين (كذا)، وتحول أهلها عنها ولم يبق منهم غير القليل وانهدمت بيوتها في مدة يسيرة. اهـ. وقد مر بنا ما نقلناه عن كتاب أشراف مكة وأمرائها من أن الشريف سروراً نزل بها سنة 1193هـ وهذا دليل على أنها كانت عامرة إلى عهده.

سلسلة: ذكرها الفاكهي ولم أجد من يعرفها- قال: قرية كبيرة بينها وبين قرية الوزير (الزوران) بحرة الرغا، وعندها آثار حصن جاهلي هدم في صدر الإسلام ثم قال: ومن لطيف ما يذكر أن رجلا من أهل هذه القرية قيل له: ما اسمك؟ فقال: كليب. فقيل: وما سكنك؟ قال: سلسلة قبالة الوزير. فقيل له لا قدرة لنا على كليب في سلسلة قبالة الوزير!

سويد: من قرى وادي لية، كبيرة فيها بساتين.

السويقة: جبل صغير على جنوب قرية الخضراء، بينه وبين جبل (أبو نقطة) درب يقال له شعاب الماء.

شبرة: على يمين الذاهب من الطائف إلى الشرق، مزارع خضر تسقيها جداول صغيرة من الماء، تمتد مسيرة ربع ساعة وتنتهي بقصر هو أفخم بناء في

الطائف، وربما كان أعظم قصر في الديار الحجازية بحسن بنائه وجودة مناخه وسعة مساحته وتنظيم غرفه، وهو منقسم إلى قسمين أحدهما منحرف عن الآخر، وقد يبلغ عدد ما فيهما من الغرف والأبهاء مائة وخمسين أو يزيد. تحوط جهاته الداخلية حديقة غناء هي أجمل حدائق الطائف وغيره من بلاد الحجاز على الإطلاق بانتظام أشجارها وأزهارها وحسن هندستها وجمال بركها. وإنما سميت هذه المزارع وفيها القصر والحديقة باسم (شبرة) تشبيهاً لها بشبرة مصر. وعلى جانبي الطريق الموصلة إليها من الطائف أشجار كبيرة من الطرفاء (العرين أو الأثل كما يسمونه) وقد زال بعض هذا الأشجار قبيل النهضة وفي أوائلها. وقصر شبرة هو منزل الأمراء في الطائف وأكثر ما ينزلون في الجانب الأيسر منه كما فعل الأمير علي ولي عهد الحجاز، ونحن في الطائف، فإنه اختار هذا الجانب على الثاني مع أن ذلك أعظم وأضخم.

عين شبرة: رأيت في هامش على تاريخ العجيمي لأحد أفاضل الطائف المعاصرين أن من أشهر عيون الطائف. عين شبرة يروى منها أهل الطائف.

الشدايين: مزرعة الشدايين هي أول وادي لقيم من جهة الطائف، بين المليساء والخليطي وفيها أراض تزرع حبوباً.

شرقرق: أحد جبلين متحاذيين قبالة قصر شبرة. والجبل الثاني يدعى عكابه، ولما اضطرمت نار الحرب بين العرب والترك أيام النهضة، تحصن الأتراك في عكابه وأخذ العرب يرمونهم من شرقرق ومن شبرة حتى أزالوهم عن مواقعهم، وفي ذلك يقول أحد شعراء البادية. ويسمون هذا النوع من الشعر (المجرور):

عكابه رموكم. من شرقرق وشبره. ببندق ميازر

ولا الله فتك فيك. تظلين عبره. لكل النواظر!

والبندق في اصطلاحهم رصاص البندقيات، ولعله أصح اسم يمكن إطلاقه على الخرطوش. والميازر في بيتي هذا الشاعر جمع موزر كأنه أرجعها إلى أصل عربي، فجمعها كما يجمع مسجد على مساجد، ولكن كان عليه أن يقول (مولزر) كموقد ومواقد. وقد عقدت فصلا ضافي الذيل للشعر في البادية تجده في أواخر هذا

الكتاب. وأما قوله (ولا الله) فهو في اصطلاحهم (وإذا الله).

شعاب الماء: طريق كالوادي تحت جبل (أبو نقطة) وهذه الطريق تتصل بالهدة فمكة، وهي غير الدرب الذي بين جبلي (أبو نقطة) و(السويقة) السابق ذكره في الكلام على السويقة.

شهار: قرية معروفة في الطائف، قيل إن النبي (ص) لما هاجم الطائف بعد فراغه من غزوة حنين، جاء عن طريق (لية) حتى قرب من حصن الطائف فوقف هناك وأمر بشهر الأسلحة، فسمي ذلك الموضع شهارا بشهر الأسلحة فيه.

الشهداء: هضبة معروفة في شرق الطائف.

الصخرة: في عقود اللطائف أنها قرية قديمة كبيرة يبلغ أهلها أربعين وفيها 22 بيتاً، ولم يتفق لي أن أراها أو أعرفها.

الصخيرة: من قرى وادي جفن الكبيرة فيها بساتين وزروع، ذكر لي إنها موجودة ولم أرها.

صعب: قرية في آخر المثناة من وادي وج إلى غرب الطائف، سميت باسم جبل مجاور لها يدعى (صعبا) وهو في واد أمام جبل المحترق.

الصفاة: قرية كبيرة عامرة بعد المريسية، فيها نحو ثلاثين داراً وأربع آبار وأربع مزارع منها مزرعة للشريف فهد بن شاكر والثلاث للأعصمة. وهذه القرية هي منتهى حدود لقيم في اصطلاحهم وبعدها بيسير قرية أم الحمض السابق وصفها.

الصهيبة: ذكرها الفاكهي في قرى القرن من وج ولم أعرفها.

العبابيد: قرية في وادي لقيم، فيها مزارع وبضعة بيوت وبئر ماء، وهي قبل قرية الفقهاء وبعد الخضاري، تبعد عن الطائف إلى الشرق مسيرة ساعة ونصف.

العبلاء: قال الفاكهي: قرية كبيرة عند حصن جاهلي في لية.

بئر عجلان: من أشهر آبار الطائف، وماؤها من أعذب مياهه، وهي في قرية الآبار.

العرج: قرية كبيرة من قرى الطائف، إلى شرقه، تلي وادي الخرار بعد مسافة. كانت من أنضر قرى هذه الديار وأجملها، حتى أنهم كانوا يدعونها (مصر الصغيرة) ثم قلت مياهها فجف بعض مزارعها وزال رونقها. وفي كتاب أشراف مكة وأمرائها أنها كانت عام 1216هـ من أعمر القرى ومن أكثرها ماء ومروجاً، وذكر أن حادثة نشبت فيها في ذلك العام فاحترقت دورها ونهبت مواشيها، ولكنها بعد ذلك استعادت شبابها ثم تضاءلت منذ بضع سنين. وإلى هذه القرية (أو الوادي كما سماها بعض المؤرخين) ينسب الشاعر المعروف بالمعرجي. وقد سبقت الإشارة إليه في رجال الطائف. وفي معجم البلدان لياقوت: العرج أول تهامة، في بلاد هذيل، وهي غير العرج الذي بين مكة والمدينة وغير العرج الذي في اليمن بين المحالي والمهجم.

العقيق: قرية أقرب إلى الصغر، موازية لشبرة على غربها. وفي بعض كتب التاريخ إنها قرية المقداد بن الأسود الصحابي، وبها ثلاث آبار: بئر المقداد وبئر الزبير وبئر عكرمة، وقد قلت مياه هذه الآبار الآن وجف بعضها.

عكابة: جبل قرب الطائف إلى شرقه، مقابل لشبرة، محاذ لشرقرق، تقدم الكلام عليه في شرقرق.

العكرمية: قرية بالقرب من العقيق، تنبع قريباً منها البئر المسماة نجمة المملوكة. لم أرها، وعارفوها كثيرون.

قرية الغنامين: قرية كبيرة كثيرة المزارع والفواكه، تقع في أواخر وادي لقيم، إلى شرق الطائف، بعد قرية البخاتين وقبل مزارع أم هيثم. فيها نحو عشرين بيتاً وخمسة بساتين وست آبار وبها أراض (ويسمونها الركبان)، تزرع حبوباً وبها خوخ وسفرجل ورمان وعنب وتين.

الفعر: مزارع للشريف شرف في أم الفضلين عند قرية الخليطي في لقيم.

الفضيلة: بئر في مزارع النوامي الآتي ذكرها.

الفقهاء: قرية في لقيم وراء قرية العبابيد. فيها نحو عشرة بيوت وبها مزارع وأشجار وبئر ماء تسمى الخضيرة، وهذه القرية قبل قرية الخضراء.

القديرة: قرية كبيرة تبتعد عن أم الحمض إلى الشرق مسيرة ربع ساعة، وبعدها عن الطائف مسافة ساعتين ونصف، وهي خلق لقيم، فيها نحو خمسين بيتاً وسبع آبار ومزارع حبوب.

قروة: هي قرية الآبار السالف ذكرها لا تعرف اليوم بغير (قروه) مشتملة على دور متعددة بلغت حدّ الكثرة وفيها خمسة عشر بستاناً.

القرن: قرية عامرة، وقد يقال لها وادي القرن، على طريق المسافر من الطائف إلى مكة قبيل الهدة في وادي المحرم، وفي هذه القرية يكون الإحرام. وكانت في أيام العجيمي خربة وسماها (القرين) بالتصغير، قال في تاريخه: (جاء في القاموس القرين قرية بالطائف. وهي الآن خربة) ولعلّ القرين غير القرن ولكنهم لا يعرفون اليوم قرية تدعى بهذا الاسم على صيغة المصغر.

قملة: قرية صغيرة عامرة، قبل وادي الجفيجف في الطريق إليه، محاذية للحرمان شرق الطائف، فيها بساتين ودور وزروع مختلفة.

لقيم: واد طويل خصيب يجتاز في أقل من ساعتين، أوله مزارع الشدايين بعد المليساء، وآخره قرية الصفاة على ما يزعمون. وعندي أن آخره جبل رغاف، وهو كثير القرى والمزارع. وقد أتيت على أسمائها في مواضعها. وفي كتاب العجيمي أن لقيماً قرية كبيرة مشتملة على بساتين ومزارع وآبار، ثم قال: وهي مسكن جماعة من ثقيف يقال لهم الحمدة، وقد قتل صناديدهم الشريف زيد بن محسن في حدود سنة 1040هـ لخروجهم عن طاعته اهـ. والذي صح عندي أن جماعة ثقيف يسكنون قرية المليساء. وقد تدعى باسم الحمدة الذين ذكرهم العجيمي لسكناهم بها إلى الآن. أما لقيم ففيه من ثقيف وغيرها من قبائل العرب عدد غير قليل منتشرون في مزارع هذا الوادي وقراه. وأما إطلاق اسم القرية عليه فلا أعلم له وجهاً إلا أن كانت فيه قرية تدعى لقيماً تغير اسمها بعد زمن العجيمي، وأطلق الاسم على الوادي كله.

لية: واد أكبر من وادي لقيم، كثير المواضع، وفير الري، في أول طريق السيل إلى جهة الشرق الجنوبي، أشرت إليه في كثير مما تقدم. قال ياقوت: ولية بتشديدها

من نواحي الطائف مر به رسول الله (ص) حين انصرافه من حنين يريد الطائف، وأمر وهو به أن يهدم حصن مالك بن عوف قائد غطفان. قال غيلان بن سهم:

جلبنا الخيل من اكناف وج   وليـة نحوكـم بالدار عينا

وقال الفاكهي: لية على ثمانية أميال من الطائف إلى الجنوب، وهي واد كبير خصيب، اختلف المؤرخون بها أهي من الطائف أم لا. وفي كتاب العجيمي ما يؤيد أنها من الطائف. والطائفيون يرون أن لية ليس من أوديتهم.

المثناة: موضع في وج على غرب الطائف، فيه قرى وبساتين ومزارع. خرجنا إليه يوم 14صفر، فكنا بينما نحن نسلك سفح جبل عن يميننا نلقي النظرات على ما في اليسار، فيتمثل لنا منظر الربوة الغناء في دمشق أمام السالك على سفح قاسيون!

وانتهى بنا السير إلى نيف وخمسة كيلو مترات عن المدينة، فنزلنا بستاناً من بساتين المثناة تخترقه عين ماء تترقرق في قناتها، يسمونها عين الخبزة (وقد مر ذكرها)، ولبثنا أمام العين فجلب لنا سفرجل قطف أمامنا وهو في غاية الجودة كأنها حمل من زبداني الشام، ورأينا أصحاب البستان يحصدون الشعير، فعجبنا من ذلك ونحن في أواخر تشرين الأول (سبتمبر) وما كنا لنخاله موسم حصاد، غير أن العجب لم يلبث أن زال حين علمنا أن هذه الأراضي تجود بمحصولين، في العام يحصد الأول في الخريف، والثاني في الربيع مما لا نعرفه في بلادنا. ولما مالت الشمس إلى الغروب صعدنا جبلا مقابلا للمثناة لم نعرف اسمه فرأينا أجمل منظر شهدناه في الطائف: ذلك وادي وج الرحيب، وحدائق المثناة الخضراء، وهي من أخصب الأرضين في هذه الديار، وفيها أبنية عامرة وأخرى عبثت بها أيدي النوازل والسنين. وكان القمر في ليلة تمامه فجعل يصعد أمامنا صعوده البطيء، وارتفع صفير العصافير طرباً بتوديع الهاجرة ثم لم نلبث أن عدنا إلى منازلنا والليل في إبانه.

المحترق: من جبال الطائف المشهورة، حجارته أميل إلى السواد من غيرها، يقع في أعلى المثناة ويقابله واد به جبل (صعب) السابق ذكره.

المحرم: إذا اعتبرنا جبل كرا الفاصل بين حدود مكة والطائف دخل وادي المحرم في حدود الطائف، وهو واد مشهور معروف تقدم الكلام عليه في حديث سيرنا من الهدة إلى الطائف.

المدهون: في الطائف جبلان كلاهما يدعى المدهون، أحدهما: عن يمين الذاهب من الطائف مغرباً يلي أرض المثناة بطريق وج. والثاني عن يسار الذاهب من الطائف مشرقاً يقابل أول أرض شبرة، وكأنهما كانا متصلين فخرقتهما السيول لأن الفاصل بينهما غير عظيم البعد.

المرقبة: قرية في وادي لية، كانت تقام فيها سوق من عهد الشريف حسن ابن عجلان، وفيها مسجد، وقد بطلت إقامة السوق منذ زمن.

المريسية: قرية كبيرة ذات آبار خمس وبساتين فيها عنب ورمان وتين وحمض وتفاح ونخل وليمون، وبها نحو عشرين داراً وأربعة منازل كبيرة للأمراء والأشراف. وهي في وادي لقيم على مسيرة ساعة ونصف من الطائف إلى الشرق مجاورة لمزارع الخضرا (بالقصر) التي قلنا إن على بئرها محركا وضع حديثاً. وهذه البئر معروفة باسم بئر (المريشية) وهي بعد قرية أم صدعين.

مسرة: جبل عظيم كثير التعاريج يسلك الذاهب بين مكة والطائف جانبا منه. وقد تكلمنا عنه في طريقنا من الهدة إلى الطائف.

المسمع: قال الفاكهي: من قرى وادي لية.

معشي: قرية غرب الطائف لا تبعد عنه كثيراً، يظنها بعض أهل الطائف قرية الهضبة التي ذكرها العجيمي وإنما الهضبة الطائف.

ملح: قرية في وادي لية معروفة، فيها بيوت ومزارع.

المليساء: قرية كبيرة من قرى الطائف، قبل وادي لقيم للذاهب إليه، يسكنها جانب كبير من عشيرة الحمدة وقد تعرف باسمهم (انظر الحمدة). فيها نحو 60 منزلا ورجالها نيف ومائة ولعل نفوسها تناهز ثلاث مائة، وهي مشهورة في قرى الطائف بجودة سفرجلها، وفيها كروم عنب ومزارع حنطة وشعير.

وكانت فيها عدة آبار جف بعضها، وهي قبيل بئر الحماضية التي تقدم ذكرها وتكاد تلاصقها. تبعد عن الطائف نحو خمسة كيلو مترات.

منيفة: ذكرها بعض متأخري المؤرخين في قرى وادي لية ولم أتحقق وجودها.

نجمة المملوكة: بئر مشهورة بكثرة مائها وهي لفريق من الأشراف على مقربة من قرية العكرمية.

نخب: بفتح فكسر. واد بين الطائف ولية. له ذكر في التاريخ والشعر، وفيه بيوت كثيرة ونحو عشرة بساتين، يسكنه الآن عرب (وقدان) وهم قبيلة من عتيبة. وفي كتابي العجيمي وياقوت أن سكانه هذيل، ولعلهم كانوا قاطنيه في السابق ثم جلوا عنه، وكلام ياقوت في المعجم: (نخب واد بالطائف وأنشد):

حتى سمعت بكم ودعتم نخبا   ما كان هذا بحين النفر من نخب

قال: وهو بأرض هذيل وقيل واد من الطائف على ساعتين مر به النبي (ص) من طريق، يقال لها الضيقة ثم خرج منها على نخب، حتى نزل تحت سدرة يقال لها الصادرة. ورواه الأخفش بفتحتين اهـ كلامه.

ورواية الفتح فالكسر في نخب هي الصحيحة خلافاً للأخفش فإن أهله لا يزالون يسمونه بها رغم مرور الأعوام والأحقاب، فلا مجال للخلاف.

النصيلة: مزارع في وادي الجفيجف، ذات بساتين وأشجار، ولا فواكه فيها بل أشجارها من نوع النبق وزروعها الحبوب، وهي بعد مزارع جبرة وقبل دحلة.

حصن النغرة: النغرة طائفة من ثقيف لم أسمع بها في رحلتي. وهذا الحصن يظن أنه الحصن الذي نزل بقربه النبي (ص) في غزوة الطائف. فقد قال المرجاني إنه باق إلى الآن بالبناء الجاهلي. ونقل العجيمي أن فيه أربعين بيتاً وفيه بئر وتنين عظيم يمنعهم البناء فيه، إلا أن يذبحوا عنده! وهو بالقرب من مسجد الحجاج بن يوسف. وكان قد عمر هذا المسجد بتربة حمراء يؤتى بها من اليمن، ولم يبق إلا آثار المسجد ومنارته خراب. ثم قال: وهذا الحصن موجود

على ما ذكره المرجانب. وقد وصلت إليه ورأيت آثار المنارة ومسجد الحجاج، وأما التنين فإنه فقد منذ سنين وحوله بيوت وبساتين. والشائع عند أهل القرية إن بيت عبد الله بن عباس فيها. اهـ.

وهذا الحصن في وادي لية لم تتيسر لي زيارته وعندي شك في بقائه إلى الآن.

النوامي: مزارع في أوائل وادي لقيم من جهة الطائف للشريف شاكر، فيها أراض كبيرة بعضها مزروع، وفيها بئر الفضيلة الآنف ذكرها وهذه المزارع بعد أم الفضلين وقبل الخضاري.

الهضبة: ذكرها العجيمي فقال: قرية كثيرة البيوت جداً، بدئت عمارتها بعد الألف، ثم زادت بيوتها بعد أن خربت السلامة.

وهي الآن غير معروفة ويظنها بعض فضلاء الطائف قرية معشي السابق ذكرها، لوقوعها تحت هضبة تعرف اليوم باسم هضبة معشي. والصحيح ما ذكرناه في الكلام على داخل السور من أنها هي بلد الطائف نفسه.

الهدة: تقدم الكلام على الهدة فصل خاص في أوائل هذا الكتاب. وقد يعدونه آخر حدود الطائف للسائر إلى مكة، كما يعدون الكر آخر حدود مكة للذاهب إلى الطائف، يفصل بينهما جبل كرا وهو الحد الطبيعي. ولأهل البلدين في هذا أقوال.

الهميلة: كان يجدر بنا أن نهملها! قرية لها شيء من القدم تقع في آخر وادي جفيجف، وقبيل عطفة وادي الخرار، خربت كلها ولم يبق منها غير دار واحدة كأنها خربة ولا سكان فيها.

الواثليتان: الشرقية والغربية: قريتان في وادي لية.

وج: واد عظيم في ديار الطائف إلى غربها يمتد بين جبلي المحترق والأصيحرين طولاً وبين جبلي المدهون وأم السكارى عرضاً. وهو أشهر أودية الطائف ومواضعها حتى أن بعض المؤرخين أطلقوا لفظ وجّ على الطائف كلها عمرانها وقراها وأوديتها، وفيهم من يرى أن وادي وجّ عرف قبل الطائف

وإن قرى الطائف ومدينته بنيت فيه. وبهذا جاء الحديث الشريف: (آخر وطأة الله يوم وجّ) وفسروا الوطأة هنا بالغزاة وكانت غزوة الطائف آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم. أما المعروف اليوم عند أهل الطائف فهو أن وجاً هو ذلك الوادي الذي أشرنا إلى حدوده وهو خارج عن الطائف. وأكثر المؤرخين يرون أنه سمي وجاً بنزول أحد العمالقة به في الأعصر الغابرة، قالوا: وهو وج بن عبد الحق (أو عبد الحيّ). وزاد ابن عراق:[1] إن هذا العملاق كان من أهل نجد يقيم في هذا الوادي مدة فصل الصيف.

ولم يمر به النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الطائف، لأنه جاءه من طريق السهل فوادي لية وهو على شرق الطائف منحرفاً قليلا إلى الجنوب. فيتضح من هذا أن أسم وجّ كان يطلق إلى ما بعد العصر الإسلامي بقليل على جميع الطائف، ثم خصّ بهذا الوادي المعروف إلى يومنا، وهو كثير القرى والمزارع والآبار والسكان والبساتين، كانت بساتينه في أواخر القرن العاشر نيفاً وستين بستاناً. وقد أهمل بعضها أخيراً لقلة الأمطار غير أن ذلك لم يؤثر في عمران هذا الوادي وخصبه، وهو على يسار الذاهب من الطائف إلى مكة وعلى يمين القادم من مكة، يبتدئ بعد الطائف بمسافة غير بعيدة.

الوزير: هي القرية المعروفة الآن باسم (الزوران) من القرى الصغيرة في وادي لية.

الوسطى: مزارع في أواسط لقيم لقبيلة الأعصمة، فيها بئر واحدة. وهي بعد مزارع أم هيثم وقبل الخادمية.

الوهط: بستان كان لعمرو بن العاص، مرت الإشارة إليه، وهو الآن قرية على ثلاثة أميال من وج، يراها المؤرخون آخر حدود الطائف من غربه. فيها عين

---

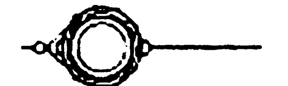
(1) ابن عراق: ابن عراق: هو الشيخ نور الدين علي بن محمد بن عراق الشامي. من مؤرخي الطائف له رسالة فيه سماها (نشر اللطائف في قطر الطائف) رأيتها بمكة مخطوطة لا يتجاوز الكراس.

ماء كانت تعرف بعين الأزرق وتعرف اليوم بعين الوهط. وقال الفاكهي في الكلام على الوهط في عصره: هي قرية قريش وأم قرى الطائف.

وفي أمثال الميداني نبذة أوردها في كلامه على دهاء عمرو بن العاص. قال: ويحكى من دهاء عمرو أن معاوية قال له يوماً: هب لي الوهط ياعمرو واسألني ما شئت. فقال: هو لك. ثم قال لمعاوية: وقد بقيت مسألتي. فقال: أنت بكل ما سألت مسعف. قال تردّ لي الوهط! فعجب معاوية من دهائه، وقال: لك هو!

الوهيط: قرية خلف الوهط فيها ثلاثة بيوت وبها عين وبستان.

قبائل الطائف



ترجع قبائل الطائف في أنسابها اليوم إلى أصلين كبيرين أحدهما عتيبة، والثاني ثقيف. أنا ذاكر ما وصلت إلى معرفته من أسماء الفريقين كما يلفظونها هم:

فمن عُتيبة، الجَعَدة، والوَذَانين، والسُوُطة،والغُصِمه، والدعاجين. والزوّد، وقريش، والثبتة، والمقطه، والرّوقة(ومن هذه: الزواريق وطلحة ومزحم) وذوو عالي، والذيبة. والفتلة، والنخشة،وبنو الحارث (ومنهم ناصرة- وهم أهل قرياالحجاز- والشدادين، وذوو حطاب. وهما بداة).

ومن ثقيف: قريش الحضر. قريش البدو. بنو سفيان (وهم أكثرهم عدداً وينقسمون إلى أفخاذ كثيرة)، وطويرق (منهم حضر وبدو) وثمالـه، وبنو سالم، والصخيريون وعوف.

وفي العارفين بالأنساب من يرجع بهذه القبائل إلى أصلين أعلى من عتيبة وثقيف، وهما شبابة وخندف، فإذا قيل شبابة اندمجت بها قبائل عتيبة كلها وزيدت قبائل أخر لم تكن تنتسب إلى عتيبة ولا ثقيف وهي من سكان ديار الطائف. وإذا قيل خندف اندمجت بها ثقيف كلها وزيدت قبائل أيضاً.

فإذا رجعنا إلى هذين الأصلين: شبابة وخندف، أضفنا إلى عتيبة القبائل الآتية

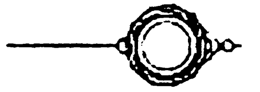
لتكون منها جميعها شبابة: بني الحارث، بني سعد (وهم رؤوس شبابة) وحرب، وقحطان (وهم أقدم قبائلهم).

ونضيف إلى ثقيف القبائل الآتية لتكون من جميعها خندف: البقوم، سبيع، الجحادلة، السيابين، مطير، هذيل (ومنها بنو اخلد، والتدويون، والعلويون).

وقد يستغرب مطالع هذه الرحلة تقسيمنا القبائل أولاً إلى أصلي (عتيبة وثقيف)، ثم إلى أصلين أرفع طبقة (شبابة وخندف)، ويقول: ما بال صاحبنا لم يكتف بشبابة وخندف فيعدد لنا قبائلها ولا يشغلنا بمرجعين؟.

وإنما يعرق الفائدة من هذا التقسيم من كان له بالقبائل أقل اختلاط، إذ يجد الصريخ إذا نادى يال عتيبة! تهافتت عليه قبائل عتيبة وتخلف المنتسبون إلى شبابة مباشرة، وإن نادى يال ثقيف! أجابته قبائلها وأتى خلف المنتسبون إلى خندف مباشرة. وقد ينادي: يال شبابة فتجتمع كلها وعتيبة فيها، أو يال خندف فتجتمع كلها وثقيف فيها.

تلك تقاليد للعرب قديمة غير حديثة، ولعل عرب البادية أحرص الناس على أنسابهم وأشدهم تعصباً لأصولهم، فإنك لا ترى في الحواضر ما تراه في البوادي من معرفة كل رجل نسبه، اللهم إلا العيال القديمة العريقة في أنسابها.



الرحلة الحجازية

في جملة ما عثرت عليه بالطائف من الكتب المخطوطة قطعة من كتاب للعالم المكي المرحوم الشيخ عثمان الراضي. من شعره بديعية نبوية قال فيها:

(الاستدراك)

قالوا نرى لك صبرا بعد فرقتهم فقلت مستدركا لكنه بفمي

(التوشيع)

زادوا هيامي بتوشيع الملام لهم من صولة الجائرين البين والعدم

(المغالطة)

غـالطتهم حين قـالوا ابن منزلهم ومـن هـم قلت أهل البان والعلم

(الغيرة)

إني أغـار عليـهم أن أسـميهـم وهـم بقـلبي وأشـكو حـرّ بينـهم

(المناقضة)

لهـم لـديّ عهود لست أنقضهـا إلا إذا شئت أو شـاء الهوى عدمي

(القسم)

لا بـلغتني المعـالي مـن تنـاولهـا إن لم أكـن في ولائي صـادق القسم

وله من قصيدة طويلة:

لله معهـد انسـنـا مـا بين وج والغـديـر

مغنى تخـال قبـابه في البهو هالات البدور

يسمو برونقه على حين الخورنق والسـدير

كم فيه من بدر تكحل بالدلال على الفتور

أو شمس حسن بالجمال تقنعت لا بالحرير

وضعه في نقد الرحلة الحجازية لمحمد لبيب بك البتنوني. وقد تـوفي الـشيخ عـثمان قبل أن ينجز هذا الكتاب، فرأيت أن الخص ما أصبته منه حرصاً على مادته من الضياع والانتشار، وعسى أن ينظر صاحب الرحلة الفاضل في ما جاء به الناقـد، فيـصلح مـا يرى إصلاحه عند إعادة طبع رحلته:

1- جاء في الرحلة ص29 من الطبعة الأولى و23 من الثانية:(أن السراي التي نزل بها الخديوي عباس في مكة المكرمة كان قد بناها محمد علي باشا المصري سنة 1288هـ لتكون داراً لحكومة الحجاز- إلى قوله- لأنه هو الذي عين في إمارة مكـة جـدهم الشريف محمد بن عون سنة 1229هـ). قال الراضي ما ملخصه: إن هذه الـسراي أو دار الإمارة إنما بناها أمير مكة الشريف محمد بن عون. وقد ساعده محمـد عـلي

باشا على البدء بعمارتها بشيء من المال أهداه إياه، وأما إسناد تعيين الشريف محمد أميراً على مكة إلى محمد علي باشا، فالصواب فيه إن محمد علي كتب إلى حكومة الأستانة يرشح محمداً وهو ضيف عنده في مصر، إذ ذاك فلبته الحكومة وصدر أمر السلطان محمود الثاني بتعيين الشريف محمد، وذلك في افتتاح سنة 1243هـ.

- كانت مدة غياب محمد علي باشا عن مصر للقيام بها انتدبته له حومة الأستانة من قتال الوهابيين في الحجاز سنة وتسعة أشهر وذلك من منتصف شوال 1228هـ إلى رجب 1230هـ.

- تمت عمارة دار الإمارة بمكة سنة 1259هـ.

- كانت حكومة مصر واسطة المخابرات الرسمية بين الحجاز والأستانة في أيام محمد علي باشا، وكان هذا ينظر في شؤون الحجاز منذ دعي لإخراج الوهابيين منه.اهـ.

2- جاء في الرحلة ص34 من الأولى في ذكر قبر عبد الله بن الزبير (رض): (وكانت له قبة هدمها الشريف..). قال الراضي: لم تكن له قبة بل كان له بناء صغير مسقوف هدمه الشريف المذكور.

3- في الرحلة 51 من الأولى و39 من الثانية: (وفي مدة الموسم ترى أهل البلاد، ولا سيما الأعراب يضعون دائما سدادتين من القطن في فتحتي مناخرهم بعد أن يغمروها بدهن المر ويسمونها الصمائم الخ). قال الراضي: ولعمري ما سمعنا قط ولا علمنا أن أحداً ممن طرق هذه الرحاب المقدسة لنسك أو غيره، قال هذا القول ولا شهدنا نحن أهلها ولا شهد أحد من الحجاج ولا غيرهم أن أهل البلاد أو الأعراب يصنعون ذلك -إلى قوله-. وهب أن مؤلف الرحلة رأى واحداً أو عشرة مثلا في موسم يحتوي على أكثر من مائة ألف من أصناف الناس فهل يجوز له أن يعدها من عادات أهل البلاد وهم لا يعرفونها؟ الخ.

4- في الرحلة ص53 من الأولى و41 من الثانية توهم صاحب الرحلة القدم في بعض بيوت مكة. قال الراضي: إن هذه البيوت التي أشار إليها كالدهاوي والساب ورذة وناقر ومرزا، ومن ذكر من الحضارم والشوام والترك، لا شيء لها من القدم

بل كلها ممن جاوروا بمكة أنفسهم، وأما البيوت القديمة في مكة فمنها الشيبيون سدنة البيت الحرام والزمزميون والسقاطيون وبيت ابن علان وبيت الخطاب وأمثالهم.

5- في الصفحة نفسها من الأولى والتي تليها من الثانية في وصف أهل مكة (فبينا ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك وضعته بين يديك، تراه قد استوحش منك الخ الخ) ردّ عليه الراضي رداً مسهباً في إحدى عشرة صفحة جاء فيها: إن كل إقامة صاحب الرحلة بمكة لم تبلغ عشرة أيام قضاها في خدمة الجناب الخديوي والتهيؤ لصعود عرفة وطلوع منى وعرفة والاشتغال بالمناسك والتبريك والمعايدة، فأين الوقت الذي استطاع به أن يختلط بأهل مكة وتتكرر محادثته معهم حتى اختبر طبائعهم الخ، ثم أتى على جانب كبير مما جاء في فضل مكة وأهلها وسكانها.

6- جاء في الرحلة ص54 من الأولى و42 من الثانية. (والذي يؤسف له أن هذا الخلط وصل إلى لغتهم الخ). قال الراضي: إن ما عاب به صاحب الرحلة المكيين من نطقهم ببعض الكلمات على غير أصلها الصحيح الفصيح، ولا تنفرد فيه مكة بل هو شائع في أكثر لهجات البلاد العربية ومصر في جملتها.

ثم بحث في كلمات ظنها صاحب الرحلة خطأ وعدّها مما أوجب أسفه، فأبان الراضي تسلسلها عن العربية الفصحى كقولهم (أبيض) للاستحسان-مجازاً- و(زل) بمعنى مرّ و(زلمه) للرجل و(أزهم فلاناً) أي أدعه و(أندر) أي أخرج و(الصمادة) للكوفية الخ.

7- جاء في الرحلة ص62 من الأولى و58 من الثانية: (وفي مكة قلعتان تحكمان على المدينة الخ) قال الراضي: بل القلاع ثلاث لا اثنتان.

8- في الرحلة ص58 من الثانية: (وبها مطبعة للولاية تسمى باسمها). قال الراضي: بل بمكة مطبعتان لا واحدة، إحداهما للحكومة كما ذكر والثانية بالفلق لأحد أغنياء مكة.

9- في الرحلة ص58 من الأولى و98 من الثانية: (وفي المسجد ست منارات). قال

الراضي: والصواب سبع، لأن مؤلف الرحلة لم يذكر باب الزيادة غير واحدة وهما اثنتان.

10- في الرحلة ص86 من الأولى و99 من الثانية:(الحنفي يبتدئ بالصلاة في جميع الأوقات ويتلوه المالكي ثم الشافعي ثم الحنبلي). قال الراضي: هذا غير صحيح وإنما الأوقات التي يبتدئ فيها الحنفي بالصلاة أربعة: الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ويتلوه في كلها الشافعي لا المالكي ثم يصلي المالكي ثم الحنبلي. أما وقت الصبح فيبتدئ فيه الشافعي، ويتلوه المالكي ثم الحنبلي، ويتأخر الحنفي في الصبح عن الجميع للأسفار، والمغرب لا يصلي فيه غير الحنفي ثم الشافعي فقط. وهذه العادة بمكة منذ مائتي سنة. وقد كان الشافعي في السابق يتقدم في الأوقات كلها.

11- في الصفحة نفسها من الرحلة:(إن أهل كل جهة من العالم الإسلامي يجلسون عادة من الحرم في الجهة التي يستقبلون بها الكعبة في بلادهم الخ). قال الراضي: ذلك غير صواب فإن أهل كل جهة من العالم الإسلامي لهم مطوّف مخصوص وزمزمي مخصوص، فكل جنس من الحجاج تبع لزمزميه، حيث يفرش لهم الحصر وربما كان للجنس الواحد من الحجاج زمازمة متعددون، وربما كان للزمزمي الواحد أجناس متعددة إلا الإعجام فإنهم يجلسون عند باب السلام لأنهم لا زمزمي لهم الخ.

12- في الرحلة ص91 من الأولى و108 من الثانية:(وتفتح الكعبة في العاشر من المحرم للرجال الخ) قال الراضي: جاء كثير من الخطاء في هذا البحث فقوله إنها تفتح في ليلة الحادي عشر منه للنساء لا حقيقة له، ومثله قوله وفي مسائه للنساء وقوله في العشرين منه لغسيل الكعبة ليس بصواب فربما تأخر أو تقدم، وقوله(وفي أول جمعة من رجب للرجال وفي تاليه للنساء) قال الراضي: لا حقيقة له ولا معنى!.

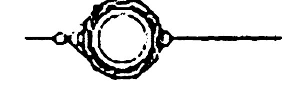
13- في الرحلة ص94 من الأولى و107 من الثانية: و(في الجدار الشمالي مكتوب على باب التوبة هذه الأبيات -وأورد الأبيات- وعلق عليها في الهامش قائلا: (ومن هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية في بلاد العرب وخصوصاً في القريض منها حوالي القرن الحادي عشر للهجرة -لأن الأبيات

نقشت فيه-). قال الراضي: أن ناظم الأبيات غير عربي اللسان، وقد أوضح الناظم ذلك بقوله في الأبيات: قال تاريخاً له قاضي البلد الخ، وهذا القاضي كان تركياً تولى قضاء مكة من باب المشيخة في الآستانة، وكان ممن يعانون الأدب فلما تم ترميم الجدار نظم الناس في ذلك بمكة على العادة عندهم في كل تعمير أو ترميم، فنظم مولانا القاضي هذه الأبيات، وقدمها إلى أمير مكة طالباً منه تقديمها على غيرها، فلم يجد بداً من إجابة طلبه لأنه تركي وقاض، خصوصاً وقد كان تقديمها بواسطة الوالي الخ.

14- في الرحلة ص102 من الأولى و125 من الثانية في الكلام على مقام إبراهيم: (وكان هذا الحجر قبل الإسلام موضوعاً بالمعجن إلى جوار الكعبة، ثم أبعد عنها الخ). قال الراضي: (وهذا يخالف ما دلت عليه الأحاديث والأخبار، والأدلة كثيرة في أن موضع المقام الشريف في الجاهلية والإسلام هو موضعه الآن)، ثم أتى بحجج من التاريخ لا غبار عليها.

هذه خلاصة ما جاء في الأوراق التي تصفحتها من رد الشيخ الراضي، وهي كما ترى لم تتجاوز ثلث كتاب الرحلة.

الأوبة



أمضينا نيفاً وعشرين يوماً في الطائف، نركب البغال عصر كل يوم، ونمضي إلى جهة من جهاته، فنبتعد مسيرة ساعة أو ساعتين أو أكثر، ننقب عما نسترشد إليه من الآثار، وننظر في ما نمر به من القرى والديار، ونتريض في بعض الجنائن والبساتين ونعود بعد الغروب.

وكثيراً ما كانت جماعتنا تتألف من أمير الطائف[1]، ووكيل حربية الحجاز[2]وقاض

(1) أمير الطائف: الشريف شرف بن راجح.

(2) وكيل حربيته: صبري باشا العزاوي، من قبيلة عزة المخيمة في جوار بغداد. كان في الجيش التركي

=

الطائف[1] ومدير شرطته وفريق من ضباط الجيش، فنجمع بين لذتي الرياضة والاستقراء، والنزهة والاستطلاع. ولطال ما كنا نعاني الصعاب في صعود بعض الجبال والهضاب، غير أن اللذة في ما كان يلوح لنا من أثر أو منظر، لم تبرح تشجعنا على المضي في التصعيد والتطويف والتشريق والتغريب، وناهيك بما هنا لك من صفاء، في الأرض والسماء، وسكون في الطبيعة والفضاء، لولا ما كان ينتاب النفس - وللنفس حنين- من نزوع وتشوق، وتطلع وتشوف، إلى ديار، هي ديار صباتي ورباع أنسي، ومهوى هواي ومنبت غرسي، ديار الشام المنكوبة، بلاد الآمال والآلام، سلام عليها وألف سلام!

كذلك كانت تمر- بما فيها من حلاوة- أيامنا القليلة في الطائف ولقد عثرت بي حرون من شمس البغال، ذات مساء، قبل العودة إلى مكة ببضعة أيام، فلزمت الفراش، وعاودتني ذكريات البعد عن الأهل والخلان، وجعلت تطيف بي وساوسي مهولة علي ببعد ما بيني وبين سورية من مساوف البر والبحر. وكم كنت أردد في نفسي قول ذلك الشاعر المتفجع:

وارحمتا للغريب، في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا!

فارق أحبابه، فما انتفعوا بالعيش من بعده، ولا انتفعا!

وزاد في آلامي فقد وسائل التمريض في الطائف، فصبرت، أغالب بالوجد والوصب، ويغالبني الهم والنصب، فاتفق قدوم الأمير علي أكبر أبناء الملك حسين وولي عهده، إلى الطائف في ذلك الحين، فعادني وقد أقبلت على النقاهة، فاستأذنته مع

= بالمدينة إلى أن استسلمت حاميتها ودخلها الأمير علي، فتطوع ودخل في الجيش العربي فنصب رئيسا لأركان الحرب برتبة قائم مقام قديم (قدملي) ولما استقال قيسونس باشا المصري من وكالة حربية الحجاز أقيم مقامه صبري وجعلت رتبته (أمير لواء) وهو اليوم في سن الكهولة يغلب عليه صفاء السريرة وطيب القلب، مقيم في الطائف مع القوى النظامية.

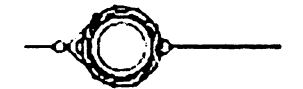
(1) قاضي الطائف:الشيخ عبد الله كمال: فاضل رضي الأخلاق باشر تأليف تاريخ للطائف ما أظنه أتمه. بلغني أنه توفي مؤخراً سنة 1340هـ. وقد سبقت لنا كلمة عنه.

من بقي من الرفاق، بالأوبة إلى مكة، فأذن. وعرفنا أن جلالة الملك قد استبطأنا وأكثر من السؤال عنا، فامتطينا مراكبنا، وقفلنا راجعين، نلقي على الطائف ومن في الطائف النظرات تلو النظرات والتحيات بعد التحيات!

كان في النية أن نعود من طريق السيل(اليهانية) لحاجتين في النفس: إحداهما الرغبة في أن نرى ما نمر به من قراها وأوديتها وشعابها، ولا سيما عكاظ، والثانية حب الراحة بعد أن علمنا سهولة هذه وشهدنا وعوثة تلك، ولم نكن لنبالي بعد اليهانية التي سنضطر في اجتيازها إلى المرور بهذه قد أبدلها من أمنها خوفا، أو كاد، ألجأنا إلى اختيار الأولى، فسلكناها.

بتنا ليلة في الهدة. وثانية في عرفات. وحللنا أم القرى ضحوة أول ربيع الأول سنة 1339 وقد ضعفت فيها سورة الحر بابتداء فصل الشتاء، فتلونا آية يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم، والقينا في عاصمة الملك العصا، ولما كانت لتستقر بنا النوى، وفي غيرها الهوى، ولكنها أيام وليال، تمرّ مر الخيال، بين ماض وتال...

في ضيافة الملك



للملك حسين في مكة قصران فخمان متقاربان، أحدهما حديث العهد بالبناء جميل الطراز مفروش بالأثاث الفاخر يبيت فيه، وهو مقرّ حرمه المصون، والثاني قديم البناء ضخم الحجم، أوسع دائرة وأكثر غرفاً وأبهاء من الأول، يقيم نهاره فيه والهزيع الأول من الليل.

ولا يقتصر الثاني على كونه مقام جلالة الملك، بل هو ثلاثة أقسام أو أربعة، وإن شئت فقل خمسة، في خمس طبقات لا يقل ما فيها عن مائة غرفة وقد قيل لي إنها مائة وعشرون. وهذا القصر هو المعروف عند أهل مكة بدار الحكم أو (سراية سيدنا)، وأما الأول فاسمه في مكة (بيت سيدنا).

يصعد الداخل في دار الحكم بضع درجات عريضة واسعة، في أعلاها باب حديدي كبير يفتح فجر كل يوم ويغلق الساعة الرابعة بعد الغروب، فيمرّ بدهليز قصير ينتهي به

إلى ساحة رحبة يحيط بها البناء من جوانبها الأربعة إلا أن الجانبين الغربي والشمالي أشمخ وأرفع، بل فيهما الغرف والمنازل والمساكن وكل شيء.

أما أرض هذه الساحة فبسيطة لا بلاط فيها ولا حجر، تدخلها-من باب آخر- الجمال الخاصة بجلالة الملك فتناخ ويطرح أمامها طعامها فتأكل. وقد تبيت في هذا المكان أو تقاد إلى مكان ثان. يخالطها في الساحة عدد من الإوزّ(ديك الحبش) وكبشان كبيران، سمعت من جلالة الملك أنه رآهما وقد أفلتا من جزار كان يقودهما ليذبحهما فصنعا درجات القصر، فأمر جلالته بنقد الجزّار ثمنهما، وحماهما، وسيبقيان عائشين في ظل قصره إلى أن يلقيا حتفهما. وكذلك الإوزّ وغيره مما قد يدخل هذا البيت من أنواع الحيوان، لا يذبح ولا يؤذى.

وعلى يمين الداخل في القصر سلم حجري يصعده الصاعد، فيرى في طبقته الأولى غرفاً يسكنها رئيس كتاب جلالته الشيخ أحمد السقاف وبضعة كتاب، وهناك غرفة للشاهي(الشاي) والقهوة، وغرفة للجلوس، وغرفة خاصة كثيراً ما كان مجلس فيها الأمير زيد أيام إقامته بمكة قبل انصرافه الأخير إلى العراق.

ويرتفع الصاعد إلى الطبقة الثانية، فيرى عن يمينه مكاناً متسعا، يجلس فيه الشيخ ياسين البسيوني إمام جلالة الملك، والمضايفي الخاص(الحاجب) سعد وبعض منتظري الدخول على حضرة الملك، وفي منتهاه باب خشبي كبير يخرج منه إلى سطح مكشوف يجلس الملك على مقعد فوقه أكثر ليالي الصيف فراراً من الحر.

وعن يسار الصاعد (المخلوان) وقد تقدمت لنا كلمة عنه، وهو غرفة الملك الخاصة في أوقات سمره وخلواته وراحته. ويقابل الصاعد باب ثالث فيه غرفة تؤدي إلى مكان أظنه أوسع ما في القصر طولا وعرضاً، وفي هذا المكان يجلس الملك جلوسه العام للناس، وفيه تقام صلاة المغرب كل ليلة، فيصلي الملك ومن حضر من أبنائه وأحفاده وضيفانه وخدمه وعبدانه. وفي الغرفة التي يدخل منها هذا المتسع، توضع مائدة للطعام كل مساء لحاشية الملك وضيوفه وأبنائه.

وإذا لم يصعد داخل القصر هذا السلم الأيمن، بل استمر داخلا ساحته رأى عن يساره عدة أبواب، بعضها منازل للضيوف وغيرهم، وبعض متصل بالطبقات الثالثة

والرابعة والخامسة. وهناك بيوت وغرف وأدؤر، يقطنها فريق كبير من نساء الأسرة الهاشمية. ولم أر أثر ذلك بل نقله لي ثقة من أهل البيت.

وفي إحدى زوايا القصر مطبخ كبير ترسل منه في أوقات الطعام الصواني الكثيرة والقدور ولوازمها إلى عدة بيوت وتوزع على سكان القصر كله والله العليم بعددهم.

وفي جانب من ساحة أرض القصر غرفة صغيرة، في وسطها خرق ينزل منه نحو أربعين دركة إلى جوف الأرض، حيث يرى النازل مَكاناً مظلماً مخوفاً موحشاً، يسكنه أناس من البشر مقيدون بالسلاسل، يأتيهم من العيش مالا يكاد يسدّ أرماقهم، ذلك المكان هو(القبو) المشهور، وأولئك الملقون فيه هم سجناء جلالة الملك السياسيون والعسكريون والمتهمون بجرائم الشغب عليه، وربما كان فيهم بعض أبناء عشيرته الأقربين وبعض من كانوا في عداد حاشيته وخاصته، أراد الله بهم الشقاء فسلط عليهم واشياً أو نماماً نزل بهم ذلك المنزل السحيق الرهيب، حيث لا صوت صارخ يسمع، ولا شمس نهار تبصر، ولا ضوء هلال يرى!

هذا ما رأيت أن أكتفي به مجملا فيه الكلام على قصري صاحب الجلالة بمكة. وقد كانت إقامتي في منزل من منازل(دار الحكم) وكان دأبي أن أقضي حصة الليل الأولى (السهرة) مع زوار جلالته، بين يديه، وفي مخلوانه، ثابرت على ذلك مدة مكثي في هذا البلد الأمين، وهي تزيد على ثلاثة أشهر، كان نصيبي منها أن أرى جلالته أكثر من ساعتين في كل ليلة من نيف وتسعين ليلة، أسمع حديثه مع المستمعين وأكلمه مع المتكلمين، فعرفته في سروره ورضاه، كما عرفته في كدره وغضبه، ورأيته في جد الأمر وقلّ أن رأيته في لعبه. واجتمعت لي طائفة كبيرة مما يحرص على العلم به الكثيرون، من سيرة الملك العربي الهاشمي وأخباره، وعاداته وأطواره، وإنما أنا ناقل ما سمعت وما رأيت، نقل المحدث لا المؤرخ، والمصور لا الكاتب، متحرساً بإفراد الحقيقة كما هي عارية مجردة. ولو استطعت لأخذت بيد القارئ أريه ما وقعت عليه عيناي، وأسمعه ما وعته أذناي. على أن الخبر قد يغني عن الاختبار، وفي الرواية ما قد يغني عن المشاهدة.

في يوم من أيام سنة 1270 للهجرة، ولد في الأستانة الشريف حسين بن علي ابن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسين بن عبد الله بن حسن بن

أبي نمي (واسمه محمد) بن بركات بن محمد بن بركات بن حسين بن عجلان ابن رميـة بن محمد بن الحسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بـن عيـسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى ابن غبـد الله بـن موسـى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن(سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم) ابن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بـن النـضر بـن كنانـة بـن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نـزار ابـن معـد بـن عـدنان. ونـسب عـدنان متصل بإسماعيل بن إبراهيم الخليل. وفي النسابين من يرفع النسب إلى نوح كما في سفر التكوين.

وانتقل الشريف علي(والد صاحب الترجمة) إلى مكة ومعه ابنه حسين وهـو يومئـذ طفل في الثالثة من عمره، فرباه في بيته وخالف فيه سنة غيره من الأشراف، فلم يبعـث به إلى إحدى القبائل المجاورة لمكة ولم يرّبه تربية بدوية خالصة يتلقن فيها أخرق البـداة في معايشهم ويتمرن على ركوب الخيل واحتمال المشاق، فنـشأ حـضرياً مـدنيا، وأولـع بالدرس والمطالعة فحفظ مبادئ العربية وتفقـه في شيء مـن أصـول الـدين وفروعـه، وأخذ عن بـضعة أشـياخ أشـهرهم الراويـة العلامـة الـشيخ محمـد محمـود التركـزي الشنقيطي تلقى عنه المعلقات السبع، وهو لا يزال حتى اليوم يذكر قليلاً من بقايـا مـا لقنه إياه هذا الأستاذ، وواصل القراءة على العالم المؤرخ الشيخ أحمد بن زينـي دحـلان صاحب الفتوحات الإسلامية والجداول المرضية وغيرهما، وحفظ القرآن الكريم قبـل أن يتجاوز العشرين من سنيه، ورافقه في طلب العلم فتى مصري الأصـل هـو الـشيخ ياسين البسيوني الذي لم يفتأ ملازماً لـه، وهـو إمامـه في صـلواته اليـوم، وقـد سـبقت الإشارة إليه.

واتفق أن كانت في ذلك العهد إمارة عمه الشريف عبد الله باشا، فأحبه وقربـه منـه وعامله معاملة الأب لابنه، ثم جعـل يـسيره في المهـمات ويوجهـه لتـذليل الـصعاب، فسافر في أيامه إلى نجد، وطاف أكثر ما يلي الحجـاز مـن شرقـه، وعـرف قبائـل تلـك الأنحاء وعشائرها، واختبر خفاياها وظواهرها، ثم كان الصلة الدائمة بين إمارة مكـة

والقبائل الحجازية وغيرها. وزوجه عمه ابنة له اسمها(عبديه هانم) هي أم الأمراء علي وعبد الله وفيصل. وأما زيد فأمه تركية من أكبر عائلات الترك تزوج بها بعد وفاة عبدية هانم. وهي من فضليات النساء، يستشيرها اليوم في أكثر شؤونه ويعتمد عليها في كتمان أسراره.

ومارس ركوب الخيل، فولع بدخول ميادين السباق، وعرف بالقوة والمقدرة على ركوب أقسى الجياد وأصلبها. حدثني من لا أشك بخبره أن الملك لم ينفك يبارز أشد الفرسان طراداً حتى شغلته شواغل الملك. ولقد رأيته ذات يوم واقفاً يريد الركوب، وثلاثة عبيد من الأشداد الأقوياء يقودون جواداً كلما خطوا به خطوة ثار وشخر وانتفض، فلم يزالوا يغالبونه حتى اقتربوا به من موقف الملك وهو الشيخ المسن، فتقدم من الجواد فوضع إحدى رجليه في ركابه ووثب وثبة غير المبالي، فعاد الجواد إلى زمجرته وزهوه، فلم يكن من الملك إلا أن لطمه بقبضة يده لطمة واحدة في عنقه، فذل الجواد ومشى هادئاً ساكناً كأنما أبدل به غيره.

وحدثني من رأى الملك في موسم الحج فقال: كان راكباً جواداً أبيض، وعليه لباس الإحرام الأبيض، وهو مكشوف الرأس اللامع شيباً، أبيض الوجه واللحية والشاربين، فقال: كان ذلك منظراً عجبا.

وتمكن منه في أيام صباه حب اصطياد النمور والضباع والغزلان، وقنص كواسر الطير وبواشقه، فكان كثير من التجوال في رفقة له يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله، فيتوغل في الجبال النائية والقفار الخالية ويعود بعد أيام أو أسابيع حافل الوطاب تتبعه غنائمه من وحش وطير.

ولم يزل في مكة إلى أن أوعزت إليه الحكومة التركية بمغادرتها سنة 1309هـ فبرحها إلى الأستانة. وتقلب هناك في مناصب رفيعة استمر بها إلى أن توفي عمه عبد الإله باشا في ثالث شوال سنة 1326هـ وانتهت نوبة إمارة مكة إليه فوليها(جلالته) سادس شوال من السنة نفسها وأقام يتهيأ للسفر حتى كان يوم 28 شوال، فأبحر قاصداً الحجاز وبلغ جدة في 9 ذي القعدة سنة 1326 فكان ذلك بدء إمارته بمكة.

في نفس الملك حسين قوة وصلابة ليس من السهل التغلب عليهما، وهو عنيد

شديد لا ينقاد بالعنف ويصعب أن ينقاد باللين، وقد ظهرت صفاته هذه بارزة مجسمة منذ ولي إمارة مكة وحط في أم القرى رحاله، فإنه طارد خصومه وتسلم مقاليد الأمور بسهر دائم ويقظة وتحفظ، وأبى أن يمشي مع جماعة الاتحاديين على العمياء فضاق به ذرعهم وأخذوا يتحينون له الفرص للقضاء على نفوذه، ويوحون إلى ولاتهم في الحجاز أن يراقبوه ويعدّوا عليه أنفاسه حتى إنهم عزلوا والياً اسمه أحمد نديم بك، من عقلاء الترك نصب والياً للحجاز وكف عما كان يصنعه غيره من مشاكسة أمير مكة حسين باشا(جلالة الملك اليوم) فلم تطل مدته أكثر من سنة وعزل فعاد إلى الأستانة قبل الحرب العامة. وجاء مكة بعد الحرب ومعه زوجته وولدان له فأكرمه الملك وأنزله في ضيافته وجعل له ما كان يتمتع به في أيام ولايته ما عدا السلطة. وقد اجتمعت به كثيراً ورأيت الملك ينهض ويمشي لاستقباله خطوة أو خطوتين كلما استؤذن له بالدخول عليه اتهموه بموالاة الشريف والعجز عن مقاومته. ولم يكن شيء من ذلك يخفى على الشريف بل كان يزيده حيطة وانتباهاً. ويلوح لي أن اختلافه مع الاتحاديين بدأ منذ خلعوا السلطان عبد الحميد، وقد كان الشريف -وما زال- يثني عليه. ويعدّ في مقدمة مثالب القوم وثوبهم بسلطانهم، وقد حاولوا كثيرا أن ينشئوا فروعاً لحزبهم في مكة وجدة فناوأهم الشريف فأخفقوا.

ولما قامت الحرب العامة على سوقها، ودخلتها الدولة العثمانية، عانى الحجاز أكثر مما عاناه سواه من بلادها، فانقطع الحجاج عن حجهم وسدت أبواب البحر واتسعت فوضى البر وأكل الناس لحوم ولدانهم، كما رأينا في بعض ديار الشام، وقويت شوكة الحزب الاتحادي فنشط في الضغط على الشريف وأعوانه، ورأى الإنكليز تهيؤ الترك والألمان للزحف إلى قناة السويس وغزو مصر فالتمسوا مشغلة لخصومهم، وعلا صراخ بلاد العرب بالشكوى من دواوين الحرب العرفية في سورية والعراق، فمد الإنكليز أيديهم إليهم عن بعد، يوهمونهم العطف والإشفاق ويمنونهم بالإنقاذ والتحرير، وأجالوا نظرات متتابعة سريعة في ما تشتمل عليه جزيرة العرب من قوة، ولم يكونوا يجهلون إن للزعامة في هذه البلاد شأنها، فاندفعوا يوفدون صنائعهم على أمراء الجزيرة، يفاوضون هذا، ويذاكرون ذاك، وتفاقم الخطب على الشريف وبلاده،

فصغى إليهم بسمعه وتناقل الركبان الرسائل بينه وبين السر هنري مكماهون النائب البريطاني الأكبر بمصر فوضعت الشروط ونقشت العهود، وأزمع الشريف الثورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فرع الدوحة المحمدية، وسلالة النسب النبوي، الحسيب النسيب، دولة صاحب المقام الرفيع، الأمير المعظم، السيد الشريف، أمير مكة المكرمة، صاحب السدة العليا، جعله الله حرزاً أميناً للإسلام والمسلمين، بعونه تعالى أمين. وهو دولة الأمير الخليل، الشريف حسين بن علي، أعلى الله مقامه.

قد تلقيت، بيد الاحتفاء والسرور، رقيمكم الكريم المؤرخ في 29 شوال سنة 1333هـ وبه من عباراتكم الودية المحضة، وإخلاصكم ما أورثني رضاء وحبوراً.

وإني متأسف لأنكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق إني قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور، فإن ذلك لم يكن القصد من كتابي قط، ولكني رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية.

ومع ذلك فقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل العامة الحيوية المستعجلة، ولذلك فإني قد أسرعت في إبلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم، وإني بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التي لا أشك في إنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول:

إن ولايتي مرسين واسكندورنة، وأجزاء من بلاد الشام

الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب، لا يمكن أن يقال عربية محضة، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة.

مع هذا التعديل وبدون اعتراض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب، نحن نقبل تلك الحدود.

وأما من خصوص الأقاليم التي تضمها تلك الحدود، حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فإني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية، وأجيب على كتابكم بما يأتي:

1- إنه مع مراعاة التبديلات المذكورة أعلاه، فبريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف باستقلال العرب، وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة.

2-إن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي، وتعترف بوجوب منع التعدي عليها.

3- وعند ما تسمح الظروف، تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها، وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمه ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة.

4- هذا والمفهوم إن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها، وإن المستشارين والموظفين الأوروباويين اللازمين لتشكيل هيأة إدارية قوية، يكونون من الإنكليز.

(هنري مكماهون)

أما ما عاهد الإنكليز الشريف حسيناً عليه، فقد سئل عنه الأمير فيصل في دمشق قبل المناداة به ملكاً على سور- فأجاب بما نصه(نقلا عن عدد 15شباط (فبراير) سنة 1920 من جريدة المفيد الدمشقية):

إن المعاهدات التي يذكرها صاحب الجلالة ما رأيتها وقد طلبت منه مراراً أن يجعلها سلاحاً لي إذا كانت موجودة ولا أعلم ما سبب تأخيره إرسالها لي واكتفاء جلالته بإرسال صورة اتفاقية يقول إنها نسخة من تلك المعاهدة وهذا نصها بحروفها:

(1)- تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها، وتكون حدودها شرقاً من بحر فارس ومن الغرب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض، وشمالا ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة إلى مصبها في بحر فارس، ما عدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود. وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود، بأنها تحل محلها في رعاية وصيانة تلك الحقوق، وتلك الاتفاقيات مع أربابها أميراً كان أو من الأفراد.

(2)- تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي مداخلة كانت، بأي صورة كانت في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية، من أي تعد بأي شكل يكون حتى ولو وقع قيام داخلي من دسائس الأعداء أو من حسد بعض الأمراء فيه.

تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام لحين اندفاعه، وهذه المساعدة في القيامات أو الثورات الداخلية، تكون مدتها محدودة أي لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها المادية.

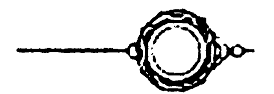
(3)- تكون البصرة تحت أشغال العظمة البريطانية لحينما يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية، ويعين من جانب تلك العظمة مبلغ من النقود يراعي فيه حالة احتياج الحكومة العربية التي هي حكمها قاصرة في حضن بريطانيا، وتلك المبالغ تكون في مقابلة ذلك الأشغال.

(4)- تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب.

(5)- تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين، أو ما هو مناسب من النقاط في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها.

(انتهى)

قال سمو الأمير: ولكني مع الأسف حينما كنت في لوندرة قدمت هذه الصورة إلى رئاسة الوزارة، فأنكرت وجودها كل الإنكار وقالت بأنه لا يوجد عهد ولا كتابة كعهد ينطق بمثل هذا التصريح.



الرصاصة الأولى

الساعة 9 والدقيقة 12 عربية قبيل فجر السبت 9 شعبان سنة 1334هـ.

بينما الجيش التركي في مكة هادئ في ثكنة جرول والقلعة الحميدية، والناس نيام

والحوادث يقظى! وبينما قادة الجيش التركي يحلمون بإيناس الشريف حسين لهم بعد صلاة الجمعة من يوم ليلتهم! وبينما والي الحجاز غارق في نومه بعد أن تلقى خبر جواسيسه بأن الشريف سهر تلك الليلة على عادته في قصر الإمارة، وسرى إلى منزله الساعة الرابعة من الليل فلا جديد هناك. سمع القريبون من القصر طلقة دوى صوتها في ذلك الليل الساجي، وتلاها دوي متتابع من بطن مكة، فنهضوا يكذبون السمع، وانطلقوا يستقصون الخبر.

خرجت الرصاصة الأولى من قصر الإمارة من بندقية الشريف حسين، فلم يبلغ صداها مسامع جيشه الكامن حول حصون الترك وثكنها، حتى اندفع سيل النار من بندقياته، فانتبه الترك مذعورين، وأسرع جندهم إلى المدافع قبل أن تصل إليهم العرب، فأطلقوا القنابل على مصاعد نيران البندقيات.

ولم ينشق فجر ذلك اليوم إلا وجنود الترك محصورون في حصونهم، وقلعة أجياد المشرفة على أحياء مكة ودورها تواصل إلقاء القذائف على كل مكان يتخيل لها أن فيه قوة من العرب، واستمر بها الأمر إلى أن طاشت قذائفها فأرسلتها على غير هدى في كل ناحية من نواحي البلد الأمين، واختصت بالعناية دار الإمارة فاتخذتها هدفاً حتى كانت الساعة الثالثة من الصباح.

كل ذلك والشريف حسين جالس في القصر لا يبالي بما كان أو ما سيكون. وقد أمر بقطع جميع أسلاك البرق والتلفون إلا سلكا بين القصر وثكنة جرول تاركا للقوم سبيلا للتسليم والنجاة وإذا بالتلفون يضرب ورؤساء الجند يسألونه عن الباعث على ما يحدث، فأجابهم منذراً بوجوب الاستسلام. فلم يفعلوا، ودام تبادل النار بين الفريقين إلى المساء. وأحصي ما أطلقوه من القنابل في هذا اليوم بمائتين وثلاثة قذيفة من عيار 50ر7 أصابت بعض المنازل فاخترقت جدرانها ولم تهدم بيتاً واحداً.

ومن أغرب ما يذكر في هذا الباب أن النار استمر انصبابها من أفواه المدافع والبنادق على القصر الهاشمي خمسة وعشرين يوماً، والشريف مثابر على عادته في الجلوس به، لم يغير مجلسه، ولا اختار غيره غرفته الخاصة، والمعروفة حتى الآن باسم(المخلوان) يمكث بها وفي ردهة القصر سحابة النهار والربع الأول من الليل،

يتحدث مع من عنده، ويضع الخطط لإتمام العمل، حتى إن الناظر إلى غرفته(المخلوان) إذا حقق النظر فيها لا يتمالك من الدهشة حين يرى أبواب نوافذها وسقفها ومنصتها، وفي الجميع آثار الشظايا والعيارات النارية التي كانت تتساقط بغير نظام. ولقد دخلت إحدى القنابل غرفته وهو جالس، فمرت على قيد شبر من مجلسه فاخترقت أساس الغرفة، وهو لا يعبأ بها، وأمد لي أحد من حضروا تلك المواقف أن موسيقاه الخاصة لم تنقطع عن العزف في أوقاتها يوماً واحداً وأن قنبلة سقطت عشية يوم بالقرب من العازفين، فانفرط عقدهم وجلين فأمر الشريف بأن يرجعوا إلى عملهم، ولو ماتوا كلهم، فعادوا وأتموا ما بدءوا به تحت خطر القنابل!

وعلمت من ثقة كان بين يديه يومئذ أن تساقط النيران لما اشتد على غرفته جعل يكرر هذه الكلمة(قرّ يا بيت، إنها ميدي ما هي ميدك!) ولهذه الكلمة حادثة معروفة اليوم عند قبائل العرب، وأول من قالها رجل منهم أحاط به جمع من أعدائه وهو في خيمته لا يبالي، ورأى اضطراب عمدان الخيمة من تساقط الرصاص فقالها. فذهبت مثلا. ومعناها: أسكن أيها البيت، فإن ما ترمى به لم يكن إلا لأميد أنا وأضطرب، لا لتميد وتضطرب أنت!

ولم يكن قادة الجند التركي جاهلين بأوقات وجود الشريف في القصر، فكانوا ضحى كل يوم يطلقون على غرفته قنبلة خاصة، ثم يوجهون قذائفهم إلى بقية القصر والبلدة. وأخبرني ثقة إنه كان إذا تأخرت القنبلة عن ميعادها وهو جالس في(المخلوان) يتساءل أمام من حوله: عجباً ما لهؤلاء القوم قد أبطئوا اليوم؟ ألا يزالون نائمين!!

كان الشريف قد هيأ نخبة من أمهر الرماة بعث بهم إلى ذروة جبل(أبي قبيس) يرمون من في القلعة، لأن قمة هذا الجبل تشرف عليها. وأقبلت نجدة من أطراف (جدة) انضمت إلى من في مكة من جند الشريف الذي كان يقوده الأمير زيد(وكان الأميران علي وفيصل يومئذ محاصرين المدينة المنورة. وعبد الله محاصراً الطائف). واشتد الحصار على قلعة(أجياد) حتى اخترقتها قنبلة من أحد جوانبها، فدخل بعض الأعراب من ذلك الثقب، وتبعهم آخرون، والمقيمون بها لا يشعرون. وما هي إلا

دقائق معدودات حتى علا الصوت، وأعمل الواجون من الثقب السيف في الآمنين المطمئنين، فاستسلم هؤلاء، واستولت العرب على القلعة وما فيها يوم الثلاثاء رابع رمضان سنة 1334، وقت ذلك في عضد المحصورين في ثكنة جرول، فسلمت حاميتها يوم الأحد تاسع رمضان، واحتاز الجيش العربي مباني الحكومة كلها.

وكان قيام مكة وجدة في يوم واحد(9 شعبان) ومهاجمة الطائف في اليوم الثاني، والمدينة في اليوم الثالث. ولم يكن عند الشريف مدفع ولا رشاش، بل كان سلاح العرب في بدء الثورة البندق (الرصاص) والسلاح الأبيض.

وبعد الاستيلاء على قلعة أجياد، بعث الشريف ابنه زيداً إلى جدة، فأعان القبائل على التشديد في حصارها، فسلمت حاميتها. وظل عبد الله محاصراً الطائف إلى أن استسلمت حاميتها على ما قدمنا يوم 26 ذي القعدة سنة 1334.

وأما المدينة المنورة فكان القبر النبوي الشريف مانعاً للعرب عن إطلاق القنابل عليها، فلم يزيدوا على أن حصروا قوى الترك بين جدرانها، إلى أن انتهت مؤنهم وخمدت نار الحرب العامة، فاستسلموا ودخلها علي. وتقدم فيصل في حملته إلى الشمال، ثم لحق به زيد، فدخلا دمشق وانتهيا إلى حلب.

وفي سابع ذي الحجة 1334هـ(5 أكتوبر 1916م) تألفت أول وزارة عربية بمكة، وسمي أعضاؤها الوكلاء، ورئيسهم الأمير عليّ ينوب عنه قاضي القضاة الشيخ عبد الله سراج. وتألف في اليوم نفسه مجلس للشيوخ، رئيسه الشيخ محمد صالح الشيبي.

وفي ثاني المحرّم سنة 1335هـ كانت بيعة الشريف(حسين) بالملك في حفلة عظيمة أتت على وصفها جريدة (القبلة) في العدد 22 من سنتها الأولى. وحمل إليه نائب رئيس الوكلاء -الشيخ عبد الله سراج- كتاب البيعة، وهو طويل نشرته القبلة، جاء في ختامه ما نصه بالحرف:

(.. وإننا نبايع جلالة سيدنا ومولانا الحسين بن علي، ملكاً لنا نحن العرب يعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ونقسم له على ذلك يمين الطاعة والإخلاص والانقياد في السر والعلانية، كما أننا نعتبره مرجعاً دينياً لنا، أجمعنا عليه ريثما يقر قرار العالم الإسلامي على رأي يجمعون عليه في شأن الخلافة الإسلامية.

(نبايعك على هذا يا صاحب الجلالة، ونقسم بالله العظيم على طاعتك، والرضى بك والانقياد إليك، في السر والعلانية. ولك علينا في ذلك عهد الله وميثاقه ما أقمت الدين، واجتهدت في ما فيه صلاح العرب والمسلمين "ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً").

وتلي هذا الكتاب على مسمع منه ومن أعيان مكة ووجوهها وغيرهم. وفاه جلالته بخطاب وجيز قال فيه:

> (إني أقسم لكم بالله العظيم إنني لم أرد هذا الأمر الذي تكلفونني به، ولم يخطر على بالي عندما قمت معكم بنهضتنا السعيدة، ولكنني رأيت كما رأيتم أننا أمام خطر عظيم وخطب جسيم ربما قضى علينا القضاء المبرم إذا لم تبادر إلى إزالته.
>
> (إنكم حملتموني أمراً أنا أعرف الناس بما يستلزمه من الجهد، وطال ما قلت إني واحد من جمهور الأمة، أبرم ما يبرمون من حق، وأرفض ما يرفضون من باطل، وأمد يدي لكل من يتفقون على إسناد أمرهم إليه على كتاب الله وسنة رسوله. وإذا كان لا مناص مما أردتموه فإني أشترط عليكم أن تعينوني على أنفسكم، وتساعدوني بآرائكم وأعمالكم في كل ما يحقق آمالنا وآمالكم من الخدمة العامة للعرب والمسلمين..الخ).

وتليت في اليوم الثاني صورة كتاب البيعة في المسجد الحرام، ثم تواردت الكتب بمعناها من الطائف وجدة والمدينة المنورة وجيش الشمال، وأخيراً من العراق وسورية. ولا تزال هذه الكتب(أو المضابط) محفوظة عنده حتى اليوم وفيها من التواقيع ما لا يحصى عدده.

سكنت نأمة الحرب العظمى بانعقاد الهدنة بين الحلفاء وخصومهم يوم 5 صفر سنة 1337 – 11 نوفمبر سنة 1918، وانقلبت كل أمة تعاود النظر في ما بين أيديها من وثائق

علها تجديها النفع في مثل ذلك اليوم. وتثمر كل سياسي قوم يحاجُ ويناضل ويدافع ويقاوم. وتناسي أكثر الحلفاء ما كانوا يخطبون به ود الأمم ويستميلون فيه الممالك إلى نصرتهم، من الدعوة إلى تحرير الشعوب الخاضعة لغيرها والنداء بإنقاذ الأمم الصغيرة من براثن الأمم الكبيرة، فإذا الدكتور ولسن صاحب جمعية الأمم يعض الأصابع من الندم! ولويد جورج الوزير البريطاني تشغله مشاكل العمال وثورات الأيرلنديين وصيحات الهنود ونهضة المصريين عن كل ما أبرم وعقد باسم مليكه وحكومته، وكليمنصو الوزير الفرنسوي يهجر معالجة سياسة قومه مفضلا عليها صيد النمور في غابات الهند، والملك عمانويل يضطرب لخفوق العلم الأحمر في بلاده وأمام عينيه، وفينزيلوس الزعيم اليوناني يضيع بين شعب أثينة وأسرة قسطنطين!

انفجرت براكين العالم بعد خمود بركان الحرب، واستبدل قادة الأمم بثياب العفة والحنان والإخلاص، أبراد الثمرة والقسوة والمكر. فإذا الوجوه غير الوجوه، والقلوب غير القلوب، والإنسان اليوم غير الإنسان بالأمس.

وهناك على شاطئ البحر الأحمر، في تلك البادية، وبين هاتيك الروابي والقلاع، حكومة كانت وليدة الحرب العامة، نشأت تحتاطها المخاوف، وترعرعت تكتنفها المخاطر، يرئسها ملك تاجه عمامته وعرشه مهابته، ليس له ما لسواه من ذوي العروش والتيجان إلا طاعة أهل قطره له، وانقيادهم بين يديه وخوفهم غضبه وتوقيهم سخطه، ذلك هو الملك حسين بن علي، من وقف إلى جانب الحلفاء ثلاث سنين، يحارب من حاربوا، ويوالي من والوا، ينظر إليهم اليوم من وراء حجاب فإذا هم عنه معرضون!

عاهدوه على سورية واستعمروها. وعلى العراق، واحتلوها. وعلى فلسطين وهوّدوها، وعلى الجزيرة وقسموها، وعلى الحجاز وحاولوها. فأعجب-إن كنت تعجب- لموقفه الأخير أمام حلفائه، في الماضي، وأعداء الشعوب الناهضة في الحاضر والمضطرين إلى مجاراة تيار البشر في المستقبل!

يقول الأمير عبد الله [1]:(وما مثل الذين يعترضون عليكم في موالاة حلفائكم إلا

(1) بعث إلى جريدة القبلة من وادي الليمون ونشرته في العدد 28 من السنة الأولى 24 المحرم سنة1335.

كمثل من يحاول الاعتراض على الله في تدبير شؤونه التي يبديها ولا يبتديها). ولعله بعد أن رأى بعينيه ما صار حال العالم إليه، يتراجع قليلا بل يتقهقر طويلا، عن مفاجأة الأسماع بمثل تلك الجرأة على الحق والخلق..!

لم يقف الملك حسين مكتوف اليدين أمام عبث الغرب بهذه البقعة الصغيرة من الشرق، بل احتج، وحاول إسماع الصم صوته، فأنكروا العهود وجحدوا المواثيق، شانهم في كل موقف مع كل أمة تمكنوا من تمزيق شملها وتفريق كلمتها وفصم عراها.

هم يعملون أو سيعملون على إرضائه أو إسكاته، فيؤوّلون ما لا مناص لهم من الاعتراف به من عهودهم، ويتقدمون إليه يحملون تيجاناً خيالية وإمارات وهمية لبعض بنيه، كأن مصلحة العرب هي في أن ينصب بنوه ملوكاً وأمراء، وكأن العرب وفي جملتهم الملك حسين وأبناؤه، ما ثاروا ولا قاتلوا إلا لتتحول ألقاب أفراد فيهم، من شريف إلى أمير، أو من فلان إلى جلالة فلان!

بهذا الزخرف البالي، وبهذه الزيوف المموهة، يعمل الحلفاء على إقناع أليفهم في الموطن الخشن، الملك حسين بن علي، وإيهامه بأنهم ما برحوا له ذاكرين، ولعهودهم حافظين، وما هم بالذاكرين الواعين، ولا الحافظين المراعين.

أنجب الملك حسين أربعة بنين، عرفتهم جميعاً، وخالطتهم، وكانت لي مع بعضهم مواقف، وأنا ذاكرهم على ترتيب أسنانهم تبعاً لقاعدتهم في تقدم الأكبر فالذي يليه، لا يراعون في عملهم هذا ما يراه غيرهم من الاعتبارات فقد ترى الصغير ملكاً والأكبر منه أميراً أو وزيراً، وحينما يتقابلان لا يمنع الصغير تاجه من تقبيل يد الأكبر وإن كان لا يوازيه في شأنه ومكانته.

الأمير علي: أكبر أنجال الملك حسين. وولي عهد المملكة العربية الهاشمية في الحجاز، يعتمد عليه الملك في الشؤون الداخلية المتعلقة بالقبائل والمغازي في البادية. وكانت إليه قيادة الجيش العربي، أيام الثورة، في جهات المدينة المنورة، وهو الآن رئيس مجلس الوكلاء في مكة وأمير المدينة، يتردد بين مكة والمدينة والطائف. في طبعه سكون وأناة، وفي أخلاقه لين وسهولة، وفي نفسه إباء وشرف. قليل الكلام، حسن الإصغاء لجليسه، معتدل القامة، نحيف الجسم، كثير التفكير، أمه وأم فيصل وعبد الله واحدة.

الأمير عبد الله: ثاني أنجال الملك حسين. افتتح الطائف في بدء الثورة وولاه أبوه وكالة الخارجية ثم انتزعها منه، وكان قائد جيش الحجاز في وقعة(تربة) الشهيرة بين الحجازيين والنجديين، نجا فيها بعدد قليل من الضباط وأضاع كل ما كان معه من مال ورجال. ولما نودي بفيصل ملكاً على سورية في دمشق يوم الاثنين 9 مارس(آذار) 1920-19 جمادى الأولى 1338 نادى بعض شبان العراق بعبد الله ملكاً على العراق وهو بمكة. وسيره أبوه منها إلى معان فشرق الأردن وهو مطاع اللسان، له شيء من الإطلاع على الأدبين العربي والتركي، مولع بالمحاجة والمناظرة مدلّه بنفسه فخور، ميال إلى الراحة، مغرم بالشطرنج، ملول لما هو من جدّ الأمور، كثير المزاح مع خاصته، متطرف في ذلك، لا يحبس درهماً، ولا يرمي إلى هدف:

ما قال قولا ودرى قلبه لسانه يجري به والفم!

الأمير فيصل: ثالث أنجال الملك حسين، كان نائباً عن مدينة (جدة) في مجلس النواب العثماني قبل الثورة، ثم كانت له في تهيئة أسبابها يد. وافتتح سورية إلى أقصى حلب فتولى إمارتها، وناب عن أبيه في مجلس الأمم بباريس فتكررت رحلاته إلى أوروبا، ونودي به في دمشق ملكاً على سورية يوم 19 جمادى الأولى سنة 1338 9 -(آذار) سنة 1920. وكانت (ليلة ميسلون) آخر أيام حكمه في سورية. وقد سبقت لنا كلمة عنها، ثم برح ديار الشام إلى إيطاليا ومنها إلى لندن حيث بوحث في ملك العراق، وكان هذا آخر ما نقلته أسلاك البرق إلى مكة ونحن في شعابها.

وفي الأمير(أو الملك) فيصل، دهاء وشجاعة، يتردد في بعض الأمور فيشين حزمه، عصبي المزاج، له قوة على الخطابة واعتلاء منابرها، وفي بيانه ولغته ضعف، يقول فيجمجم[1] ولا يصارح إلا حين تدركه الحدة، بعيد مطامح النفس كثير السهر والتفكير، للجد استيلاء عليه فلا يكاد يهزل طماعيته في أن تكون له مرونة السياسي تحرج مواقفه وتبتعد فيه عن مراميه، لقنته حادثة الشام درساً في حياته السياسية ما إخاله ينساه.

---

(1) يجمجم في الكلام:لم يبن كلامه

الأمير زيد: أصغر أنجال الملك حسين. قاد الثائرين بمكة يوم قيام أبيه، ثم لحق بأخيه فيصل، فدخل معه الشام، وناب عنه في إمارتها حين برحها إلى أوروبا، ولما احتل الفرنسيون دمشق غادرها مع أخيه إلى حيفا ومنها إلى إيطاليا. ونشرت الصحف ازماع أخيه أن يدخله جامعة اكسفورد، فاضطرب جلالة أبيهما لهذا النبأ وأبرق إلى عاصمة بلاد الإنكليز يدعوه إليه، فلم تمض أيام حتى كان بمكة. وهو شاب في مقتبل عمره، يصفه من شهده في مواقع القتال بالبطولة، فيه ذكاء وسرعة انتباه غريبان، للصبي في نفسه أثر يضيع بين نشاط الفتوة ورجحان العقل، وفيه ميل للدرس والتعلم بل شغف وولوع فيهما، صريح مع من يأمن، بعيد عن المواربة، نقاد، يسمي الحق حقاً والباطل باطلاً، يهزل ويجد، في طباعه وأخلاقه نقاء وصفاء، يكره التدجيل والتدليس ويسخر من التعمل والتكلف.

هؤلاء بنو صاحب الجلالة، أجنحته ومعاقد آماله، وثقاته ومفاتيح أقفاله. أطلقهم في الجزيرة، فكان- أو سيكون- لكل منهم نصيبه من جهاده، وسهمه من سعيه، ولهم في إقناعه واستمالته واسترضائه عن أعمالهم طرائق. وربما شذّ أحدهم فخرج عن رأيه في أمر أو حاذق ثم لا يلبث أن يرجع صاغراً[1]، ينتحل الأعذار ويلتمس الأعذار. وهو شديد معهم، متصلب، قاس، صعب. قال الأمير عبد الله: لقد ربيت في حجر والدي، وما أعلمه والله قبلني يوماً، لا طفلاً ولا ناشئاً، ولا قادماً ولا مودعاً.!

الملك حسين أشد الناس محافظة على خطة، ومثابرة على عادة، واسترسالا في سبيل. حدثني أحد من عرفت بالصدق في مكة، فقال: عرفنا سيدنا أميراً وملكاً فإذا هو واحد في إمارته وملكه، أمضى ثماني سنين في دار الإمارة وسنيناً في قصر الحكم، لم يتخلف عن الجلوس للناس إلا يومين اثنين منها، لمرض شديد أصابه، وهو لا ينام أكثر من ست ساعات بل قد تنقص ساعات نومه عن هذا المقدار.

ينهض قبل الفجر فيتوضأ ثم يصلي وربما نزل إلى الكعبة فطاف حولها والناس نيام. وتطلع الشمس وهو في قصره (بيت سيدنا) فيتناول طعام الفطور وتمرّ خيله الخاصة،

---

(1) صاغرا: ذليلا.

فتعرض أمامه وهو يفطر. ولقد قال يوماً: إن منظر هذه الخيل ليعجبني ويروقني حتى لا كاد عند رؤيتها أن أنسى الدنيا وما فيها.

وينزل بعد ذلك من قصره فيركب بغلة أو جواداً ويأتي (دار الحكم) والمسافة بين الدارين قريبة جداً، فيستريح قليلاً في المحلوان، ثم ينهض إلى المجلس العام فيتصدره ويأذن لمن شاء بالدخول، فيتوافد الناس وأكثرهم بل كلهم من البدو لأن الحضر قلّ أن يراجعوه في شؤونهم لمعرفتهم بأساليب مراجعة الحكومة، فيهم يراجعون نائب رئيس الوكلاء الذي هو قاضي القضاة الشيخ عبد الله سراج، أو يراجعون رئيس البلدية أو مدير الشرطة وذلك كله في (سراي الحكومة) على مدخل حارة أجياد. وقد كانت هذه السراي مقر الولاة في أيام الترك.

حضرت يوماً مجلس الملك العام وعنده بدري أكمل حديثه وخرج، فأدخل الحاجب بدوياً آخر تقدم من الملك، فأهوى على يده ثم على ركبته تقبيلاً وتقهقر فجلس في منتصف المكان على الأرض رافعاً إحدى ركبتيه وطاوياً الثانية تحته، وفي يمناه خيزرانة يشير بها وهو يخاطب الملك، فقص قصته وخلاصتها أنه بينما كان يرعى إبله وراء شعب من الشعاب، إذ خرج عليه ثلاثة رجال أرادوا سلبه الإبل، فامتنع فأطلقوا عليه النار من بندقياتهم فأجابهم بمثلها. وتحصن وتحصنوا وانتهت الحادثة باستيلائهم على جملين والنجاة بهما. وكان الملك مصغيا إليه كل الإصغاء وهو طوراً يخاطبه بسعادتك، وتارة بسيدنا وحيناً بضمير المخاطب المفرد والخيزرانة في يده يقلبها ويعبث بها، ولما انتهى صفق الملك بيديه فجاءه سعد (الحاجب) فأمره بأن يذهب به إلى قائم مقام القصر (وهو أحد الأشراف)، وأن يبلغه وجوب إرسال من يقص أثر المعتدين على الشاكي ثم يعلمه النتيجة. فانصرف البدوي بعد أن قبل يد الملك وركبته مرتين.

وهكذا فإن جلالة الملك يمكث في هذا المجلس إلى ما بعد الظهر، ثم يصلي ويتصرف إلى المخلوان، فيتمدد ويرتاح إلى العصر، ثم يأخذ بقبول فريق من الناس، ممن يدعوهم أو يرغب في مذاكرتهم ببعض الشؤون، وإن كان ذلك اليوم موعد وصول البريد المصري خلا جلالته بنفسه يقلب صفحات ما يحمله إليه من صحف ورسائل فشغله ذلك إلى قبيل الغروب. ويصلي المغرب بعد ذلك خلف إمامه، في

المصلى الذي كان قبل الظهر مكان جلوسه للنظر في المظالم واستماع الشكايات.

ويعود بعد الصلاة إلى المخلوان فيأتيه طاهيه الخاص بصينية فيها شيء من مرق اللحم أو الشوربا وأنواع يسيره من الطعام يأكل منها ما تميل إليه نفسه. ونحو الساعة الثانية بعد الغروب يدعو إليه من في غرفة الانتظار من الزوار، فيجلسون عنده نحو ساعتين ثم يخرجون فيصلي العشاء منفرداً أو خلف الإمام، ويسري إلى بيته الخاص حيث ينام.

ذلك ديدنه وشأنه كل يوم. وله في كل حركة من حركات يومه طريقة خاصة. فهو يجيء في الصباح من بيته إلى قصر الحكم راكباً يحف به بضعة من العبيد والخدم ويعود في الليل ماشياً وبين يديه عبدان من عبيده والمضايفي (الحاجب) سعد.

وله في إلقاء يده لمقبليها حركات، يدهش لها من لا يعرف أسرارها ومعانيها. ولا أدري إن كنت أستطيع وصفها أو يخونني البيان، فمن هذه الحركات:

1- أن يلقي بيمناه على العادة المألوفة المعروفة فيقبلها المقبل ويجلس أو يمضي.

2- أن يبسط يده ثم لا يمكن مريج تقبيلها منها بل لا يكاد يلمسها ذلك حتى ينتزعها منه انتزاعاً.

3- أن يبسط يده ولا يجعل لمقبلها سبيلاً إلى غير أصابعها فيقبل الأصابع.

4- أن يلقي يده للمقبل وبينما ذلك آخذ بها في يده، يقبض جلالته بكفه على يد المقبل.

5- أن يمدّ يده جاعلا باطن كفه إلى وجه المقبل فيقبل الباطن.

6- أن يعطي باطن كفه وحينما يشرع هذا بالتقبيل، يقبض جلالته على وجهه بيده.

7- أن يعطي المقبل باطن كفه ثم يقبض على وجهه ويطبع على لحيته قبلة.

8- أن يعطي المقبل باطني كفيه فيأخذ هذا بالتقبيل، بينما جلالته قابض بيديه على وجهه.

9- أن يزيد على الطريقة السابقة قبلة من لحية مقبل يده.

10- أن يجعل يده على ركبته، فيقبلها القادم بادئا باليد ثم بالركبة.

وهناك فروع ثانية منشأها هذه الأصول. وقد يوهم جلالته من يعطيه يده على الطريقة الثانية أو الثالثة، أنه إنما يمنعه تقبيلها احتراماً له أو إكباراً، والحقيقة إن الأولى دليل الكراهية والمقت، والثانية دليل العتب واللوم، كما أن الثالثة والرابعة والخامسة من أدلة الرضى، ويزيد الرضى في السادسة ثم في السابعة والثامنة، وما بعد التاسعة زيادة لمتزيد. أما العاشرة فللبدو ولمن يؤذن له بالدخول من العامة.

ورأيت في الأشراف من يتناول يمين صاحب الجلالة فيقبلها، ثم يتناول اليسرى فيقبلها ثم يرتفع بفمه إلى رأس الملك، فيقبل طرف عمامته ثم ينحدر إلى ركبته فيقبلها، ويتراجع فيجلس حيث يؤمر.

وليس للداخل أن يختار الكرسي الذي يجلس عليه، فإن الملك يكفيه مئونة ذلك، إذ هو يشير إشارة خفية، بيده أو بعينيه، إلى المكان اللائق به، قريباً منه أو بعيداً عنه، على الكرسي أو على المقعد، فيجلس.

وتقديم القهوة للزائرين عادة جارية، ولكن جلالته قد يطلب الشاهي في بعض الليالي فتدور الأكواب على الجلوس جميعاً. ولم أر أحداً من خاصة الملك وأضيافه يطلب الماء في حضرته، بل ربما خرج أحدهم متسللا فشرب وعاد.

وجلالته صاحب الحديث في مجلسه، فهو يفتتح الكلام أدباً أو سياسة أو تاريخا أو فكاهة أو وصفاً لحادثة شهدها أو رحلة رحلها أو عادة غريبة رآها، وكثيراً ما كان يحدثنا بما اتفق له الاطلاع عليه من أحوال اليمن ونجد والجزيرة. وقد يروقه كتاب فينتدب أحد الجالسين لقراءته أو قراءة فصل منه. ويدور على لسانه كثير من آي القرآن الحكيم فربما طلب تفسير آية فينهض أحدنا إلى بعض كتب التفسير مما هو في خزانة غرفته فيراجعه ويحل الإشكال، كذلك يفعل في السيرة النبوية وبعض حوادث التاريخ الإسلامي المشهورة. وفي خزانته هذه نخبة صالحة من كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب.

ولا يستحب لأحد الجالسين عنده أن يقف بغتة حين يريد الانصراف، بل السنة المتبعة في أسرته أن يستمر زواره، يحادثهم ويحادثونه، إلى أن يرغب بانصرافهم، فيصمت صمتاً غير معتاد فيدرك القدماء في مجالسته رغبته بفض المجلس فيغمز بعضهم بعضاً، أو يتطوع أحدهم فيسأل جلالته الاذن بالانصراف، فيجيبه

بكلمة(مرحباً) فينهض الجميع، يقبلون يده الواحد بعد الآخر ويخرجون.

وهو إذا كره إنساناً أو غضب على إنسان لم يسمح بذكره في مجلسه، بل إنه ليسكت المتعرض للكلام عليه قائلا: لا، لا، لا، يا ابني! كفى كفى! ويشير بيده كأنما يدفع شيئا عن وجهه. ويفعل مثل ذلك حين يريد إسكات متكلم في غير ما يروقه.

وهو لا يملّ العمل ولا يسأم الاشتغال في شؤونه وشؤون بلاده، فبابه مفتوح في كل وقت لكاتبه الخاص السيد أحمد السقاف، يأتيه بالرقاع الصغيرة مفتولة محكمة الفتل، فيأخذها منه وينشرها رويداً رويداً، ممعناً في سطورها وكلما قرأ سطراً طواه إلى أن يأتي على آخرها، فيأخذ القلم -والدواة قريبة منه- فيوقع ما يتهيأ له، أو يصلح ما يراه في إنشائها إن كانت(مسودة) ويلقيها إلى الكاتب فيذهب. وقد يعود بها بعد تبييضها فيمضيها جلالته. ويرى بعضهم إن التقارير ترفع إليه على هذه الطريقة، فربما كان في بعض الرقاع ما هو من ذلك النوع.

وجلالته لا يرى للوزارات سلطة، بل أكثر ما يكتبه يوجهه إلى الملوك مباشرة. ولا ينحصر اهتمامه في كبير الأمور بل هو يهتم لصغارها ككبارها. ولقد حدث أن جاءني كتاب من صديق لي في دمشق يخبرني فيه أن الفرنسيين أغلقوا مدرسة الفيحاء الحسينية، وهي مدرسة أهلية للبنات. ويعلل صديقي إغلاقها في أن سببه تسميتها بالحسينية. فقرأت الكتاب على جلالته، فغضب له وأخذ القلم فكتب برقية إلى الملك جورج ولقبه بصاحب الحشمة والجلالة البريطانية لافتاً نظره إلى عمل الفرنسيين في سورية وإغلاقهم مدرسة الفيحاء الحسينية لانتسابها إليه. وأمر بترجمتها فترجمت إلى الفرنسية، فوضعها في ظرف وختمه بيده وإمضائه وبعث به إلى مدير البرق والبريد. ولا أعلم ما كان الجواب.

ويضاف إلى هذا النوع إلقاؤه التبعة في ما يكتبه عنه أحد الأفراد في إحدى البلاد، على الملك المنسوبة إليه تلك البلدة. فهو يعتب على ملك مصر إذا نشرت صحيفة مصرية طعنا في الحجاز، ويعتب على ملك الإنكليز إذا تعرضت صحيفة إنكليزية لانتقاد أمر في الحجاز. يقيس ذلك كله على ما له وحده من النفوذ المطلق في بلاده ورعيته، ويرى للملوك في ممالكهم ما يراه لنفسه من السيطرة على دقيق الأمور

وجليلها، ويعجب من ملوك الغرب كيف يمكنون العمال في بلادهم من الاعتصاب أو الإضراب، بل يخيل إليه أن ذلك ضعف كله من في نفوس القابضين على زمام الأمور هنالك وربما عده جهلاً منهم في السياسة والإدارة، وعمى عن سبيل الأخذ بالحزم والإرهاب والشدة.

وله هوى في تقليد الخلفاء، فتراه يتنكر في بعض الليالي ويطوف أزقة مكة وأسواقها، يتسمع ما يتحدث به أهلها ويبصر ما هم صانعون، وتراه لا يبالي بالأبهة والعظمة والمظاهر بل يؤثر السكون ويظهر الزهادة ويلبس لباس النساك. وفي مكة من حدثني إن عدد من كان يخدمه من العبيد وغيرهم في عهد إمارته كان يفوق ضعفي عدد من يخدمونه اليوم. وقد عرض ذكر ذلك في أحد مجالسه فأشاء إلى ما معناه: كنا نطمح إلى ما هو بعد الإمارة، وكنا نزاحم الولاة، وأما الآن فلا هذا ولا ذاك.

وتتفق له حوادث ما أعلم في التاريخ شاهداً عليها، مثال ذلك: وقفنا عشية يوم لصلاة المغرب معه، وتقدم إمامه، فأقام الصلاة وهمّ بالتكبير، فإذا فتى قد أقبل ملقياً نفسه على قدمي الملك يقبلهما، فنهاه عن عمله وأنهضه. وصلينا جميعاً وخرجنا فجلسنا في غرفة الانتظار والفتى معنا يحمل سبحة طويلة في يده، ورأيت في نفسي قوة تدفعني إلى التحديق به بعد أن سمعت صوته، فجعلت أتساءل في نفسي: من يكون هذا الشابّ، المعتدل القامة، الأبيض الوجه، الأشقر اللحية، المتظاهر بالعبادة، المكثر من التسبيح، المتشبه بالمتصوفة في حركته وسكناته؟؟ كأنني أعرفه، ولكن أين رأيته؟ خانتني الذاكرة، فسألته ممن القادم؟ قال: من أهل الجزائر، وأعقبها بقوله: الله الله! فعجبت لأمره، وعدت فسألته: ومن أين الآن؟ قال: من القسطنطينية.. وعاد إلى التسبيح. فقلت: أما زرت سورية؟ قال: أقمت مدة في بيروت، سبحان الله سبحان الله.. فقلت وأين كنت في بيروت؟ قال: في المدرسة العثمانية، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. وهنا صحوت فقلت: اسمك يا أخي؟ قال أبو الغيث. قلت: البلغيسي؟ فقال: نعم.. ونظر إليّ يملكه العجب. فقلت: اطمئن ولا تعجب، أنا فلان. فقال: لم أعرفك، وهو يعرفني حق المعرفة. فقلت: لا بأس! ودعينا للطعام فأكلنا، ثم جاء إذن الملك بالدخول عليه، فدخلنا، ومضت خمسة أيام وصاحبنا يصلي المغرب ويتعشى ويسمر

معنا وينصرف بعدنا ولا نعلم من أمره شيئاً. وقد سألته عن مكان مبيته وأين يقضي نهاره لأزوره أو يزورني فأخبرني أنه في القصر نفسه، ولك يزد.. وفي الليلة السادسة جاء فابتدأ الكلام على غير عادته وحدّثنا إن جلالة الملك قد أمر بقطع جواز له بالسفر إلى بلاده(الجزائر)، وجعل يكرر الدعاء للملك مبتهجاً مغتبطاً وسافر قبل أن يودعنا أو نودعه. وأنكشف الأمر بعد سفره فعرفت ما أدهشني وراعني.. ذلك أن الملك تناول كتاباً من الأستانة جاءه في الباخرة التي حملت صاحبنا وفيه أن البلغيسي موفد إلى مكة لغاية غير صالحة. فطلبه الملك فقبضت عليه شرطة مكة وهو متعلق بأستار الكعبة، وزج في القبو.. فكان يمكث فيه ليله ونهاره مقيداً مغلول اليدين والرجلين، ويطلق عشية كل يوم فيصلي مع الملك ويتناول الطعام مع خاصته، ويسهر بعض الشطر الأول من الليل في مخلوانه، ثم ينزل به الموكل في حراسته إلى قبر الأحياء وقرارة الشقاء.. إلى أن مرت بجدة باخرة فأمر الملك بإخراجه من أرض الحجاز فأخرج.

ليس في حبس المشتبه به أو المتهم عجب، ولكن العجب كله في ما كان عليه هذا السجين من التقلب كل يوم بين النعيم والجحيم، بين الإكرام والإيلام، بين الحياة والموت، بين الجنة والنار.. من مخلوان الملك إلى سجنه، ومن ضيافته إلى دار نقمته!.. فهذا ما لم أدرك سره، ولم يفتح عليّ بمغزاه، وعلمه عند الله!

أما ما يعتمد عليه الملك حسين في الحجاز فقوتان: إحداهما(القوة النظامية)، والثانية(القوة البدوية) وإليك شيئاً من التفصيل عنهما:

القوة النظامية: تلبس لباس الجند المعروف وتعيش العيشة العسكرية المعروفة، أكثرها من أبناء سورية والعراق، وفيها قليل من اليمانيين والحجازيين، يقودها ضباط فيهم من تلقوا علومهم الحربية في مدارس الترك العثمانية، وفيهم من جعلهم نشاطهم وإقدامهم في ميادين الحرب، أيام الثورة، ضباطاً وقادة. ومرجع هؤلاء وكيل الحربية. ولهم شارات عسكرية انفردت ببعضها حكومة الحجاز وهي:

للملازم الثاني	نجمة
للملازم الأول	نجمتان
للزعيم (اليوزباشي)	ثلاثة نجوم

لوكيل القائد (قدملي يوزباشي)	تاج
للقائد (بيكباشي)	تاج ونجمه
لقائم المقام	تاج ونجمتان
لأمير الاي	تاج وثلاثة نجوم
لأمير اللواء	سيفان ونجمة
للفريق	سيفان ونجمتان
للمشير	سيفان وثلاثة نجوم

ورتبة المشير أرفع الرتب في الحجاز.

والقوة البدوية: تختلف في أوضاع تدريبها واستخدامها وحياتها عن القوة العسكرية، ولها في كل ذلك نظم وأساليب خاصة. فالخدمة العسكرية غير إجبارية في الحجاز وإنما هي من نوع ما يسمونه(التطوع) وليس على الجندي البدوي أن يبيت في ثكنة أو يتمرن في معسكر إلا في أيام الحرب. وعمله في السلم أن يشترك مع من تطوع من أبناء عشيرته في المحافظة على الأمن ضمن حدودهم، حتى إذا حدث حادث فيهم، من تعرض لعابر سبيل أو نهب أو سلب، كانوا هم المسؤولين عنه وعليهم تبعته. ولجلالته في كل عشيرة من عشائر الحجاز جند من هذا النوع يحفظون الأمن في أيام السلم ويلبون الدعوة في أيام الحرب. وطريقة انخراطهم في سلك الجيش أن تكتب أسماؤهم في السجل بمكة، ويعطى كل واحد منهم بندقية ثم يجري له مرتب شهري يقبض في آخر كل شهر نصفه، ويحفظ له الباقي كضمانه على أن لا يفر ولا يتخلف عن الإجابة حين يدعى، وليس لهذه القوة ضباط ولا رتب عسكرية عالية، ولكن الملك يجعل لهم عرفاء ونقباء منهم. وقد رأيت جماعاتهم تفد على مكة في أوائل الشهور تتقدمها الطبول، وفيها الفارس والراجل وصاحب الراحلة، فوزع عليهم المرتبات ويبيتون ليلة على مقربة من القصر، ثم ينقلبون على أعقابهم.

وللملك حسين موسيقى خاصة، كانت للأشراف من أمراء مكة قبله، يقال إنها في شكلها الحاضر قديمة العهد، وسمعت بعضهم ينقل أن أول من كانت له أبو نميّ، وبقيت تعزف لكل من يتولى إمارة البلد الحرام. وهيّ مؤلفة من خمسة طبول وثماني

نقارات وثلاثة مزامير. يحمل كل طبل رجل، وكل نقارتين رجل وكل مزمار رجل، ويصطف هؤلاء الاثنا عشر عازفاً أمام دار الحكم، كالحلقة، يلبسون لعملهم هذا لباساً خاصا أحمر اللون وردياً، ويعزفون عصر كل يوم وعشاء كل ليلة خلا عصر الخميس وليلة الجمعة. وليس في أنغامهم جديد بل إن لهم تلحيناً خاصاً هم مستمرون عليه، محافظون على نبراته ونقراته يتوارثونه عازفاً عن عازف!

ولهذا التلحين ضجة وجلبة، ومن يألف سماعه لا يعدم أن يجد فيه شيئاً لا أسميه طرباً ولكنه أقرب إلى الطرب.

وقد كانت لوالي الحجاز -في أيام الترك- موسيقى عسكرية كغيرها مما في مصر والشام بقيت بمكة حتى الآن، وهي تضرب يومي الثلاثاء والسبت من كل أسبوع أمام بيت الملك قبيل الغروب.

ولأبناء جلالة الملك مع أبيهم أسلوب خاص في المكاتبة. أما هو فيكتب(ولدنا فلان) ويوقع باسمه(حسين) وأما بنوه فكان خطابهم له قبل تمليكه من نوع البرقيتين الآتية صورتاهما بالحرف الواحد كما رأيتهما:

الأولى: من جدة في 10 تشرين الأول 330 (رومية) إلى مكة.

سيدنا وسيد الجميع.

ج- العمور ما عندنا منهم أحد، آل سبيع توجهوا.

المملوك: فيصل

والثانية: من جدة (بالتاريخ السابق).

مستعجلدر. سيدنا وسيد الجميع.

ج- الدرب بعناية الله محفوظ وقصدي الليلة أنتقل على قوس عسى الله يطرحهم في يدينا.

المملوك: فيصل

وأما بعد التمليك فهم يخاطبونه بجلالة ولي النعم، والمنقذ الأعظم، وصاحب الجلالة الهاشمية، وما يشبه ذلك.

وجلالته عناية عظيمة بجريدة القبلة لسان حاله والمعبرة عن آرائه وأفكاره، تداول تحريرها وإدارتها بضعة أدباء معروفين، أولهم السيد محب الدين الخطيب الكاتب القدير، وثانيهم الشيخ فؤاد الخطيب الشاعر الكبير، وثالثهم الشيخ الطيب الساسي من أفاضل المغرب. ولا يزال تحريرها منوطاً بالساسي إلى اليوم. ومديرها الآن الشيخ حسين الصبان من أهل مكة ويرجع إلى أصل مصري. ولجلالة الملك مقالات كثيرة فيها يعرفها قراؤها بأسلوب كتابته الذي لا يتغير ولا يتبدل، وهو كثير الرجوع إلى ما اشتملت عليه مجلداتها من أخبار وأفكار. وله ولوع بمطالعتها والتمثل بأقوالها حتى إنه ليذكر غير القليل من مقالاتها. وطال ما كان ينتهي بنا الحديث إلى موضوع فيقول: كتبت القبلة في هذا، وكان رأيها كذا وإليكم العدد، ثم يأمر بحمل مجلد السنة الأولى أو الثانية أو غيرها إليه، فيؤتى به، فلا يصعب عليه الاهتداء إلى ما يطلب بسرعة عجيبة.

ولا أراني في حاجة لأن أقول إنه هو كل شيء في الحجاز، ومرجع كل أمر دقّ أو جلّ، وليس ما هنالك من موظفين ومستخدمين ووكلاء وشيوخ ومديرين وعسكريين وحكام، إلا أشباحاً وشخوصاً لا سلطان ولا رأي ولا حول ولا قوة، بل هو صاحب الرأي والكلمة في السياسة والإدارة، وفي البدو والحضر. وفي الجند والضباط، وفي المحكمة والسجن، وفي المطبعة والجريدة، وفي البلدية والشرطة، وفي البرق والبريد، وفي المسكن والجباية، وفي كل ما لا يتسع المجال لذكره.

وأثر في نفسه اختلاطه بأذكياء البداة وشعرائهم الفطريين فنظم(الحميني) وهو نوع من شعر البدو، يأتي في بحث(أدب البداة) الكلام عليه وشيء من نظم جلالة الملك فيه. وأظن للملك نظماً من المعروف عندنا، ولكنني لم أطلع على شيء منه ولم يتهيأ لي أن أجرأ على سؤاله أو استنشاده، وإنما أدركت ذلك من وقفة لي معه يوم قدم مكة ابنه الأمير زيد، فقد نظمت قصيدة وصفت فيها ما تكابده سورية من شقاء الاحتلال ووجهت القول في خلالها إلى جلالة الملك فقلت:

يا ابن بنت النبيّ أرهقنا العسـ ـف، فجرد له الحسام الرقيقا

بالذي شـــاد (كبكبـاً) (وثـبيراً) وأحـــاط الهداة (بيتــاً) عتيـقـــا

بالصفا بالحجون بالركن بالكعبة لـب الصـريخ واقـض الحقـوقا!

إن في الشـام أمـة لا تطيق الضيـ ـم تــأبى لها العـلى أن تطيـقـــا!

أوســعـوها تعلــة ووعــوداً وسـقوهــا مـن الخـداع رحيقا!

أنذرونـا بالمـوت ما أعـذب المـ ـوت إذا كـان للحيــاة طـريقـــا!

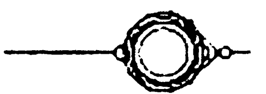
مكـروا جهـدهم بنـا وليـأبـى المـكـر إلا بـأهلـه أن يحيــفـــا

أور في (جِـلّق) الكشـيبـة زنـداً وأقـم للطعـان في (الشـام) سوقاً!

أمطـر القـوم بالصـواعـق حـتى لا تـرى أعـين العـــداة البروقـــا!

إن للبــاطـل اضـطرابا على الحق وعقبـــاء أن يــكـون زهــوقـــا

فكان يقول بعد أكثر أبياتها: لبيك لبيك! ويهتز ويتألم، حتى أشفق عليه مـن شـهده تلك الساعة. وبعد أن أتممتها تلاوة قال: والله لقد هممت أن أجيبك عليها شعراً لـو لا ما يحول دون ذلك من الشواغل الكثيرة.. والتفت إلى رئيس تحريـر جريدتـه(القبلـة) وهو الشيخ الطيب الساسي فقال: أجبه يا شيخ طيب. أجبـه!. وصـدرت القبلـة بعـد يومين وفيها القصيدة والجواب عليها بضعة أبيات من البحـر والقافيـة عنوانـه(لبيـك لبيك) وهو بلا توقيع.



جولة في البادية

يعثر من عاشر البدو ولو قليلا، وخالطهم ولو أياماً، على عادات وتقاليد وخواص لا يتمالك من أن يستغربها أو يستطرفها. وفي بادية الحجاز كثير من هذا النوع كنت أودّ لو جمعت فيه مجلداً كاملا أتحف به قراء هذه الرحلة، فإن البداة هم البداة في كل عـصر وجيل. يتطور المجتمع وتنقلـب الـدول وتكثـر المخترعـات ويتقـدم الإنـسان، وهـم أولئك الحفاة الرعاة الشعث الغبر، تغمـزهم الحـضارة غمـزات فينقـادون خطـوات، وتأبى عليهم طبائعهم إلا أن يعودوا القهقرى، فإذا سـجاياهم سـجاياهم وأخلاقهـم

أخلاقهم كأنما جبلوا من طينة اسمها (سنة الله) لا تحويل لها ولا تبديل وهم على انفرادهم في خلالهم وعاداتهم انفراداً أو شكوا أن يكونوا فيه أمة وحدهم لها ما لها وعليها ما عليها. فقد يشاركهم في بعض مظاهرهم وتقاليدهم من كان كثير الصلة بهم أو قريب العهد في مساكنتهم ومعاشرتهم من أبناء الحواضر المحفوفة بسكان القفار ولا سيما قطان القرى في الحجاز أخص منهم قرويي الطائف، فإن جلهم بداة يسكنون الدور بدل الخيام ويأكلون من خير زروعهم لا من لبن ضروعهم، وفي هؤلاء من يغزو ويغزى كأصحاب المضارب، لا فرق بين الفريقين إلا أن ساكن القرية أحرص على الاشتغال بحرث أرضه واستغلالها، وساكن بيت الوبر أولع بالمغازي واحتياز الأسلاب بقوة الساعد.

ولقد قيدت أشياء مما رأيت من البدو، وما سمعت عن البادية، في جولتي القصيرة هذه، لعل بها ما يحسن نقله، إن لم يكن للتاريخ والتدوين فللفكاهة والمسامرة. ولم أر فائدة في التبويب والتنسيق فأطلقت الحديث مرسلا، ومزت كل خبر بعنوان يدل عليه.

الفراسة

الفراسة في اللغة صدق النظر ومنه حديث(اتقوا فراسة المؤمن). وفي القبائل الكثيرة النزول في الطائف قبيلة تدعى(فهماً) مشهورة بهذه المزية، وقد يستعان بها في حل المعضلات، ومنازلها جنوب تهامة، أخبارها غير قليلة يتناقلها الناس معجبين.

منها أن عنزاً سرقت من فهم وهي صغيرة(يسمونها جفرة، وهي تسمية صحيحة) ومضى على فقدها نحو سنتين إلى أن كانت فتاة فهمية مارة بالطائف يوماً، فأبصرت الجفرة وقد أصبحت عنزاً فعرفتها في حين إنها غير موسومة -ولكل قبيلة وسم خاص تعرف به ماشيتها، إلا أن هذه سرقت صغيرة قبل أن توسم- فأقبلت الفهمية على أصحاب الجفرة تخبرهم بأنها رأتها، فرفعوا القضية إلى حاكم الطائف وهو في ذلك الحين الشريف زيد بن ناصر، فاستحضر من هي عنده فقال إنه اشتراها جفرة وكبرت عنده وولدت. فبحث عن بائعها له فجيء به بعد أيام وهو من سكان البادية، فأخبره بأنها كانت كسبا من فهم في إغارة له عليها، فأمره برد القيمة إلى مشتريها منه، ودفع العنز إلى صاحبها الفهمي، وعجب من معرفة الفهمية لها بعد تلك المدة.

قص الأثر

قص الأثر في اللغة تتبعه ومنه الآية الكريمة(فارتدا على آثارهما قصصاً). وفي القبائل القريبة من الطائف اليوم قبيلتان مشهورتان بمعرفة آثار الناس وغيرهم وهما(وقدان) و(الكباكبة). فأما وقدان فمنازلها على مسيرة ساعة شرقي الطائف إلى الجنوب، وأما الكباكبة فمنازلهم شداد وأطرافها من سفوح جبل كبكب الذي سبقت لنا كلمة عنه. وهم يسمون قص الأثر(الجرة) ويرجعون إلى هاتين القبيلتين في كثير مما يعضل عليهم الاهتداء إليه، وقد تستحضر الحكومة أحدهم في السرقات الخفية، فينظر في أثر قدم السارق، فيؤتى بمن يشتبه بهم فيحدق في آثار أقدامهم فيخرج اللص منهم. وقد أصبح ما يقوله الكباكبة والوقدانيون حجة عند عارفيهم لتكرر صدقهم وتعدد إصابتهم، حتى إنهم في ما يقال لم يعرف عنهم الخطأ مرة!

فمن أخبار الوقدانيين أن تاجراً كان في الطائف يدعى عثمان شافعي أصبح يوم 9 من شهر الحج فرأى دكانه قد خرقت، وأخذ ما فيها من أمتعه ودراهم وحلي، وكان الحاكم الشريف زيد وهو في مكة إذ ذاك، فرفع الرجل قضيته إلى وكيله فأمر بالبحث والتنقيب. أما عثمان صاحب الدكان فعاد من ساعته، ودعا وقدانيا، فجاء ورأى شيئا من أثر القدم فغطاه بوعاء وانصرف إلى السوق يرى أقدام المارة ثم عاد فأطال النظر في الأثر وغطاه، والحكومة تبحث فلم تعثر للسارق على خبر ولم يهتد الوقداني إليه، وحضر الشريف زيد بعد أيام فحدث بالقضية فاهتم لها ولم يظفر بجدوى فيئس صاحب المال. وبعد أن مضى على الحادثة نحو شهرين ولم يبق للأثر أثر، كان الوقداني ماراً في سوق الطائف فرأى رجلا ولمح أثر قدميه(جرّته) فعرف الجرة، وتقدم فتثبت منها وأسرع فنادى شرطياً راجياً منه أن يعرفه باسم الرجل فقال: حسن بن عبيد. فأخبر الشريف زيداً بأن السارق في السوق الآن، فدعا به فجلب فاستنطقه فكان جوابه أنه يوم تاسع ذي الحجة كان في عرفة يلبي مع الحجاج، وأثبت ذلك بشهود ثقات، فكاد الشريف أن يطلق سراحه لولا أن الوقداني أصر على أن هذا هو سارق الدكان دون غيره، فرأى الشريف أن يسجنه ثقة منه بآل وقدان، وشدد عليه فاعترف السارق وأخرج السرقة من مكان دفنها فيه، واتضح أن السرقة كانت قبيل الساعة

الرابعة عربية من الليل، وأنه أسرع من فوره فوصل عرفة صباحاً فاختلط بالحجاج! والمسافة بين عرفة والطائف 11 ساعة للراكب إذا لم يجلس للراحة في المكان..

ومن أخبار الكباكبة أن رجلا من أهل الهدة ضاف عنده جماعة من هذيل، فتظاهر بالنوم معهم حتى وثق من هجوعهم فنهض سارياً كالبرق إلى جبل كبكب، فسرق بندقاً(خرطوشاً) وعاد قبيل طلوع الصباح، ولم يشعر بغيبته أحد ممن كانوا عنده. وأصبح الكبكبي فشعر بفقد البندق فأسرع إلى قص جرة السارق فتعقبها إلى أن بلغ الهدة والمسافة نحو 25 كيلو متراً بين جبل وسهل ووعر، فنظر في الجرّة فاهتدى إليها وأوصلته إلى دار الرجل، فدعا من في الدار قائلا: هذه جرّة من فسئل عن غايته، فحدث بها وقع له فخرجوا جميعا فقبض على السارق بعد أن رأى آثارهم، وقال: هذا غريمي! فشهد الضيوف الهذليون بأنه كان نائما معهم. ورفعت القضية، فبرأت الرجل شهادة أضيافه. ثم عرفت القصة بعد حين.

وأخبار هذه القبائل الثلاث: فهم ووقدان والكباكبة، غريبة كثيرة، كلها على نسق ما تقدم. ولو أن في رجال البوليس السري من يعلم علمهم لاكتشف كثيراً من الجرائم دون ما تعب أو نصب!

الختان في هذيل

من غريب هذيل الحجاز في ختان أبنائهم أنهم يختنون الغلام بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة، وهم يجتمعون قبل الختان فيلعبون بالسيوف ويتسابقون على الأقدام والغلام معهم يكون يوم الختان، فيتقدم المراد ختنه ويأخذ سكينا فيشحذها جيداً، ويكونون صباح ذلك اليوم قد ذبحوا كبشاً على صخرة، ولوثوا الصخرة بدم الكبش، فيأتي الغلام والسكين في يده فيرتقي الصخرة، ويناول الخاتن السكين وهو يقول: طهر يا مطهر وجوّد التطهير!

ويعطي الغلام سيفين يأخذهما بيديه فيبدأ الخاتن يكشط له جلدة العانة كلها إلى موضع الختن - وهي عملية جراحية شديدة الإيلام والخطر- ويظل المختون يلعب بالسيفين في يديه، وينشد قصيدة من شعرهم يحفظها قبل الختان. ويعدون أكبر العار على الفتى المختون أن يتألم أو يتململ فينعتونه بأنه(رخمة) أي ذليل، ومن ظهر عليه

التألم أبت الفتيات أن تتزوج به. وقد يحضر الختان أحد أعداء الفتى أو مزاحميه في زواج فتاة فيحد شفرة له أو رمحا فيخزه في رجله كي يتألم فينسب ألمه إلى جراحة الختان. فإذا وقع لأحدهم هذا صبر على الوخزة ودعا قومه بكل ثبات جأش لرؤية ما علق بقدمه فيخرجونه إن كان شفرة أو غيرها وهو بين يدي الخاتن كأنه لا يشعر بشيء. وكثيراً ما تنشأ الفتن بين القبيلتين أو أفراد القبيلة الواحدة من أجل هذا.

مواكبهم

إذا أرادت طائفة من إحدى القبائل الكبيرة أن تسير في موكب لغزو أو لحاجة، تقدمت الخيالة حاملة الرماح، متنطقة بالشلفات، ثم تتلوها الهجانة(راكبة الهجن وهي نوع من الإبل في اصطلاح البادية معروف) والهجانة لا تحمل الرماح وإنما تربط على ميامن إبلها بندقياتها، ويتوسط الجمع علم القبيلة أو القوم ويبدءون سيرهم بأن يصيح فيهم صائح بكلمات سمعتها ولم أفهمها فيصوتون جميعا كالهتاف ويعلو صوت شاعرهم أو حاديهم قائلا(يا لا لا لا، لا لالي، يالالي) فتعيدها الهجانة، ثم يأخذ بالنشيد على نغمتها ووزنها وهم يرددون ما يجعله كاللازمة من الأنشودة والأغنية، ويتلوهم ضاربو الدفوف من العبيد أو غيرهم، ينقرون على دفوفهم بما يوافق الحداء.

ركوب الرماحة

يسمون الرمح المريش والمريوش، لريش يوضع تحت سنانه. ويعاب على حامل الرمح إذا أراد ركوب فرسه أن يعمد إلى صخر أو حجر فيرتقيه، ليتمكن من اعتلاء الفرس- وأكثر خيلهم لا ركاب لها- وإنما عليه أن يركز الرمح في الأرض بخفة ولباقة، ويتكئ عليه بيمناه أو بيسراه قافزاً إلى الفرس، والرمح في يده، ثم يعتدل في ركوبه مستعينا به إذا جمح جواده أو تقلق وهو فوقه. وقل أن تجد في فرسانهم من لا يقفز إلى ظهر الجواد، فيلصق به لا ركاب له ولا متكأ.

صبرهم على الألم

البدو أصبر الناس على الألم، روى لي في مكة أحد ملازمي الأمير عبد الله أنه خرج يوماً لقتال، حتى إذا اشتبكت القنا بالقنا، أصابت رصاصة بدوياً كان معه، فدخلت من صدغه الأيمن وخرجت من الجانب الأيسر من أنفه وقلعت عينه في مرورها،

فسقط البدوي عن ذلوله حين شعر بالإصابة فشرد ذلوله منه، فالتفت إلى ما حوله محدقاً بالعين الثانية أين ذهب الذلول، حتى رآه، فعدا خلفه كالظبي إلى أن أدركه فركبه وعاد والدم يقطر من وجهه فقال له الأمير متعجبا: أما منعك الألم من رؤية ذلولك والجري وراءه! فقال البدوي: يا أمير يكفيني خسران عيني أتريدني أخسر العين والذلول معا!

الوضع

لا تزال في عرب البادية خاصة القدرة على وضع الأسماء لكل ما يرونه ارتجالا، وقد كنت أعجب من قصة سليمان البستاني مع الأعرابية في بادية العراق حين أرادت الاستغاثة به ورأت على عينيه نظارتين فصاحت به: يا أبا المناظر أدركني!

وبينا أنا جالس يوماً للطعام بمكة وحولي رجال من البادية لم ينزلوا الحواضر إلا قليلا، عرفت ذلك من هيئاتهم ونظراتهم واستغرابهم كل ما يرونه، إذ جيء باللحم والأرز فأكلوا ما شاءوا وهم يحسبونهما كل شيء. فقال لهم عارف بهم: أننا معاشر الحضر لا نأتي بالطعام دفعة واحدة، بل نجعله أنواعاً ونجلبه شيئا فشيئاً، فرفعوا أيديهم عما أمامهم، وجيء بالصحن الثاني فالثالث فقال أحدهم: زي، تجلبون الطعام دلف!-يريد تباعاً- قالها من دون أن يفكر أو يتأمل. وأراها لفظة يحسن بنا أن نجعلها بدلا من الكلمة التركية الشائعة بيننا(قالدر) وشتان ما هما. والدلف في اللغة أن تمشي مشي المقيد.

وعرب الحجاز منذ عرفوا البرقية(التلغراف) سموها السلك على اسم السلك الذي يحملها فهم يقولون(جاءني اليوم سلك من فلان)، وهو كقول العرب الأقدمين(جري النهر) يريدون ماء النهر و(أنبت الربيع البقل) يريدون ماء الربيع. والآية الكريمة(واسأل القرية) أي أهل القرية. فيقال في(جاء في السلك) أي خبر السلك، أرى هذه التسمية أقرب إلى الأذهان من كلمة (البرقية) الشائعة بين أدبائنا منذ سنين كثيرة ولم تدخل حتى الآن في أسماع العامة التي ألفت لفظ التلغراف فلا تعرف غيره.

وأهل الحجاز كافة من بدو وحضر لا يعرفون ما يعرفه أهل الشام ومصر من

كلمتي(بز السيكارة) و(الفم) الاسمين لما توضع فيه لفافة التبغ. بل اسمه عندهم(الممص) وهذه أفضل لولا أنهم يضمون الميم الأولى. كما أنهم لا يفهمون ما نفهمه نحن من كلمة(قلم رصاص) لأنهم يسمونه(المرقم) وهذه التسمية أفضل وأجمل، وهناك كلمات وأسماء كثيرة غير هذه ليت من يتسع له وقته في تلك البقاع، يجمعها ويعرضها على الناس.

الرياح

سمعت عرب الطائف يقسمون الرياح إلى نوعين: الأصائل، والأركان. ويعنون بالأصائل الرياح التي تخرج من إحدى الجهات(الأصلية) بالشرق والغرب والجنوب والشمال. ويعنون بالأركان الرياح التي تخرج من زوايا الجهات الأربع.

فتقسم الرياح عندهم على هذا إلى ثمان، على الشكل الآتي:

ركن شرق ركن جنوب ركن شمال ركن غرب

ويسمون رياح الأركان بالنكباء، وهي مؤذية، يخشونها وأما الأصائل فمنعشة نافعة للجيم والنبات.

ناقة الأعرابي

من أجمل ما سمعت البداة يحلفون به قولهم(وحياة نياقي) يلفظون القاف كافا معقودة كما يلفظها سائر أهل الحجاز والعراق. وهذه اليمين عندهم من أشد الإيمان، تعرف منها منزلة الناقة في عين الأعرابي!

الثلاث البيض

الثلاث البيض مقدسة عند عرب البادية يستبيحون دم من يمسها أو ينكص بها، وهي كما يسمونها: الضيف السارح، والطنب السابح، وخوي الجنب.

فالضيف السارح: الضيف الذي نزل على أحدهم وأكل عنده وسرح، فإن قتله أحد في طريقه وجب على مضيفه أن يأخذ بثأره، فيقتل قاتله، أو يقتل أحد أقرباء القاتل، غدراً أو مقابلة، أو على أي شكل كان. ولا يؤاخذه مؤاخذ.

والطنب السابح: يعنون به طنب الخيمة الممدود، وهو كناية عن الجار الملازم لجاره

ملازمة الطنب(وهو حبل الخباء) للخيمة. يعنون بذلك وجوب المحافظة على الجار والدفاع عنه والأخذ بثأره إن قتل، ولا يؤاخذ الجار إذا قتل قاتل جاره، ولا دية عليه.

وخوي الجنب: الرفيق وعندهم أن من سار معه البدوي سبع خطوات أصبح (خويه)، ووجب عليه أن يقاتل معه ويحميه ولو كان قاتل أخ له.

ولهم عناية عظيمة، وأنظمة خاصة، في الثلاث البيض، منها أن من خفرت ذمته بأن قتل له جار أو ضيف أو خوي(مؤاخ) وأعياه الوصول إلى القاتل ليقتله به أو أعجزه الأخذ بثأره، رفع شكواه إلى كبير عشيرته، فإن كان القاتل من قبيلة أخرى ذهبوا إلى تلك القبيلة وأخبروا شيوخها بالأمر، طالبين منهم أن يساعدوهم على(النقا) وهو عندهم الأخذ بالثأر، وعلى الشيوخ أن يقدموا لهم القاتل أو أحد أقربائه فيقتلوه به أمامهم، ثم يعود الآخذون بالثأر، فيدعون أشياخ تلك القبيلة ويقيمون لهم وليمة، ويرفعون أعلاماً بيضاً خاصة معروفة لديهم، إشارة إلى أن هذه القبيلة بيض الله وجهها قد أعانتهم على الاحتفاظ بإحدى الثلاث البيض. ومتى جاء موسم الحج يقف أحدهم في عرفات فيسمي تلك القبيلة بأعلى صوته ويحييها على وفائها. وكذلك إن كان القاتل من قبيلة المضيف فإنه يحدث شيوخ قبيلته بالخبر، وعلى أهل القاتل أن يحضروه ليقتل أمامهم أو يحضروا أحد أقربائه ليقتل بدلا عنه. وكثيراً ما يقتله أهله افتخاراً بأنهم يحافظون على عهود الثلاث البيض.

وقد يتبادر إلى الذهن أن المقصود بالثلاث البيض هو الخوي أو الضيف أو الجار من أبناء الحضر. وإنما هي عامة شاملة لكل محتم أو لاجئ من أي قبيل كان، حضريا أو بدوياً.

ومن قواعدهم أن الضيف السارح لا تصح عليه هذه التسمية ما لم ينزل ويأكل من طعام المضيف ولو لقيمات من الخبز(ويسمونه العيش). أما من جاء فطلب ماء أو لبناً(حليباً) فشرب الماء أو الحليب وسرح، فلا يعدونه ضيفا ولا يعنون بشأنه بعد مفارقته لهم.

ولشعرائهم في الثلاث البيض والفخر بالاحتفاظ بها، أشعار رقيقة المعاني منها قول شاعر من قبيلة الثبتة(وهي فخذ من عتيبة):

يا البيض لا لأحد صبحه ما مشيتي ولا مشيتي من بلاد اليا بلاد
والبيض قال اللي نقوا، وأنا الثبيتي والمردفة ما هي كما وسق الشداد
ومعناه:

أيتها النسوة البيض لولا حد هذه الشفرة(وهو يسمي شفرته أو شلفته صبحة)، لم تستطيعي أن تمشي من بلاد إلى بلاد، ولي فأل من وصفكن بالبيض، فإن البيض تبشر بأنها فأل الذين يأخذون بالثأر، وأنا الثبيتي الذي تعرفنه. وليس آخر الرحل كمنتصفه: أي ليس كل الرجال سواء! -والمردفة آخر الرحل الذي يعلوه المزدوف، ووسق الشداد وسط الرحل-

اليد اليمنى

للعرب عادة هي أن لا يجوز لأحدهم تقديم شيء من طعام أو شراب إلى أحد بغير اليد اليمنى. واتفق أننا مررنا برجل من كبارهم على مقربة من الطائف فاحتفى بنا وأكرمنا بالقهوة والشاهي، فنهض أحدنا ينوب عنه في تقديم الفناجيل(وهي الفناجين عندنا ويسمون الفنجان الفنجال)، فأبى مضيفنا إلا أن يكون هو الساقي لنا، فأصررنا على أن يكون أحدنا فامتثل. وتقدم رفيقنا فأخذ الإبريق بيمناه والفناجين بيسراه(كما هي العادة في أكثر البلاد لسهولة الصب باليمين) فأنكر عليه صاحب البيت عمله، وقال: إن العرب لا تسقي باليسار وإنما تحمل الإبريق بيسارها وتقدم الفنجان بيمينها.

الأوهام

الخرافات والأوهام قليلة الشيوع في بادية الحجاز، وهم لا يعرفون ما يقوله عوام سورية والعراق وغيرهما عند خسوف القمر وكسوف الشمس من ابتلاع الحوت!

وقد خسف القمر ليلة ونحن خارج الطائف على مقربة منه، وقد جلسنا مع أحدهم فجرى حديث القمر لنرى ما رأيه فيه، فلم يكترث ولم يهتم، بل قال:(أظنه تحول عن مركزه)!

ولم نسمع أثراً للضجة التي تقوم في بلادنا عادة عند وقوع مثل هذا الحادث، بل خسف القمر خسوفاً أقرب إلى الكليّ وعاد إلى حاله الطبيعية بعد ساعتين، ولم يتحدث

بشأنه أحد غير من هناك من أبناء العراق وسورية.

شجعانهم

سألت بعض العارفين بأخبار القبائل عن شجع عتيبة وثقيف اليوم، فقالوا: ضاعت الشجاعة بعد وجود البندق!

قلت: فهلا يمتاز في الحيين أحد عن الآخر بإقدامه؟ قالوا: بلى، إن كنت تريد ثبات القلب في الوقائع ففي القومين عدد كبير!

وتابعت البحث فعلمت أن أولئك الذين تضرب بهم العرب أمثالها في العصر الحاضر أكثرهم قد ماتوا. منهم فاجر بن شليويح من قبيلة الروقه(من عتيبة) روى لي من سمعه يعدّ أسماء من يذكرهم من قتلاه فإذا هم اثنان وستون. ومات قتيلا في إحدى غزواته سنة 1335هـ.

ومنهم ناصر بن عقيل من الدعاجين(من عتيبة) قتلته قحطان نحو سنة 1330هـ.

ابن حميد المقاطي

من أشهر فرسان العرب ودهاتهم في العصر الأخير محمد بن هندي بن حميد المقاطي(بالكاف المعقودة كسائر القافات)، من قبيلة المقطة (وهي قبيلة واسعة الديار تمتد منازلها من شمال تهامة إلى قرب نجد) وهو من سكان الغطغط بين نجد والحجاز.

كان فارس عتيبة في تلك الأنحاء وكبيرها مات سنة 1333هـ، هوى به بعيره فقتله.

لم ينفرد بالشجاعة بل عرف أيضا بإصابة الرأي ورجاحة الحلم وهيبة المنظر.

أخبرني رجل أدركه وعرفه، قال: زار ابن حميد والدي يوماً فجعلت أطيل النظر إلى جراح رأيتها في عنقه وصدره، فاستدناني منه فدنوت فكشف قميصه وقال: أنظر، فنظرت فإذا جراح هائلة عددتها ستة وثلاثين كلها قد اندملت.

وكان مع الشريف(الملك) حسين في رحلته إلى نجد على أثر توليه إمارة مكة، فأنعم عليه ببندقيتين فحملهما إلى بعض أصحابه ينظر إليهما ويعجب منهما، إذ لم يكن سلاحه غير السيف والرمح. فأخذ أصحابه يعلمونه كيف يطلق البندق (الرصاص) وتناولهما بين يديه يطيل التأمل فيهما ساعة، ثم ألقاهما وقال: لا حاجة لي بهذا!

وله في ذم البندقيات ويسمونها(الموارت) و(المواريت) جمع مرتينه:

ضرب الموارت ما بها نوماس[1] حذقة شرود من بعيد

عليّ قضب عنانها [2]والرأس والله يدبر ما يريد

عليّ باللي تبعد المرواس والعمر لازم إنه يبيد!

فضب العنان في لغتهم إمساكه جيداً. والمرواس ميدان الخيل وشوط جريهل. يقول: ما في ضرب البندقيات من فخر فإنه إطلاق شرود من مكان بعيد، وإنما علي أن أضبط عنان فرسي ورأسها ويدبر الله ما يريد، عليّ بالفرس التي توسع الميدان، وأما العمر فلا بد من أن يبيد.

من أخباره

أخبار ابن حميد ووقائعه كثيرة، تذكرنا بما كانوا يحدثون به عن شجعان العرب في الجاهلية. وكانت بينه وبين قبائل قحطان في أطراف نجد عداوة متأصلة، حتى إنهم نذروا مائة ناقة لمن يأتيهم به قتيلا أو جريحا أو أسيراً.

فمن وقائعه معهم أنه سرى ليلة في نحو ثلاثين من رجاله في أراضي قحطان، فدهمهم نحو خمسين خيالاً قحطانيين فلم يأبه لهم وأشار إلى من معه أن يردوهم، فارتد فرسانه للقتال وظل في سيره لا يبالي بالأمر، راكبا ذلولا وسلاحه مع عبد له يقود فرسه خلف الذلول. واشتد القتال وثبت القحطانيون فوهن المقاطيون(جماعة ابن حميد) وقتل منهم عدد، فانهزموا لا يلوون على شيء، وغنم مقاتلوهم كل ما معهم من الإبل والحمول وخيل القتلى. والتفت هو فرأى تشتت أصحابه فنادى عبده، فلم يجده، وكان قد ركب الفرس وذهب يقاتل، فحار ابن حميد في أمره لا فرس له ولا سلاح في يده وأدركته الخيل بوابل رصاصها، فقتل ذلوله[3]، فترجل وابتدر مختبئا اختفى فيه عن العيون، حتى هدأت ثائرة القوم فتغلغل في الجمع وقد تلثم يريد أن

---

(1) ضرب الموارت ما بها نوماس: الموارت هي البندقية والنوماس الحياء والخجل.

(2) قضب عنانها: الإمساك بالرسن(الحبل الذي تقاد به الخيل).

(3) الذلول: الجمل.

يسمع أخبار أصحابه أين ذهبوا، فاعترضه شاب من القحطانيين ودعاه باسمه، خافت الصوت، فلم يجبه ابن حميد فكرر النداء ثانية وفي الثالثة قال: يا ابن حميد أنت آمن! فأقبل عليه حينئذ فعرفه وكانت لابن حميد يد على هذا الشاب منذ سنين، فدله القحطاني على الموضع الذي لجأت إليه خيالته وأعطاه ناقته وقال اسلم بروحك، فخرج ابن حميد راكبا فلم يبتعد حتى اعترضه رجل من قحطان عرفه فدنا منه راجلا وصاح مبتهجاً: ابن حميد يا آل قحطان! وضرب ابن حميد بشلفة أصابت يده اليسرى فسلها ابن حميد باليمنى وضرب بها الرجل فقتله وسلبه شلفتيه ومشى مسلخا[1] لا يبالي حتى التقى بمن بقي من رجاله، فركب فرساً وأخذ سيفاً وانتقى اثنى عشر فارساً، في خيولهم قوة، وقسمهم ثلاثة أقسام أربعة منهم معه، وأربعة يغيرون على القوم من اليمين وأربعة يغيرون من اليسار وأمر هؤلاء الثمانية أن يتريثوا حتى يسمعوا صوته في الجمع. وأغار هو، وعلا في القحطانيين صوت ابن حميد فلم يصبروا غير قليل، وتفرقوا ناجين بأرواحهم وقتل طائفة منهم، واستعاد أمواله وسلبهم أموالهم واتجه حذراً حتى بلغ حدود عتيبة فأمن.

وكان ابن حميد إذا أراد الكلام نطق به متمهلا لا يفوه بالكلمة قبل التأمل بها. ولا يصنع هذا تكلفا بل هو طبيعة فيه.

. تحيتهم

التحية فيما بينهم تختلف صيغتها، وأكثر ما يقولونه لا غريب فيه، أما تحيتهم لذوي المكانة الرفيعة، فهم إذا أقبل أحدهم على الملك قبل يده وركبته، وإذا أراد تحية أحد الأمراء قبل يده وربما قبل ركبته. وأما تحيتهم للأشراف فقد رأيت بعضهم حين يرون شريفا يريدون السلام عليه، يتقدمون الواحد يتلوه الآخر فيبدأ الرجل منهم يقبل لحية الشريف من الجانبين، ثم يقبل عقاله فوق جبهته ثم رأسه، وينحني بعد ذلك على يده فيقبلها، ويبتعد. ويعقبه الثاني وهلم جرا.

---

(1) مسلخ: عاري.

ومن قواعدهم أن راكب ما دون الفرس والبغل إذا أراد السلام على راكب الفرس يبتدئه قائلا: كرمت، السلام عليكم، وإن كانوا جماعة قال: كرمتم، السلام عليكم، وبعضهم يكتفي بلفظ السلام فقط. ويريدون بلفظ كرمت أو كرمتم الاعتذار عن أنه غير مساو لراكب الفرس أو ما يماثلها.

وإذا أراد أحدهم النهوض من عند آخر قال الناهض للباقي مودعا:(في أمان الله) فيجيبه الآخر (مرحبا). ولا يختص عرب البادية بهذه بل تجدها في الحجاز كله، وهي أفضل معنى من قولنا في سورية (خاطركم) والجواب(مع السلامة) فإن قول المودع(في أمان الله) يريد أن يقول أدعك في أمان الله، وقول المجيب(مرحبا) يريد: تجد سعة ورحبا حيث اتجهت.

القضاء

من تتبع أخبار القضاء في بادية الحجاز وعرف طرائفه وأساليبه أعجب به كل الإعجاب، ورأى انتظاما محكماً وقوانين متوارثة، تتفق مع عاداتهم وأخلاقهم وسيرهم في حياتهم الاجتماعية. ومن الخطأ أن يظن ظان أن قبائل العرب في البادية مطلقو السراح، ملقى حبل كل منهم على غاربه، بل إن هناك محاكم وقضاة أشبه بمحاكم الحضر وقضائهم، فترى القاضي الابتدائي والاستئنائي والتمييزي كما نسميه نحن، وهم لا يعرفون هذه الأسماء، إنما يعرفون أن هذا القاضي دون فلان مكانه، وفلاناً دون فلان، فربما رجعوا إلى الأول في القضية فإن فصل بينهم بما يرضي الفريقين ويقنعهما اكتفوا به، وإلا رفعوا القضية إلى من هو أرفع منه، فإن لم يرو غليلهم قصدوا القاضي الأعلى(وهو كالتمييز) لا يريدون له حكماً ولا يعدلون عما يقضي به أرضاهم أو أغضبهم.

طريقة المحاكمة

وطريقة المحاكمة في القبائل أن يتقدم المتداعون إلى القاضي، فيقدم له كل من الخصمين شيئا كخنجر (جنبية) أو بندقية أو بندق(رصاص) وقلّ فيهم من يقدم الدراهم لأنهم لا يرونها جديرة بمقام القاضي. وبعد ذلك يدنو أحد الخصمين أو النائب على أحد الفريقين، فيرفع قضيته ويذكر ماله من الحق وأدلته عليه ويسمي شهوده. وبعد انتهائه يدنو الثاني فيدافع عن نفسه بما يكون لديه من الحجج والبراهين

ويبدأ القاضي بعد أن يسمع أقوالهما، فيسأل أسئلة تتعلق بموضوع القضية حتى يتبين له الحق فيعتدل، ويقول: وضح الصواب -أو حصحص الحق- وقع مثل قضيتكما هذه في زمن فلان فقضى فلان بكذا، ووقع مثلها في زمن فلان فقضى فلان بكذا وأنا أقضي بينكما بها قضيا به، ويفوه بحكمه الحاسم للخلاف.

ولا يقبل من القاضي حكمه ما لم يذكر للحادثة نظيرين من حوادث العرب، ويؤيد الحكم بمثالين من الوقائع الماضية وعندها يأخذ المحكوم له ما قدمه إلى القاضي خنجراً أو غيره، ويأخذ القاضي ما جاء به المحكوم عليه كنفقات محاكمة أو أجرة.

والأجدر بالقاضي عندهم إذا تكلم، أن يلتزم السجع في كلامه، فلا ينحط إلى درجة العامة بل يرتفع عنها، ليكون لقوله التأثير المطلوب في المتداعين..

قضاة عتيبة وثقيف

قبائل عتيبة كلها ترجع في قضائها الأخير (التمييز) إلى آل هليل، وهم قبيلة منهم تتداول القضاء بالإرث، لا يدرس أحدهم الحقوق في الجامعات ولا الكليات بل يتفقه في بدء نشأته بشيء من علوم الدين، ثم يتلقى أخبار القضاة عن أبيه أو عمه القاضي، ويصغي إلى أحاديث القضاء فيحفظ كثيراً من الوقائع أو الشواهد التاريخية القضائية عندهم، حتى إذا انتهى إليه الأمر كان حلالا للمشكلات كشافاً للمعضلات. وقضاء عتيبة الأعلى في بادية الحجاز منحصر اليوم بالشيخ تركي بن هليل، وقوله القطع. وفي قبائلها عدة قضاة تختلف درجاتهم ولا يرجع إلى أحد فيهم بعد ابن هليل، وقد يماثله في درجته ابن دخين وهو من قبيلة الثبتة إحدى بطون عتيبة، ولكن بني هليل أوسع شهرة وأكثر قصاداً.

وأما ثقيف فقد أصاب رابطتها شيء من الوهن على أثر شحناء قامت بين بعض فروعها فهي تماد كل قبيلة منها، ترجع إلى شيخها وربما بلغ عدد شيوخ القضاء فيها الآن خمسة عشر شيخاً.

الشعر في المحاكمة

كثيراً ما يتكلم المترافعان بالسجع أو بالشعر، فأما النثر فأمثلته غير قليلة، وأما الشعر فإليك نبذة منه:

اختصم ثلاثة رجال من ثقيف أحدهم يدعى حمدان القمش والثاني ديبان والثالث نافع، في قضية، ثم انحاز نافع إلى رأي ديبان فذهب حمدان وديبان إلى الشريف فواز بن ناصر وهو في الطائف يرفعان إليه أمرهما، فلما سألهما عن الشأن تقدم ديبان فقال مرتجلا:

يا سيدي أنا جيتك أشكي واهمّ في محضرك أبكي!
منقوص [1]، والمنقوص منكي إليا[2] قرع [3]من غير صايب[4]

فأجاب حمدان:

يا سيدي ديبان علكي![5] يبغى العرب يغدون هلكي
من دون حوض الحق مركي[6] وميراد[7] له شباً وشايب!

فقال ديبان:

ولد القمش بالزور يحكي وبوه وهابي وشركي
يبغي الرضى يمشي بسمكي![8] وفي الحق [9]أخدنا بالنهايب[10]

فقال حمدان:

نافع رضي وأعطيت ملكي وأصبحت ويا القوم شبكي
بالملح [11]والمصبوب[12] سبك وعاننا الله في الغلايب![13]

---

(1) منقوص:من سلب حقه.
(2) واليا:إذا.
(3) قرع : أنذر.
(4) غير صايب: بغير حق.
(5) علكي:متعلل ومنحرف عن الحق.
(6) مركي: أي متكي ومستند على غير الحق.
(7) ميراد له :أي مع ذلك الحوض الذي هو مورد الشيب والشبان.والميراد: المورد.
(8) السمكي : نوع من النقود الجاوية.
(9) في الحق: في الحقيقة.
(10) اخدنا بالنهايب:أي سرقنا ونهبنا.
(11) الملح: هو البارود كما يسمونه.
(12) المصبوب :الرصاص.
(13) السبك: نوع من الرصاص- الغلايب: في التغلب عليهم لأي المعركة.

قال راوي الحديث: فأمرهما الشريف أن يجلسا فجلسا وقد سر منهما، ثم أصلح بينهما وأجازهما بجائزة حسنة.

القسم في المحاكمة

تختلف نصوص الأقسام وأشكالها عند عرب البادية في محاكماتهم. فمن أشكالها أن يتحاكم المترافعان فمن أنكر كانت اليمين عليه طبقا لما في الشريعة السمحاء، ومنها أن تكون القضية تتعلق بأشخاص متعددين، كقبيلة أو فرع من قبيلة، فيقف خمسة وعشرون رجلا منها، على شكل هلالي يتقدمهم قليلا كبيرهم، فيقسم أولهم قائلا(والله العظيم)، ويعيدها الثاني (والله العظيم) فالثالث والرابع إلى أن ينتهوا كلهم، ولا يبقى غير ذلك المتقدم. فإذا وصل إليه المحلف زاد على قولهم (والله العظيم) قائلا: إن القضية كيت وكيت.

هذا إن كانوا متفقين على شهادة أو فكرة واحدة، وأما إن كانوا مختلفين فينقسمون ويحلف كل منهم على ما رأى أو ما علم.

وأما نصوص الأقسام عندهم فأكثرها مسجع فصيح. فقد يقول أحدهم نافيا ما أسند إليه: (والله الواحد القهار، ما أنا لهذه الدعوى خبار) وقد يقول في تبرئة نفسه: (بحق باري البرية، قاطع المال والذرية، أن ذمتي من هذا برية) أي بريئة، وإن كان يتكلم عن جماعة قال: (إن ذمتنا من هذا برية).

الإمارة في شمر

من غريب ما سمعته عن عشيرة شمر وهي أكبر عشيرة في نجد كالرولة في بادية الشام، إن أميرها إذا قتل أو مات أسرع الناس إلى صعود منبر منصوب في إحدى بقاع نجد يسمونه (المنبر) فأول من يصل إليه، ويتمكن من صعوده ينادي بأعلى صوته: يا ناس! يا بني شمر! مات الأمير! الحكم لي!- فيولونه إمارتهم ولو كان من أضعف بطونهم، ومن عصاه يقتل بلا دية ولا قود. ولم أتثبت من صحة هذا النبأ، لما بيني وبين نجد من البعد.

يحاربون عراة

رأيت البدو يبالغون في العري أحياناً فظننت ذلك بادئ الأمر لشدة الحرّ في البادية، ثم علمت من خبرهم عجباً!

يعتقد ابن البادية إن الرصاص لا يقتله إذا دخل جسمه، لأن أطباءهم يخرجون الرمية من الأضلاع بمهارة اعتادوها تتحملها أجسامهم، ويرى أن الرصاصة إذا أصابته وكان عليه ثوب أدخلت معها قطعة من ثوبه في جسده، فإذا أخرجت البندقية بقيت القطعة الملتهبة من الثوب فتتعفن وتمرضه ثم تقتله، فلهذا يفضلون العري إذا رحلوا محتاطين لقتال ينشب بينهم وبين أحد في سبيلهم. أما إذا أرادوا اقتحام المعركة فإنهم يتجردون من القميص ويستتر أكثرهم بقطعة ضيقة من القماش يربط بها وسطه ويضع فيها مقدارا يسيرا من الأرز، حتى إذا طال أمد القتال واشتد جوعه أخرج شيئا منه وهو وراء مترسه فيأكله نيئا ويطحنه بأضراسه.

الحمى

قرأت في (إتحاف فضلاء الزمن) نبذة هذا مجملها:

.. وفي 11 شوال سنة 1339هـ حدث أن فخذا من عتيبة يقال لهم الثبتة منازلهم قرب الطائف نزلوا بالحوبة وهي حمى لآل طويرق من ثقيف، فشكا الطويرقيون أمرهم إلى الحاكم فركب ومعه خيال من الترك وعبد، فلما وصل إليهم سألهم عن نزولهم في حمى طويرق فاعتذروا بأنهم لم يعلموه حمى ولو عرفوا لتجنبوه. فقبل عذرهم وحل عندهم ضيفا وشرب قهوتهم على أمل أن يحل القضية صلحا. واتفق أن عبده اعتدى على بدوي منهم، فقتل البدوي، فنهض أخ له فقتل العبد واتسع الحرق حتى اضطر أمير مكة يومئذ الأمير عبد الله أن يحضر إلى الطائف فجاءوا وأصلح ذات البين.

قال صاحب الإتحاف: والحمى في عرفهم أن القبيلة من العرب تأتي إلى إحدى الجهات وتبذر فيها الحنطة أو الشعير، فتكون تلك الأرض حمى لها لا يمسها أحد غيرها ما دامت زروعها مقبلة، فإذا أدبرت المزارع أبيحت الأرض ويسميها بعضهم (الركيزة).

حفاة

البدوي لا يلبس الحذاء ولا يستطيع ويحق له ذلك لكثرة جبال هذه البلاد ومنحدراتها ومزالقها، فهو حاف أبداً ومثله المرأة البدوية، وقد كانوا يعجبون منا جد العجب إذا رأونا نصعد جبلا أو نهبط من مرتفع وفي أرجلنا أحذية الحضر (الكنادر أو البوطات) فيطيلون التأمل فيما تحمل أقدامنا!

واعترضني أحدهم في انحدارنا من جبل كرا فقال: كيف تمشون بهذا؟ قلت: تعودنا. قال: وتركضون؟ قلت: وكيف لا؟ قال: تسابق؟.. وشمر عن ساقيه فقلت: أما هذا فلا!

ألوان إبلهم

البدو هنا لا يلفظون همزة الإبل، يقولون (البل). وإبلهم منها ذات اللون المعروف الضارب إلى الحمرة ويسمونها (الحمرا) ومنها نوع يضرب إلى البياض ويسمونها (المغاتير)، ومنها ما يضرب إلى السواد أو هو أسود حالك كالغراب، ويسمونها (الدهاميم) وهي قليلة في بادية الحجاز لم أرها. ولا يكون البعير الواحد ذا لونين بل هو ذو لون واحد. وقد شوهد جنس من الإبل غريب جيء به إلى الملك بعد النهضة، مرقش، يشبه في لونه بقر الوحش، أو النمر، غير إن بقعة كبيرة وليس في الحجاز شيء منه، وقد شغلتهم الحرب عن توليده في باديتهم.

أنواعها

والإبل هنا نوعان: جبلية وسهلية. والأولى أشد وأصبر على الجوع والظمأ وهي دون الثانية جسوما وضخامة، ولكنها أصلب وأحمل. وأكثر الإبل في بادية مكة من النوع الأول القوي. ومن أمثالهم (القوة في القلوب لا في الجنوب) يريدون أن القوة ليست في ضخامة الجسم وعرض الجوانب.

الأركيات

في بادية مكة نوع غريب من الإبل يسمونه(الأركيات) أكثر ما تقتات به الأراك وهو عيدان السواك، ويسمونه الأراك(بسكون الراء) ومنه أحراج كبيرة في ظاهر مكة

شديدة الاخضرار حتى أيام انقطاع المطر. ويقولون إن الإبل الأركيات إذا منع عنها الأراك أربعا وعشرين ساعة هلكت. ويؤيد هذا أن أكثرها يتخذ للنقل بين مكة وجدة(مسيرة يومين للجمال). وقد رأيت رعاتها يجعلون في أحمالها شيئا من الأراك، فإذا أطعموها جعلوا قليلا منه في طعامها. وقد يطعم أحدهم راحلته(الأركية) سواكه، إذا لم يجد غيره من الأراك(الأراك) فتأكله وإن كان يابساً.

الهيام

من الأمراض المشهورة عندهم في الإبل(الهيام) وهو أن يشرب البعير أو الناقة من الماء الراكد الفاسد، فينتفخ طحاله فلا يلبث أشهراً حتى يموت فجأة. وهذا المرض مخوف على إبلهم جداً لقلة الماء في الحجاز، وهو سريع العدوى بالاختلاط أو بشم الصحيح بول المصاب ويسمونه(المهيوم). وإذا تدورك المصاب بعد المرض بأيام معدودات أمكن شفاؤه، وذلك بأن يطعموه الحمض(وهو نوع من النبات يكثر عندهم في أيام المطر والخصب) فإن أطعموه منه بعد ستة أيام شفي. وهناك نبات آخر يعرفونه يشفى المصاب من الإبل بأكله قبل مرور تسعة أيام. ونبات آخر يشفى به قبل انقضاء اثني عشر يوماً. وإن زادت مدة المرض على هذه الأيام يئسوا من شفاء المصاب. وحكومة مكة تعاقب بشدة من تجد عنده مصاباً بهذا الداء، وتكافئ من يخبرها به بخمسة مجيدات(نحو 40 قرشاً مصرياً) تؤخذ ممن يوجد عنده. وهي تذبح حالا كل ما تجد من هذا النوع إلا ما يؤمل شفاؤه فتعزله منفردا وتأمر بمداواته.

بياطرة الهيام

وفي بادية الحجاز وتهامة رجال معروفون بالعلم في هذا المرض ومداواته، ويمتازون بمعرفة المصاب عند رؤيته أو شم رائحته، كما إنهم يعلمون مدة مرضه، فحين ينظرون إليه بإمعان يذكرون منذ كم أصيب. والحكومة تستخدم بعض هؤلاء (البياطرة) في عداد أطباء الحيوانات وتجري لهم المرتبات كسائر موظفيها، إذ هم يعينونها على حل كثير من المشكلات التي تنشأ بين أبناء البادية القريبة من العاصمة. وهؤلاء- بياطرة الإبل- لا يتلقون علمهم بالدرس بل بالنظر الطويل والممارسة يتوارثونه سلفاً عن خلف. ومن تستخدمه الحكومة منهم تجربه قبل استخدامه حتى

تتأكد من براعته، تحلفه الأيمان المغلظة على أن يصدق ولا يتسرع ولا يمالئ ولا يحابي في جميع ما يحكم به. وهم يعرفون مدة مرض المصاب من الإبل عقب ذبحه إلى أربع ساعات، أما بعدها فتتعذر عليهم معرفة المدة. وإلى هؤلاء البياطرة ترجع الحكومة في حل قضايا الإبل المهيومة مثلا: ادعى فلان أمام الحكومة أنه اشترى ناقة من فلان منذ شهرين واتضح له أخيراً أنها مصابة بالهيام منذ ثلاثة أشهر فذبحها وهو يطالب بائعها له بقيمتها، فترسل الحكومة أحد بياطرة الهيام(بفتح أوله) أو اثنين منهم، فإن صح ما يقوله حكمن على البائع بالتعويض، وإن كان مرض الناقة بعد شرائها فلا يؤاخذ البائع. وقد حدث شيء من هذا وأنا في مكة.

الخيل تحمي الإبل

وعندهم أن صاحب الإبل لا بد له من الخيل، خصوصاً إن كان من سكان السهل لأن الإبل لا تحمي نفسها من الغارات وإنما يحميها فرسانها. ومن أقوالهم في الخيل(بطونها نار وظهورها عار) أي أن بطونها كالنار تلتهم كل ما يدخلها، أو كأنها تحرق الطعام إحراقاً، كناية عما يحتاج إليه صاحبها من وفير النفقات، وأما ظهورها فيرون أن على الفارس حماية فرسه من أن يلحق بها العار إذا فر أو سقط عنها في المخاوف. وقد يفسرون كلمة العار في هذا المثل بمعنى الحريم والعرض فيكون المعنى: وظهر الفرس عرض الفارس لأن العار في إهماله.

الجرة

الجرّة -بفتح الجيم- من أشهر ألعابهم في الطراد والرمي. وهي أن يضعوا جرة مملوءة ماء في مكان وتمر الفرسان في طرادها راكضة خيولها حتى يحاذي الجرة من اليمين أو اليسار على بعد مائة متر تقريبا، فتلوي نحوها رؤوس الخيل العادية كالبرق الخاطف وتطلق رصاص البندقيات بأشد ما يكون من السرعة والخيل تضطرب من كبح جماحها، فيصيبون الجرة من ذلك البعد. وإنما اختاروا جرة الماء لأن شهود الرمي البعيدين يرون اندلاع الماء من الجرار ويسمعون دوي صوتها حين تصاب فيهتفون للرماة. وبذلك سميت هذه اللعبة من الرمي باسم (الجرة) وأكثر لاعبيها يجيدونها فيندر فيهم من يخطئ الهدف.

من أمثالهم

من أمثال البادية(لا تحاذف راعي معز ولا تصارع راعي بقر ولا تسابق راعي إبل)

لأن الأول يضطر دائما إلى رمي ماعزه بالحصى وغيره ليجمعها فيقوى ساعداه، والثاني يكثر من تحويل البقر وسوقها فتقسو عضلاته، والثالث يتبع إبله ويرد ما يشرد منها فيشتد على الجري.

ومن أمثالهم (اللي يبغي الشر يصلح شوره) أي: من أراد الخصام فليصلح رأيه.

الجهات الأربع

يختلف أهل بادية الحجاز عن غيرهم في تسمية جهتين من الجهات الأربع، هما الشمال والجنوب، فيسمون الشمال(شاما) والجنوب(يمناً) لوقوع بلاد الشام في شمال الحجاز، وبلاد اليمن في جنوبه. ولا يختص البدو في هذا الاصطلاح بل يشاكلهم فيه أهل الحواضر وفيهم العلماء والأدباء. وقد اتفق لي بعد الأوبة من الطائف أن تذكرت أمراً فاتني البحث فيه هنالك وهو ما تعدّه حكومة ذلك البلد اليوم حدوداً صحيحة(رسمية) له، فكتبت إلى قاضيه الشيخ عبد الله كمال أسأله بيان ذلك، فأجابني بكتاب يقول فيه:(بلغت سلامكم حضرة أمير الطائف وأطلعته على محرركم، وهو يبلغكم السلام، وتذاكرت معه في الكلام على حدود الطائف حسب مرغوبكم فما رأينا أحسن من حدوده المعلومة المذكورة في التواريخ وهي أن يحده شرقاً وادي لية، وغرباً وادي قرن، وشاماً لقيم ويمناً الوهط..الخ)، فإذا هو يسمي الشمال شاماً والجنوب يمناً كما يسميها البداة. وفي أهل الحجاز أيضا من يسمي المشرق(المبدأ) والمغرب(المغيب) فتكون عندهم الجهات الأربع: المبدأ والمغيب والشام واليمن. يعنون: الشرق والغرب والشمال والجنوب.

الجيش

يفهم ابن بادية الحجاز من كلمة الجيش غير ما نفهمه نحن، فهو يسمي ركبان الإبل الجيش، وقد يقول: جاء الجيش. فتلتفت فترى قطاراً من الجمال. وأما القوة العسكرية التي نسميها نحن الجيش فاسمها في البادية(القوم).

سلمت

كان قدماء العرب يقولون للعاثر: لعاً! وأهل مصر اليوم يقولون: يا ساتر! وأهل الشام يقولون: الله! وأما في الحجاز فقد أعجبني قولهم للعاثر: سلمت!

فصول السنة

فصول السنة في بادية الحجاز خمسة، يزيدون على الأربعة المعروفة فصلا خامساً هو(القيظ) ويلفظنها بالضاد(القيض) فيكون العام في عرفهم: الربيع أربعة أشهر، والصيف شهران والقيض شهران، والخريف شهران، والشتاء شهران.

المدعى عليه

قرأت للسيد محب الدين الخطيب فصلا في جريدة القبلة بعث به من الطائف قال فيه:

(ومن أعجب ما علمته أن المدعى عليه قد يكون في أقصى البادية، على مسيرة أيام من الطائف، فإذا طلب المدعي استدعاء خصمه أخذ الأمير"يريد أمير الطائف وكان يومئذ الشريف حمود بن زيد" عصا ووسمها بإشارة وأرسلها مع المدعى عليه، فإذا عرضها الخصم على خصمه لم يستطع ذاك أن يتأخر عن حضور مجلس الحكم ساعة واحدة..)

أدب البداة

قضت الأمية السائدة في بادية الحجاز على ركن عظيم من أركان الأدب هو الإنشاء، وناب عن الخطابة في سكانها ما رزقته ألسنتهم من حسن البيان، وأصبح الشعر وحده هو المظهر البارز من مظاهر الأدب، فإذا بحثنا في آدابهم فإنما نريد الشعر المألوف نظمه عندهم اليوم وما يتعلق به من معرفة أوزانه وتفسير كلماته وطرق روايته وأخبار قائليه، ولكل من هذه الأبحاث شواهد نأتي عليها في مواضعها إن شاء الله.

الماضي والحاضر

ما كانت لتصح المقابلة بين أدبي العرب في ماضيهم وحاضرهم، لولا وجوه شبه لا تزال مرتبطة بها حلقات السلسلة بين الأسلاف والأخلاف، على ما بينهما من شاسع البون وواضح الفرق.

وليس من الخطأ في شيء أن يقول قائل إن عرب الجاهلية وصدر الإسلام وما بعد هذين العصرين اللذين أينعت فيهما ثمار الأدب والشعر، وأتت قرائح أبنائهما بالمعجب والمطرب،

لم يبرحوا يراهم من يرى عرب هذا الجيل، في الكثير من عاداتهم وطباعهم وأخلاقهم وآدابهم إلا ما فقدوه وهو الخسارة الكبرى، أعني الأعراب في لغتهم والاحتفاظ بفصيح البيان في منظومهم ومنثورهم، فهذا ما لا مجال للمقابلة فيه بين العهدين.

أما الشعر من حيث هو شعور في النفس يترجم عنه اللسان، فإنه لم يزل مما تحافظ عليه البادية وتنفرد بالإبداع فيه عن الحواضر ما بين سكان المدن وسكان الخيام، من الفرق في قدرة الأول على الاختراع، وقوة الثاني في الرصف والصنعة.

يقف الشاعر البدوي اليوم، فيسامر الآثار، ويصف السحاب، وينعت الجبال، أو يحن إلى حبيب، أو يبكي لفراق، أو يرثي كريماً، أو يمدح عظيماً، فترى فيه روح ذلك الشاعر البدوي الذي كان يقصد عكاظاً قبل أربعة عشر قرناً، حاملا في صدره ما قال من وصف أو حنين أو رثاء أو مديح.

وبالجملة فإن الشاعرية القطرية ما انفكت تصحب الكثيرين من البداة حتى اليوم، ولا أرى ما قد يراه سواي من انتقاص هؤلاء أو بخسهم أدبهم لشيوع العامية فيهم أو لاعتمادهم عليها في شعرهم، فما كان الشاعر الجاهلي لينطق بغير اللغة الشائعة المتداولة في أيامه وما كان- ولن يكون- من الإنصاف أن نطالب ابن هذه الصحراء القاحلة بالتعبير عما يجيش في صدره، بلغة غير لغته التي تلقاها عن أمه وأبيه وعشيرته وأهليه. فالبدوي الجاهلي قبل الإسلام، والبدوي المعاصر من أبناء هذا العهد، سواء من حيث الإفصاح والإبانة عن كوامن النفس بلغته المعروفة المألوفة، فما كان ذلك بالمتكلف إعراباً غير إعرابه، فتكلف هذا، وما كان ذلك بمتلق عروض الخليل أو نحو سيبويه فتعيب على هذا اجتنابهما.

على أن من يكثر من سماع شعر البادية في عصرنا الحاضر، وينعم النظر فيه، لا يعدم العثور على كثير من مبتكر المعاني والتشابيه مما لو أعرب ونسج على منوال ما ألفناه من الأوزان لرأينا فيه حسنات غير يسيرة.

ولئن عد من أعظم خصائص الشعر في الجاهلية تأثيره في النفوس ولعبه بالعقول وتخليده الوقائع، جرى شعر البادية في عصرنا مع شعر الجاهليين في ميدان واحد، وصحت المقابلة بينهما من هذه الوجهة لا غير.

ذلك لأن شعر البدوي اليوم يؤثر في عقول البداة كما كان يؤثر شعر الجاهلي في الجاهليين. وقد يخلد الحوادث العظيمة فيهم كما كان يخلّدها شعر ابن تلك العصور الخالية، ولو أقبل أهل الحواضر من المعاصرين والمتقدمين قليلا، على تدوين شعر البداة، لحفظ لهم تاريخ هؤلاء كما حفظ تاريخ أولئك، ولما ذهب ضياعاً ما لمجاورينا في صحرائهم من خبر أو أثر أو معنى مبتكر.

بل لو ولع العربي في هذا الزمن بأخبار بداة العرب في الأزمنة المتأخرة بعض ما كان له من الولوع بأخبارهم قبيل العصر الإسلامي وبعده بقليل، لاضطر إلى رواية شعر هؤلاء كما يروي شعر أولئك، ولاضيف إلى الأدب العربي أسلوب جديد اختارته هذه البداوة، كما اختارت ذلك تلك، ومعاذ الله أن أقول بإحلال هذا منزلة ذاك أو بالرضى عن قبول هذا الأدب المشوه بالعجمة واللحن، يتغلغل بين حنايا الأدب الصحيح، أدب العرب الخالد، فإن في ذلك لجناية على لغة القرآن وسهماً في كبد البيان.

وإن المختلط بالبداة اليوم ليعجب مما لبضاعة شعرهم فيهم من الرواج، وليراهم في تعلقهم بها وإقبالهم عليها يفوقون الحضر في عنايتهم بشعرهم الصحيح وأدبهم القويم.

ينظم الشاعر المبدع من أهل مصر أو سورية أو العراق القصيدة، وينشرها في إحدى الصحف، مشكولة كلماتها، مفسرة ألفاظها، موضحة معانيها، ثم ينظر إليها عن بعد يترقب ما يكون لها من الأثر في نفوس القوم، فإذا قارئوها ثلاثون في المائة من قراء الصحيفة، وفاهموها عشرة في المائة منهم، ولا يحفظها واحد في الألف.

ويرتجل الشاعر البدوي القصيدة ارتجالا لا يتعمل فيها ولا يتكلف- ولا يرجع إلى قاموس- فيتناقلها الحفاظ من بعيد القبائل وقريبها، يتناشدونها ويتغنون بها. ولا أغالي إذا قلت إنها تعيش في أدمغة هؤلاء قبل أن تكتب أكثر مما تعيش تلك في أدمغة أولئك وقد نشرت وكتبت. وكأني أرى في ما يسمونه (الأدب العصري) اليوم مظهراً من مظاهر الإسفاف إلى العامية، يحدو بأنصاره إليه زهد العامة في أكثر ما تقوله الخاصة، وإيثارها ما تفهم بالبداهة على ما يعوزها في تفهمه الرجوع إلى المعاجم. ولا

لوم على هذه الطبقة من الناس في عملها هذا ولا تثريب، وإنما الأمر معضلة يخشى استمرارها من يحرص على بقية الأدب النقي ويحاذر أن تهمل بعد حين، وبإهمالها ما لا مناص منه آنئذ من فوضى الأقلام وانقسام هذه اللغة الواحدة إلى لغات متعددة ولهجات مختلفة وأقسام، آية الهرم وبلوغ العتيّ من الكبر!

شعر البداة وبعض أنواعه

لا يختص سكان الخيام في بادية الحجاز بنظم الشعر، بل هناك كثيرون من أبناء الحواضر يقولونه كما يقوله أبناء البوادي، ولهم عناية كبيرة به، وفيهم المبرّزون بنظمه، المشار إليهم بالإجادة فيه، ولكن الفرق المعروف عندهم بين البدوي والحضري أن الأول أقوى على الارتجال، بل أكثر شعره ينشده غير متكلف فيه ولا متصنع، خلافاً للحضري فإنه يصنعه صنعاً فينمق ألفاظه ويهذب أبياته، ولا يقوى على ارتجاله في الغالب.

وقلّ في شعراء البادية من يتفق له أن يتلقى في صغره شيئاً من مبادئ علوم العربية. أما من تهيأ له ذلك فيستعين بسليقته الشعرية على نظم شيء من الشعر الصحيح، قد تكون فيه معان جديدة توحي بها إليه بداوته وصفاء قريحته.

وهم يقسمون الشعر إلى نوعين: الأول الصحيح الأوزان واللغة، ويسمونه(القريض)، والثاني الشعر البدوي المختلف في لغته وأوزانه عن الشعر الصحيح أو القريض كما سترى، ويسمونه (الحميني) ولم أعلم اشتقاق هذه اللفظة ولا أصلها.

ويسمون المساجلة بين الشاعرين منهم(قصيداً)، كما يسمون القصيدة الطويلة أو القصيرة(نشيداً)، ويسمون القصائد على الإطلاق(مجالسيات)، ويعرف عندهم اللغز باسم(الغبوة).

وكما يقول العرب الأقدمون للشاعر المجيد:(لا فض فوك) يقول البداة اليوم لشاعرهم إذا أحسن:(صح لسانك)!

فأما(القريض) عندهم فمن أمثلته قول الوقداني من قصيدة رثى بها أمير مكة الشريف عبد الله بن محمد بن عون:

الملك لله والدنيا مداولة ... وما الحيّ على الأيام تخليد
والناس زرع الفنا والموت حاصده ... وكل زرع إذا ما نمّ محصود
وما يدوم سرور لا ولا كدر ... وهكذا الدهر تصدير وتوريد
والناس، ذا فاقد يبكي أحبته ... وذاك يبكي عليه وهو مفقود
وذاك أبدت له الأيام زينتها ... وذاك أيامه همّ وتنكيد
للدهر وجه عبوس في تقلبه ... وللمنايا سهام صيدها الصيد
ما يمنع الموت أبراج مشيدة ... ولا دروع ولا بيض ولا خود
لو يدفع الموت سلطان بقوته ... لكان حيا سليمان وداود!

وهذه القصيدة طويلة جيدة، رأيتها مكتوبة بخط واضح جميل، معلقة على أحد الجدران في قبة الحبر ابن عباس بالطائف. وستأتي كلمة عن ناظمها الوقداني.

وأما الحميني فكثير جداً، أو هو اسم عام لكل ما ينظمه البداة نظماً مرسلاً لا إعراب فيه ولا صناعة.

وأما(القصيد) أو ما نسميه الماجلة، فقد تقدم نموذج منه في كلمة(الشعر في المحاكمة).

ومن(النشيد الحميني) أو(المجالسيات) قول مقبيل الوديود يصف وقعة:

يا الله يا الله تصلح شاننا يا مصلح الشان ... وتردنا سالمين وتهون الأمر الصعيب
كل معبد وأنا في هم، عيدي يم عسفان[1] ... وأقول يا الله تجيب القوم نصلح من قريب
عيو ايجونا وجيناهم على صاعق وبيشانعيوا[2] ... ثم التقينا على فيده بنيران الحريب[3]
والملح مثل الرعد، وأمست طريح بغير دفان ... ستين منا ومنهم، ذبحوا غير الصويب[4]

---

(1) كل معبد: كل إنسان. يم عسفان: وادي على طريق المدينة بعد وادي فاطمة بمرحلتين.
(2) عيو: امتنعوا. صاعق: صائح. وبشان: هتاف.
(3) الملح: الرصاص. الصويب: الجريح والمصاب.
(4) فيده: اسم منطقة.

يا ذيب فيده تعشى من بعدما كنت طيان [1] وأعوي ونادي الذياب اللي تعاوي في الشعيب[2]

نعمين يا بشر ومعبد، حموا مدعوج الأعيان!عيوا على العار، والميلان ما راحت كسيب[3]

ومن الأحاجي أو المعميات والألغاز، وهم يسمونها (الغبوات) الواحدة (غبوة) ما لهم فيه براعة وصنعة. أنشدني أحدهم (الغبوة) الآتية:

أنشدك غبوه، عن غرسة بالعدّ مسقية   متنكس رأسها والعرق فوقاني

إن جبت في ظلها في داجي الفيّه[4]   وإن رحت في سدها ما أنت بردان

ونثر البيتين: أسألك ملغزاً عن غرسة تسقى بالعدد، رأسها منكس، وأصلها مرتفع. إن تفيأت بها أظلك سترها، وإن ذهبت مقابلا لها لم تخش أذى البرد. وإليك حل هذا اللغز: الملغز به هو اللحية. يقول الشاعر: إنها غرسة تنمو بالسقاية من عدد السنين، وفروع هذه الغرسة مخالفة فروع الأشجار، لأن أصلها مرتفع وفروعها منخفضة! فإن لجأت إلى ظلها فأنت في حماها، وإن ذهبت في حمايتها لم تخف برداً ولا أذى..

وأنشدني آخر (غبوة) ثانية، هي:

أنشدك عن غمر[5]، شبابه سبوعين   ومن بعد سبوعين يصبح الغمر شايب

كلّ فرح به، غير قضاية الدين   ومدوّرين الفيد فوق النجايب[6]

وقال شاعر منهم لآخر:

أنشدك عن بحر طويل ما ينشرع فيه صعب على ذهين[7] الرجال ويشرعه خبل الرجال

---

(1) طيان: طاو أو جوعان.

(2) الشعيب: تصغير شعب وهو مسيل الماء.

(3) بشر ومعبد: أصدقاء الشاعر. الميلان: الأموال. كسيب:. الكسب.

(4) داجي الفية: عتمة الليل.

(5) الغمر: معناه الهلال والمقصود الشاب الذي لم يجرب أمور الحياة. سبوعين: أسبوعان.

(6) الفيد: الثمن. النجايب: الخيول.

(7) ذهين العقل: صاحب الذهن والعقل. خبل الرجال: مريض العقل.

فأجابه:

هـداك[1]الـكذب لا عـوّد الله طاريــه[2]

راعيـه[3] دائـماً يمشي على الجرف الهيال

وأنشدني أحدهم (الغبوة) الآتية، في(يونس بن متى).

أنشــدك عن مخلـوق في قــبره مســيد[4]

في القــبر حــي ويطــلب الغفــران

والقبر يمشي حيّ سـرع[5] وبالرويــد[6]

يــأكــل ويشـرب صــنعـة الــرحمن

الرواية وطرائق النقل

قلّ أن يجد الباحث عن شعر البادية ما ينقله عن كتاب أو مجموعة أو أوراق، ولكنه متى عرف الطريق اهتدى للكثير الغزير مـن(مجالسياتهم) و(قـصدانهم) و(غبـواتهم) وغيرها من أنواع الشعر عندهم.

ينتشر شعر البادية اليوم بالواسطة التي كان يذيع بها قبـل ظهـور الإسـلام، وهـي الرواية والحفظ في الصدور لا في السطور.

ورواة الشعر من البدو كثيرون، ترى في كل قبيلة نفراً منهـا، يـسمعون فيحفظـون ويتنشدون فيروون.

ولا يختص هؤلاء الحفظة، وإن شئت فسمهم الرواة، بحفظ أحـد نـوعي الـشعر- القريض الحميني- بل حيث رأيت كثير الحفظ روى لك من كليهما ما يعلم.

(1) هداك:ذاك.
(2) طاريه:ذكره.
(3) راعيه:صاحبه.
(4) في قبره مسيد:أي ملقى والمقصود هنا هو النبي يونس الذي عاش فب بطن الحوت.
(5) سرع:سريعا.
(6) بارويد:أي رويدا.

سمعت أدباء الطائف يلهجون بيتين، يكثرون من تشطيرهما، لا أذكر أسم ناظمهما، وهما:

أحمامة الوادي بشرقيّ الغضى   إن كنت مسعفة الكئيب فرجعي
إنا تقاسمنا الغضى فغصونه   في راحتيك وجمره في أضلعي

واتفق أن خرجت صبيحة يوم إلى المثناة يرافقني أحد فضلاء الطائفتين، فمررنا برجل من أهل الطائف أهرمته السنون، ما إخاله يقل عن الخامسة والثمانين أو التسعين، وقد حمل طبقاً صغيراً على رأسه وفي يده عكاز يتوكأ عليه، فسلم عليه رفيقي واستوقفه، فأجاب ووقف، فكلمه فإذا هو تمتام عقل الكبر لسانه، وسأله هل يروي البيتين (أحمامة الوادي) فقال: نعم. وأنشدنا تشطيراً لهما قال هو للوقداني، ثم أسمعنا تذييلا عليهما للوقداني أيضاً في قصيدة طويلة لم نستطع فهمها من لسانه فكتبها وبعث بها إلينا.

وسألت هذا الشيخ الهرم عن بعض شعراء البادية فحدثني بما يعلم عنهم فقيدته قبل مفارقته وسألت رفيقي عن اسم الشيخ فقال: عبد الله أبو دابخ.

وممن أعانني على بعض ما رويت وما نقلت، من شعر البادية مدير شرطة الطائف الشيخ درويش بن محمد بن عبد الواحد الحداثي من قبيلة قحطان. والحداثي نسبة للحدا وهو مكان في اليمن شرق صنعاء. وقد حرفت نسبته فيقال الحدايدي. وهو من حفاظ شعر البادية المكثرين، وله منه بضع (مجالسيات) إليك نموذجاً منها:

خرجت رصاصة من بندقية أحد الأشراف قضاء، فأصابت عنق الشيخ درويش، فاهتم به من حوله من ذوي ناصر، فعولج حتى شفي، فقال من قصيدة طويلة:

ما سجع قمري على غصن البشام   أو ترنم طايراً فوق الغصون
أو ترزّم صوت رعد في الغمام   ثم أسبل من سني برقه مزون
عد هذا مني أقربكم سلام   يا ذوي ناصر مجودة الطعون

اليا[1] ركبتوا الخيل أيام الزحام　　كم عدو يشتكي منكم غبون
أنتم أهل الفعل في شبك العسام[2]　　يشهد الله والخلايق يشهدون

ومنها:

إن بدعت القاف[3] أو قلت الكلام　　ما استعرته من رجال يبدعون

ومن المعروفين بروايته رجل يدعى عيضة الذويبي وهو من قبيلة الذويبات، من بني سعد، توفي مؤخراً. كان واسع الرواية يحفظ كثيراً من شعر الشريف زيد بن فواز، وقد مات ما يحفظه بموته إلا ما نقل عنه.

والمشهورون بالرواية والحفظ كثيرون في مكة والطائف أما القبائل فالرواة فيها لا يحصون كثرة، ولا فائدة من تتبع أسمائهم.

الحميني لغته وأمثلة منها

من القواعد المعروفة في أدب كل أمة ينطق شعراؤها بلسان خاصتها وعامتها، كما كانت حال الأدب في صدر الإسلام وقبله، إن لغة الشعر فيها تمتاز قليلاً أو كثيراً عن اللغة الشائعة، بحيث يجد القارئ والسامع ألفاظاً مصقولة وتراكيب مقبولة واستعارات وكتابات وتشابيه، وأيما آت لا يعثر عليها في غير لغة الأدب والشعر.

ولما كان قائلوا الحميني من أولئك الشعراء الذين يخاطبون أقوامهم بلغاتهم، لم يكن من الغريب أن يدخل شعرهم دخيل جديد، أو استعمال لم يسبقهم إليه غيرهم من أبناء باديتهم.

فهم إذاً حملة مقاليد اللغة فيهم، يتصرفون في أساليبها وجموعها ومحدثها وموضوعها، كما تشاء لهم قرائحهم، وكما تدعو إليه أوزانهم الشعرية.

ترى أحدهم يريد أن يقول(إذا) فيقول(لا) أو(اليا)، ومثالها(لا جاك فلان) أي

---

(1) اليا:إذا.

(2) العسام:الغبار ودخان البارود.

(3) القاف:القافية.

إذا جاءك فلان.(واليا نصيت الربع) أي إذا قصدت الربع و(نصاه) عندهم بمعنى قصده ويستقون من هذه اللفظة فعلا مضارعاً(ننصى) ويقولون(منصاك دار فلان) أي قصدك ووجهتك. ويقولون (يا فعلت كذا) أي إذا فعلت كذا. ويكسرون ياء المضارعة في كل مضارع. ويقولون(اللي) بمعنى الذي و(يرضه) بمعنى أيضاً أخذوها من عامة مصر. ويكثرون من وصل همزات القطع في الأفعال وغيرها. والسكون في أواخر الكلمات يكاد يكون عاماً. ويسمون الجواب(ردادا). وفي لغتهم كثير مما لا تنطق به العامة في مصر والشام وغيرهما شأن كل لغة عامية في أقطار العرب خاصة. وهم يجمعون (مارتينه) -البندقية- على موارت ومواريت. والموزر على ميازر إلى غير ذلك مما يحتاج إلى معجم كبير!

أوزان الحميني

قد يسبق إلى ذهن من يسمع القليل من الحميني أنّ شعراء البادية لا أوزان للشعر عندهم، وهو ليس بصواب. فهناك بحور(تفاعيل) ومقاطع بلا أسباب وأوتاد غير أنهم أشبه بشعراء الجاهلية قبل أن يعرف البسيط والطويل والوافر، والمقصور والمجزوء والمشطور!

وكما كان الشاعر الجاهلي يقول الشطر الأول أو البيت الأول من القصيدة وهو لم يسمع بتفاعيل الخليل فيجري إلى آخر القصيدة على نظام واحد ونسق واحد، كذلك تجد الشاعر البدوي يبتدئ بلالاته(أي يقول قبل الشروع بالقصيدة: بالا لا لا لا للي، لي لا لا لا لا للا- أو ما يوافق النغم الذي يريد أن ينظم القصيدة فيه) ثم يرتجل القصيدة لا يختلف البيت عن الآخر وزناً وقافية وإنما دليله النغم واللالات لا غير.

وقد يقول أحدهم الشعر(الحميني) دون أن يبدأ باللالات أو يضع نغماً، متكلاً على سليقته الشعرية فيأتي بالموزون الذي لا عيب فيه عندهم.

وشعراء البادية أقرب إلى الطريقة الإفرنجية في أوزان شعرهم فإنهم يعتمدون على المقاطع وهي كالأسباب في عروض العرب، يدل على هذا أنهم لا تكاد تمر بهم كلمة ذات ثلاثة متحركات إلا سكنوا أحدها، فليس في شعرهم(متفاعلن) ولا(مفاعلتن) وهذه الطريقة- أي طريقة المقاطع- هي العامة في شعر أكثر اللغات بل جميع لغات

أوروبا كالإنكليزية والفرنسوية والألمانية وغيرها. ولقد حاول منذ سنين أحد متأدبي العرب أن يعتمد في تتقين علم العروض على المقاطع، فيهمل التفاعيل فلم ينجح لما في الشعر العربي من الكلمات الكثيرة الحركات ولأن المد في غير موضعه خطأ معيب في اللغة العربية.

وخلاصة القول في أوزان الخميني إن قائليه يشبهون شعراء العرب قبل وضع العروض بإخراج القصيدة متساوية مع المطلع، وإن وزنوا الشعر فميزانهم المقاطع(لا لا لا) وتسكين المتحرم ومد أحد المتحركين كثير في شعرهم.

وقد يسمون بعض أنواع الشعر بأسماء اصطلحوا عليها كتسميتهم(المجرور) لما يلتزم فيه ناظمه التسميط - وقد تقدم من نوعه بيتان من الحميني في الكلام على جبلي شرقرق وعكابه-

وأوزانهم كأوزان شعر العامة في مصر والشام أي كالزجل والمعنى والقراديات، فكلاهما معتمد على المقاطع.

الحضر والبدو والتمييز بين شعريهما

مهما حاول الحضري المجاور للبادية أن ينسج على منوال البدوي في شعره (الحميني) لم يستطع أن يخفي ما هناك من الفرق الذي يدركه منعم النظر في نظميهما، فإن في حمينيّ الحضري صنعة ظاهرة لا تبدو في حمينيّ البدوي، كما إن الشاعر البدوي أجرأ على التصرف بلغته من الشاعر الحضري الذي يتكلفها تكلفا، ويقلّد بها أهلها تقليداً، وإن اختلط بهم كثيراً وعاشرهم طويلا.

وقد يستطاع التمييز بين النظمين بملاحظة يسيره، هي أن شعر ابن الحواضر يبدو قريباً من لغة الحواضر، فلا يعسر على الأديب الحجازي مثلا أن يفهم جل ما يقوله الشاعر الحجازي من النوع الحميني، أما شعر ابن البوادي ففيه وعورة على الحضري لا يكاد يفهمه إلا بعد السؤال وإطالة الإمعان.

وقد يكون مما يتعمده الأول ترقيق ما ينظمه، فيجيء حاملا برهانه على أنه من غير النفس البدوي، لأن ما يتناوله هذا من الألفاظ المولدة في البادية وبين الشعاب وعلى ضفاف العيون والآبار، لا يطوله ذلك البعيد عن الفلاة المستعيض عن الخيام

بالقصور وعن الأحقاف والتلاع بالشوارع والأسواق، وهذا النوع من الشعر لا توصف فيه على الأكثر حدائق المدن وجناتها ولا أثاثها ورياشها، وإنما تذكر في أبياته المضارب والمفاوز والنجود والإيقاع والتهائم والبطاح.

وبينما تسمع الحداة يتغنون بوصف الناقة وزجلها والفرس وسبقها، إذا بك تسمعهم يتغنون بذكر حبال اللؤلؤ وعقود الماس، فتدرك لأول وهلة أن الأول لشاعر بدوي قح، والثاني لشاعر حضري مقلد، وتمر بك قصة ابن الرومي الشاعر المشهور وقد قيل له: ما لك لا تجيد إجادة ابن المعتز في وصف القصور وزينتها؟

فقال: ذلك يرى منزله فيحسن وصفه!

خذ مثلا قول زيد بن هويشل من (نشيد) له:

الظفر لا بدّ من صغره يبين	ظفر، ويكرم سبال الغانمين
كل قالات الرجال إلها فطين	قبل يبلغ بالعدد عشرين عام
يا عرب فكرت في خبث وطيب	وأشهد إن الفقر للظفران ذيب
قد عرفت المخطية واللي تصيب	يا عرب من لامني جعله يلام
الفقر مثل القوي من السهوم	كلما راعيه ناض أزرى يقوم
والغناوي صنعة الحمرا العزوم	ما يريعها رسنها واللجام
ذا، ويا راكب على ناب المتون	منوة اللي دايماً يقضي الديون
طول صيفه مكتلي نبت الفنون	ما يعشي غير في روس العدام
أشقر زايد على جمع الحرار	لو تشوفه ما على وصفه خيار
يتلقى رسمه على الخد اليسار	مثل رسم النيل في راعي الذمام
والرقيبة مثل منحوف الجريد	ما تقول إلا ضياحيّ فريد
والعظام مراكبات من حديد	كنّ مبروم الحديد اله عظام
والبطين ضويمر كنه هلال	وسعدانته الذي مثل الريال
والخفاف صغيره فيها احتمال	وارد السنون مركوز السنام

وخذ قول الشريف عبد الله بن محمد بن هزاع من (نشيد) أيضاً.

آه من قلب تعنى وانقسم	أتعب الأعيان وأغداني سقيم
في هوى من فاق حسنه واستنم	فاق جمع الخود لم حاله حتيم
إن عفا وأصلح وفي عبده رحم	هو هوى روحي ولا غيره نديم
وإن حصل لي قتل من بعد الألم	هو غريمي ليس لي غيره غريم

فإذا قابلت بين القولين اتضح لك جليا أن الأول شعر بدوي والثاني شعر حضري.

ومن أمثلة البدوي قول الشريف حامد بن عبد الله من (نشيد) طويل يوصي به ابناً له اسمه (سعد):

يقول حامد يوم هجرس بالغنا

حديث أحلى من حليب القود

تهيضت وأبدع من خيار المثايل

أغنى بها يوم العباد رقود

عسى الله يخلي لي (سعد) يحتضي

بي لا أستوي في قبري الملحود

أنا أوصيك مني يا سعد واستمع لي

أفطن ولا تنسى وصاة العود

أوصيك في اسناع الشكاله تفيدها

ترى الشكاله حبلها ممدود

وأوصيك في ضيفك الياجاك حشمه

تحمل ورحب به على الماجود

تراك إذا رحبت به ما يذمك

والياقفيته يلحقك منقود

وصيك جارك وزه القدر والغلى

ترى الجار لا بدك عنه منشود

خليك لطيف له وزد في وجوبه

يشهد لك الله والعباد شهود

واحذر علي جارتك من همزة الردي

ترى الردي ما فيد منه رشود

أوصيك في عز الرفاقه وح

أرفق لهم وأحذر تجي حسود

ترى الرفاقه درع جنبك وسيفك

وهم حشمتك لاجا عليك ضهود

هم ضلعك اللي لا زينته يزينك

وإن جا العدو يرقى معاه سنود

خليك لربعك سهل وأسهل من العسل

تراهم عضودك يوم ماش عضود

ووصيك حط الصمت والصدق

شرعتك وأدرن ترى الثنتين منها الفود

ووصيك في عافيك لا ترتخي له

خليلك كما حد الشبا المحدود

واليا تبين لك خصيم فاخصمه

اكسر مقامه مثل كسر العود

لا تنكر الصايب ولا تقبل الخطأ

وتصير حيد اليانصاك حيود

واتــرك مــؤلفـة الهــروج الضـايعـه

لـو كــان زالــوا في نـظـرك صهود

ضـرابة المجـلس كثـيـر هــدوهــم

مــا ينعــرف لـعــلومــهــم ردود

وابعـد عــن أهـل الشذب وأهل النمه

تــراها تــورّد لاهــب الــوقـــود

واحـذر عـدوك لو تشوفه ضحك لك

لا تــامنــه لــو عــاهـدك بـعهـود

ولا تسـتمع في شــار من لا يـعـــزك

خـليــك وثـيـق السـد فـرد فـرود

ادرنـت تـواصـيف الـرجـال عديمــه

وأهــل الشـكالـه علمهم مـاكـود

فيهـم صــبيّ يحـرز العـلم كـلـــه

كـمـا حـد سـيف بـائـع قصـــود

فتــال نقــاض العـلـوم الـعسـيـرة

طـهـطــام لـطــام العـدى صـندود

وفيهـم غـنـي مــا يشــح بـمـالـــه

يـكــرم ولــو كــان الـزمـان طرود

وفيهـم صــبيّ لا لـفــوه ضيوفـــه

يفــرح وينشـط مــا يجيــه الــكـود

إلى أن يقول:

درت الفكاير في تواصيف النا

الياهن بالحلايا والطبوع جنود

فيهن من تسوي من الخيل أصيله

وفيهن من لا تسوي مقصى جلود!

وهذه القصيدة نحو مائة بيت أملاها عليّ ناظمها.

ومن أمثلة الحضري قول الشريف زيد بن فواز بن ناصر، وكان حاكم الطائف، من قصيدة يرثي بها أخاه الشريف راجحاً:

ثارت أحزاني بعد كلّ رقد	واشتعل في داخل الجوف التهاب
وانسكب دمعي على خدي جدد	انسكاب الوبل من غر السحاب
آه واوجدي ومن مثلي وجد	بعد ما واريت راجح في التراب
جلّ مفقودي ومن مثلي فقد	يا ابن أبوي أمسيت بعدك في عذاب
يا متين الدين يا ناقي الجد	يا أخي يا عبد هيشال الركاب
يا عزيز الجار وإن قلّ الجهد	يا صدوق اللفظ يا حلو الخطاب
يا شقيقي بعد حليت اللحد	اختفى زولك وطاولت المآب
حالفاً ما أنساك لو طال الأبد	لو تغيب الشمس ويشيب الغراب

والأمثلة على النوعين، من شعر البداة وأهل الحواضر، كثيرة تضيق عن استيعابها المجلدات.

الردح

الرّدح- وتسميه هذيل الرجز- وكلاهما بفتح أوله وثانيه،- هو في عرفهم: أن يسير جمع من الناس، أو يصطفوا وقوفاً يتوسطهم شاعرهم، فيبدأ باللالات(السابق ذكرها في بحث الأوزان) ثم يرتجل البيت من الحميني، فيعيدونه جميعهم هازجين، ويستمر يرتجل ما تجود به قريحته حتى ينتهي من نشيده(قصيدته)، فإن شاء ابتداء نشيداً ثانيا

فافتتح باللالات الموافقة لوزنه المنوي وإلا تقدم شاعر آخر، وهلم جرا. وقبل أن يبدأ الشاعر (يبيشنون) كلهم والبيشنة في لغتهم الهتاف، وهي مثل (الشوباش) في لغة عوام الشام، يرفعون بها أصواتهم وسلاحهم ترحيباً بالشاعر بعد أن يرفع يده مشيراً إلى أنه سيبدأ.

وقد شهدنا كثيراً من هذه المشاهد في الحجاز، غير أن بطء فهمنا عن إدراك معنى ما يقوله الشعراء كان كثيراً ما يمنعنا عن كتابة ألفاظ الشاعر وهو يرتجل.

على أن(الردح) لا يشترط فيه الارتجال على الشاعر عندهم، بل يباح له أن يتلو ما حفظه من نظمه أو نظم غيره إذا كان يتفق مع الموضوع الذي دعاهم للإنشاد بخلاف (القصيد) في عرفهم، وهو المساجلة كما قدّمنا فإن الشاعرين يضطران فيه إلى الارتجال.

اختلاف الأساليب

لكل بادية من بوادي الحجاز واليمن والعراق والشام أسلوب خاص في شعرها، وقد يبين هذا الفرق في أوزانها أو في لغتها أو في بيانها.

فأما الأوزان فتألفه للأنغام أو الموسيقى الطبيعية، ولكل من بوادي هذه الأقطار ألحان خاصة وهوى في الإنشاد لا يتفق مع هوى غيره، فنشأ عن ذلك اختلاف الأوزان في أشعارهم.

وأما اللغة فالبادية لا تقتصر على اختلاف كل قطر عن الآخر في لغته أو لجته، بل كثيراً ما نجد في بادية القطر الواحد فروقاً واضحة بين القبيلتين المتجاورتين سكناً أو المختلطين لبناً. ولا يكون اختلاف أبناء البادية الواحدة في أكثر من كلمات يسيره، ويتسع الاختلاف باتساع مسافة البعد بين الأقطار. فكلما كانوا متقاربين ازدادوا تساهلا في اللهجتين، فتناسى كل أناس كلمات أو نبرات لا تجيء في كلام غيرهم.

ولا ينفرد سكان البوادي في اختلاف لهجات بعضهم عن بعض بل ذلك شأن كل لغة لا ضوابط لها ولا قواعد، من لغات العامة في كل أمة وكل مكان، خذ مثلاً لهجة عامة الحضر، ففي كلام المصري العامي ما لا يفهمه الشامي، وفي كلام الشامي العامي ما لا يفهمه المصري، وكذا يصح القول عن العراقي والحجازي واليماني، وغيرهم من عوام الحواضر العربية.

وأما البيان فهي المعاني وصور التعبير، حيث ترى التباين لائحاً وإن لم تختلف هيأة البوادي بعضها عن بعض، ويكون ذلك على الغالب في خصائص عني بها بدوي قطر وأهملها بدوي قطر آخر، فجرت في سليقتهم الشعرية معان يتعاورونها ويتوارثونها خلفاً عن سلف.

مثال هذا التباين أن بداة اليمن اعتادوا أن يعتنوا بتجانس الألفاظ، فكثر الجناس البديعي في أشعارهم، فاختلفت صورة التعبير فيهم عن صوره في غيرهم. وعني بداة الحجاز في معانيهم فجنحوا إلى الإكثار من الكنايات وعابوا الشاعر منهم إذا هجا فصرّح، حتى إن أحدهم إذا أراد التشوق إلى نشوب الحرب ربما قال:(متى تنزل يا مطر) وفي الكناية بالمعاني والتورية بالألفاظ دقة تدل على صفاء الفهوم ونقاوة الأذهان. وهذا النوع كثير في شعر بادية الحجاز قد لا ينتبه إليه غير أحدهم أو من ألف حل معمياتهم من المختلطين بهم.

تداول الحميني

في كثير من سكان البادية تهيؤ طبيعي لحفظ ما يستحسنون مما يسمعون، وهو شأن الأمية في كل أمة. وحامل القلم قل أن يجاري الأمي في حفظه لما يسمع، وسبب ذلك اعتماد الأول على ما يكتب واعتماد الثاني على ما يعي فضعفت ذاكرة الأول وقويت ذاكرة الثاني.

أما الشعر فهم مضطرون إلى حفظه على الخصوص، لأمور: منها أن فيه ما يذكرهم بوقائعهم، وأنه موضوع سمرهم في كثير من مجالسهم وأوقات فراغهم، وأنه غناؤهم الذي به يترنمون، وحداؤهم الذي تحن إليه إبلهم وتشتد في جريها، وأنه لا ينشر في كتاب أو صحيفة، فإن لم يقيد في أدمغتهم ضاع ونُسي ولم يعمر طويلا.

ومن أعظم الأسباب الداعية إلى تداول البداة أشعارهم، وحفظهم لها، أن جل أمراء القبائل وشيوخها يحفظون الشعر البدوي ويروونه، وكثيراً منهم يقولونه ويجيدونه.

وكثيراً ما رأينا أحد الأمراء أو الأشراف أو الكبراء تنشد بين يديه القطعة من الحميني أو تجول في خاطره فلا يذكر بقيتها، فيقول: هذا النشيد يحفظه فلان أو فلان،

فيستدعيهما إليه أو يكتفي بأحدهما فيستنشده، ولا يخفى ما يكون لهذه العناية من التأثير في نفوس القوم إذ يعلمون أن ما يحفظونه قد يدعو إلى إرسال الأمير أو الكبير رسلاً إليهم يدعونهم إلى حضرة من لا يروقهم شيء كالتقرب منه والتحبب إليه.

والغناء أيضاً سبب عظيم من أسباب انتشار الشعر وتداوله. فلقد أثر في الشعر الصحيح وأضعف العناية به في الحواضر، عدول المنشدين والمغنين عن رقيقه ونقيه إلى ما يلفقونه من هراء العامة ومستنكر عجمتها، وأما البادية فهي على أميتها وعاميتها محافظة أبداً على التغني والحداء بما تسميه شعراً، بل بما هو الشعر في عرفها واتفاقها.

شعراء البادية

في فلوات الحجاز الآن وحواضرها عدد كبير من قائلي شعر البادية، ليس من شأني، في هذا البحث، إحصاؤه واستيعابه، وإنما أذكر جماعة ممن علت شهرتهم وعرفت شيئاً من آثارهم أو قليلا من أخبارهم، أو اجتمعت بهم. ومجال الاستقصاء رحب أمام من يتصدى له أو يرى وضع كتاب منفرد لهذا الموضوع، يعرضه بضاعة جديدة في سوق الأدب أو فكاهة مستطرفة للأدباء والمتأدبين.

من أشهر قائلي الحميني الآن في بادية الحجاز(جمهور العدواني) وهو في سن تناهز الخمسين، من قبيلة عدوان في شرقي الطائف، منازلها في العقرب والفريدة-وهما قريتان تبعدان عن الطائف مسيرة ست ساعات- وجمهور هذا هو الشاعر من سكان الفريدة.

ومن مشاهيرهم الشريف حامد بن عبد الله بن راجح العبدلي من أمراء تَرَبَه، وهي قرية كبيرة تبعد عن الطائف إلى شرقه مسيرة ثلاثة أيام، وفيها نخيل وآبار كثيرة وواد متسع. وفي معجم البلدان أنها بضم ففتحتين، قال: وبها ولد ملاعب الأسنة. وهو بدوي قح في لغته ونشأته وله حميني كثير، وقد كف بصر هذا الشاعر منذ اثني عشر عاماً وهو الآن في نحو الخامسة والخمسين من عمره.

اجتمعت به واستنشدته فأنشدني كثيراً من شعره وشعر غيره، ولا سيما نمر بن عدوان، وما كنت أستطيع فهم كلامه لما فيه من غريب كلم البداة، لولا أن أسعفني أحد أشراف مكة بأن كان يترجم لكل منا ما يقوله الآخر!

ولهذا الشاعر قوة عجيبة على الارتجال، يقول المائة من الأبيات وقد يزيد عليها، ولا يتلكأ ولا يتعلم، وإنما يستعين بفاصلة صغيرة بين البيتين. وقد سبق لي إيراد شيء من شعره. وله من قصيدة تناهز 120بيتاً أنشدها بين يدي الملك حسين على أثر النهضة:

أبو علي اللي كال كيله بالوفا   وأهل الخيانة ناقص مكيالها

اليا نوى يعطي العطا بالوافية   يعطي الفلوس جنيهها وريالها

بحراً عميقاً يوم يصفق موجه   يعبي تخاتيخ السهل وأجزالها[1]

ومن المشاهير أيضاً الشريف هزاع بن عبد الله من ذوي حسين، مكثر من قول الحميني، يسكن وادي فاطمة بجوار مكة.

ومنهم مقيبل الوديود الحمدي [2]الثقفي. كان فقيراً معدماً وأتى الطائف فتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وأقام فيه يقرئ الأطفال(ويسمونهم البذورة والورعان) ويكتب الرسائل للبدو بالأجرة. مات حوالي سنة 1325هـ. وقد تقدم شيء من نظمه.

ومنهم الشريف زيد بن فواز. قال أحد عارفيه: كان بارعاً في القصيد(المساجلة) لا يقف أحد أمامه، وعرف بعده ابناه الشريفان حمود وشاكر بنظم الحميني. وقد اجتمعت بشاكر ثاني يوم وصولي إلى مكة قبل سفره مع الأمير عبد الله إلى الديار الشامية.

وكان الشريف زيد بن فواز، حاكم الطائف، وأشهر شعره الحميني، مراثيه في أخيه الشريف راجح وقد سبق لنا ذكر أبيات منها. ومن أقواله في رثائه:

يا قبر سيدي سقاك الغيث من عزّ الفؤاد

خليتني في عنا والقلب في نار شبيبه

لأني بسامع نداك، ولا مجيبك لو تنادي

بيني وبينك هيال القوز وصخار صليبه[3]

---

(1) تخاتيخ واجزال:الأخاديد والهضاب.

(2) مقيبل الودود الحمدي الثقفي:نسبة إلى قبيلة الحمدة من ثقيف.

(3) هيال القوز:التراب المهيل على القبر.القوز:المقبر. صخار صليبه: صخور صلبة.

واتصل هذا البيتان بالوديود الشاعر فقال يجيبه بلسان المرثي:

أنا نزيل فسوح اللي رؤوف بالعباد

في جنة الخلد والفردوس وثماراً عجيبة

كتب لي الله في دار البقا شرباً وزادي

عند النعيم المقيم، وكل مسلم له نصيبه

إن غاب شخصي فإن النصر مثل الشمس بادي

والعز ماجود فايح للعرب مكة وطيبه[1]

عندك رجال، لهم طول البقا،شجع الأيادي

وأنت كما الحيت مالك عن ظلالتهم مغيبه[2]

يازيد خليك صبور، وكلّ زرع للحصاد

واليا وفي العمر سهم الموت ما يخطي الضريبه[3]

أنا أعرف إنك محب وسال دمعك في ودادي

والعمر محتوم وأمر الله ماضي في الغصيبة

ولا تجزع هداك الله ربي خير هادي

يبشر الصابرين بصبرهم عند المصيبه

ومن أكثر شعرائهم أخباراً، وأوفرهم أشعاراً، ناظم الفنين القريض والحميني المجيد فيهما معاً، الشيخ بديوي الوقداني، من قبيلة وقدان. كان في بدء أمره مشهوراً بنظم الحميني ثم قصد مكة فقرأ قليلا من النحو والأدب وعاد إلى بادية الطائف، فنظم القريض وفاق فيه أقرانه وتوفي سنة 1296هـ. وقد سبق ذكره في الكلام على

---

(1) ماجود:موجود.

(2) الحيت:ضلع الجبل.مغيبه:غياب.

(3) واليا:إذا.الضريبه:الضربة أو الرمية

القريض. وأما الحميني فمن قوله فيه يشكر انحباس الغيث:

ضاقت بنا الأرض وأشتبت شبابيها　　والـغيث محـبوس يا معبود يا والي!

يـا الله مـن مـزنــة هـبت هبـايبهـا　　رعادها بـات لــه في البحر زلزال[1]

ريـح العـوالي مـن المنشـا نجاذبهـا　　جذب الدلي من جبا مطوية الجال[2]

تسقي دياراً شديد الوقت حـاربهـا　　مـا عـاد فيها لبعض الناس مـنزال

ديمومة سـبلت وأرخت ذوايبهـا　　وأنهـلّ منهـا غـزير الوبــل همال

المـال يحيي رجـالا لا حيـاة بهـا　　والوبل يحيي مكـان المنبت البـالي!

وله من قصيدة:

دنيـاك هـذي كـلهـا هـز قـارون　　ما نعـرف الصاحب من اللي معاديك

وأكثر كلام الناس بالمكر والبوق[3]　　يهـرج معـك واليـا تقـفيت يرميك[4]

والمال دايم صاحبه مرتفع فـوق!　　والقلّ خـايب لو ترفعـت يـرخيـك[5]

وهو القائل:

انفكت السبحة وضاع الخرز ضاع　　بغيت ألمـه يـا سـليمـان وزريت

صار الذهب قصدير والورد نعناع　　أنكرت ريحـه مختـلف يـوم شـميت

البــاب طـايــح والمسـامير خلاع　　والحب فيه السوس والفار في البيت

أمسـيت أكيل الراي بالمد والصاع　　قسـت الأمـور وعفتهـا لمـا أتوريت

---

(1) مزنه: الغيمة الماطرة. رعادها: رعدها.

(2) ريح العوالي: الريح التي تهب من الأعلى. المنشا: السحاب القادم من جهة البحر. الجبا: فتحة البئر. جال البئر: بطنها وقعرها.

(3) البوق: الخيانة والسرقة.

(4) يهرج: يتكلم ويروي. اليا: إذا.

(5) القل: الفقر. خايب: يخيّب.

لا فـاقـد الحيـلة ولا قـاصر البـاع	ويـا الله يـا مولاي فيك استعزيت
الذيب رزقــه في مبـاديـة الأرواع	وأنـا بـرزقـي فـي زمـاني تـعنيت
وأنـا مـربى مـن زمـاني ومطـواع	ربتـنـي الأيــام حـتى تـربيـت!

ومن شعرائهم زيد بن هويشل العصمي. من قبيلة العـصمة. مـات سـنة 1320هـ شاباً لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وهو غير ذي شهرة في شعراء البادية، ولكن فـيهم من يراه على أبواب النبوغ. وقد تقدم شيء من شعره.

وممن عرف بنظم الحميني في أيام صباه الشريف عبد الله بن محمد بـن هـزاع، أحـد أعضاء مجلس الشيوخ بمكة اليوم. وقد سبق إيراد شيء من نظمه.

ومنهم عابد بن فهيد الزيادي من قبيلة ناصرة، وعيـضة بـن مـستور الزيـدي مـن ناصرة أيضاً، وبنية المولد من موالي بني سعد، وعطيه وجار الله من بني سعد. وعبد الله بن سفرة الطويرقي.

ومن المشهورين فيهم (العبد) واسمه سليم، راعي الأفلاج، وهي على مقربـة مـن الحسا. كان يلي بها وكالة الزكـاة للحكومـة، ويكثـر أبنـاء تهامـة والحجـاز مـن حفـظ مجالسيات (الهزّاني) وهو شاعر مشهور من قبيلة هزان في أطراف نجد.

شعر الملك

ويحسن بي أن أختتم هذا البحث، بإثبات قـصيدتين مـن الحمينـي، لجلالـة الملـك حسين، إحداهما قالها لما أوعزت إليه حكومـة الأسـتانة بمغـادرة مكـة سـنة 1309هـ وهي:

يا من لقلب به هواجيس وأفكار	وأمـسى يـكايلهـا بصـاع ومدّا
عـذّر ولا عــذّر ولا جاتها أزمار	مثل الـغـريق اللي بحبـلـه تجـدا[1]
تجلي ولا نرضى الهوينا ولا الــعار	وتجوز عـن مـاها ولو كان شهدا[2]

---

(1) عذر الأولى بمعنى ترك والثانية بمعنى لم يترك مجالا للعذر.

(2) الهوينا:الهوان.ماها:ماؤها.

وعلى نوال العز نسخى بـالعمـار وفيهاننـا المصقـول لطـام لعدا[1]

مـا عـزّلونـا منـه بمجـار ومجـار معزوزة محـداً عليهـا تعـدى[2]

يوم أنو بعض الناس قد عزّل مرار وأمسى يعـاني كـل همّ ووجدا[3]

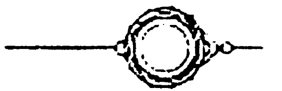
والثانية قوله قبيل رحلته إلى اليمن:

كيف البصر يال الحسن والبركات نـزالـة المشرق ومـن في تهامـه

أسمع طـواريكـم تسوّون خيرات ومن لا مشى تغشـاه منا مـلامـه

وإن جا من المقدور كم جاوكم فات والعمر له في اللوح خـط وعلامه

ننـصى أعـادينـا عـلى كـيف مـا والموت دون العز مـا بـه نـدامـه[4]



من مكة

يـوم الأربعـاء 10 جمـادى الأولى سـنة 1339 - 19كـانون الثـاني سـنة 1921 كنـت ويوسف ياسين على أهبة السفر، فدخلنا على جلالة الملك فودعناه، وأفضى إلينا ببعض ما تحدثه به نفسه، ثم ختم كلامه ببيت القائل:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا!

فقبلنا يده، وانصرفنا من حضرته داعيين له بطول البقاء. وبرحنا مكة عصر النهـار يصحبنا (بواردي) وهو عبد راكب يحمـل بندقيـة، ورأيـت رجـلا مـن البـدو حـاملا بندقيته على عاتقه، وشيئاً ملفوفاً بمنديل على رأسه أظنه طعاماً، يعدو أمامنا مـستمراً، فسألت رفيقنا(البواردي) عن شأنه فقال: هو دركي من عـسكر سـيدنا. ولم ألبـث أن رأيته بعد ساعة من مسيره قد وقف بعيداً، وصاح صـيحتين عـاليتين قـائلا: عـن أمـر

---

(1) بالعمار: بالإعمار. وفيهاننا: وفي إيماننا. لعدا: الأعداء.

(2) عزلوناكأخرجونا، والأولى من الجور والظلم والثانية من من الإجازة والحماية. محدا: لاأحد.

(3) أنو: إنه. عُزل: انتقل مكرها.

(4) ننصى: نقصد. ما جات: ما جاءت.

سيدنا، بالنهار واحد، والياهوّد الليل، يأخذون ثلاثة.. وغاب عنا فلم تمض خطوات حتى طلع آخر. ومررنا بموضع يسمونه(المرقد) تبتدئ فيه تلال رملية يرقشها الهواء وتنتقل مع الرياح، رافقتنا إلى أن بلغنا(الشميسة) وقد أقبل الليل، فنزلنا بها. وهي متنزه حسن في تلك الصحراء فصلينا المغرب بعد أن كنا صلينا العصر في قهوة قبلها يسمونها(قهوة سالم).

وبعد ساعتين ونصف من مغادرتنا الشميسة بلغنا (بحرة) وهي مقاه(قهاوي) متصلة وفيها بضعة بيوت. وقد رافقنا إليها فتى عتبي من الدرك العربي لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة فأراد العبد فوزان(رفيقنا) أن يعبث به فناداه: يا ورع!(أي يا غلام) وأنت ما تصنع في هذا البر؟ فقال:- وهو يعدو أمامنا- أنا الورع والله باثنين من حرب!

وحرب قبيلة كبيرة منازلها بين الحرمين، ومنها كثيرون في درك مكة، رافقنا بعضهم أيضاً.

وسألت الفتى: تجري يا عتيبي؟ (وأكثر من في بادية الحجاز يقولون جرى ولم أسمع منهم ركض) فقال العتبي: أي بالله إعدي! -فعرفت أن عتيبة أو بعض بطونها يقولون: عدا-

وفي عتيبة ذكاء مفرط وشجاعة خارقة. وفيها من يقلب القاف جيما فيقولون(الصدج) بدلا من الصدق.

وبتنا في(بحرة) على كرسي مستطيل تظللنا السماء واللحاف، وقد وضعت خرجي وأمتعتي قريبة مني، وقيدتها من أسفلها بخيط ثخين عقدت طرفه على مرفقي وسترته باللحاف حتى إذا طرقنا سارق وأراد استلابنا شيئاً شعرت به، وكنت كثيراً ما أصنع هذا في القفر.

ونهضنا قبيل طلوع الشمس، فصلينا الصبح وسرنا، فبلغنا مكاناً(وهم يقولون وصلة) يدعى (حصاة أم البومة) رأينا منه البحر، بعد مسيرة ساعتين ونصف من (بحرة) ثم انتهينا إلى قهوة (الرغامة) فمكثنا بها قليلا واتجهنا نحو(جدة) وقد لاحت لنا منازلها والشمس تلذع رؤوسنا، فبلغناها قبيل الظهر نركب تارة ونمشي حيناً، وللتعب وحرّ الشمس في أجسامنا نصيب.

بتنا هذه الليلة في جدة، ونهضنا في الصباح فذهبنا إلى موظف الجوازات (الباسبورتات) ومعنا أمر مطاع من صاحب الجلالة يوجب إعطاءنا جوازين هاشميين حجازيين، فلبى الموظف الأمر، ونادى كاتبا عنده أملى عليه صفاتنا(لأن الصور غير إجبارية هناك) وانتهى إلى لحيتي، فقال للمستملي: أكتب: حليق فتردد الكاتب.. وقال: بلحية يا سيدي. فأدار الموظف وجهه وقال متأففا: يحلقها في الباخرة يا ابني! .. فضحكنا، وتناولنا جوازينا فبعثنا بهما إلى المعتمد البريطاني ليمضيهما، وهناك العقدة..

اضطرب الهاتف(التلفون) في دائرة مدير الرسومات ونحن عنده، وقد أرسلنا الجوازين مع أحد رجاله، فأخذ السماعة وهو يقول: خير: -بدلا من كلمة(آلو) التي لم أسمعها في الحجاز قط- فإذا ترجمان المعتمد يسأله عني: أليس الذي جاء من مصر بغير جواز؟ فسئلت، فقلت بلى! لينتظر الباخرة الثانية!.. ومن أصعب الأمور على المتهيىء للسفر أن يقال له رويدك:-

فأعاد عليه مدير الرسومات السؤال عن السبب فأجاب بأن المعتمد يريد أن يستأذن حكومة مصر.

وهنا لم يسعني إلا أن طلبت مركز(سنترال) مكة وخاطبت الأمير زيد بالأمر، وكان في مخلوان صاحب الجلالة، فتناول جلالته الهاتف وطلب المعتمد الإنجليزي بحدة، فأجابه، وتداولا حديثاً عرفت بعد ذلك أن جلالته أخبره فيه بأنني موظف في الديوان الهاشمي وأنني مرسل في أمر رسمي وأن عليه تبعة تأخيري..

وبعد أخذ وردّ وإرخاء وشدّ!، أفتى المعتمد بجواز الجواز، وأصحبني بكتاب إلى موظف الجوازات في السويس يزعم أنه يوصيه بي خيراً من آمنه على قراءته فخفت أن يكون صحيفة الملتمس، فأخفيته في حقيبتي...

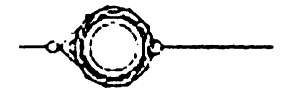
ركبنا الباخرة(دقهلية) صباح السبت 23 يناير(كانون الثاني) 1921- 13 جمادى الأولى 1339 وكانت ليلة الأحد شديدة الرياح ابتدأت العواصف عند منتصفها. وبلغنا(ينبع البحر) ضحى الأحد، فمكثنا خمس ساعات نزلنا في خلالها إلى هذه البلدة بل القرية، واخترقنا سوقها الضيقة المستطيلة، وراعنا ما فيها من تكاثف الذباب كالضباب!.

وجرت بنا(الدقهلية) عصر النهار، والرياح تميل بها يمنة ويسرة، وهناك شعرنا

بالبرد الذي فارقناه منذ رافقتنا اللحية، ورافقناه حين فارقناها!

ولم تهدأ العواصف قبل طلوع صباح الثلاثاء، وقد أرست بنا السفينة في ميناء الطور، التي أبحرنا منها بعد وقوف ساعة ونصف، واليم هادئ. وأصبحنا يوم الأربعاء 26 يناير، والخدام ينادوننا: السويس. فنهضنا إلى ملابسنا ونحن نقول معهم: السويس.

السويس



ونزلنا بعد هنيهة، فشرح موظف الجوازات على جوازينا، وأردنا الانصراف فإذا بإنسان يقودنا أو يرافقنا، رأينا أمره، فسألته عن شأنه فأجاب- والتبجح ملء شدقيه- مأمور بإيصالكما إلى القطار.. فازددنا ريبة، وبلغنا المحطة وقد بقي لموعد السفر نحو ساعة، فوقفنا وصاحبنا ملازم لنا لا يفارقنا، فأعدنا عليه السؤال قائلين: ها قد قمت بما أنت مأمور به! فهل من حاجة لك؟ قال: نعم! الأمر يقضي بأن لا أدعكما حتى تركبا القطار وتسافرا أمامي، فلم يداخلنا شك في أنه(بوليس سري) ولكننا أردنا أن نتثبت، فسألناه عمن أوحى إليه.. فقال: لا يعنيكما! قلنا: أأنت موظف في الحكومة؟ فقال: نعم! وهاهي شارتي، وأرانا جانباً من قطعة بيضاء مكتوبة قد أخفاها في باطن معطفه ولم يسمح لنا بقراءة ما فيها..

صبرنا على حكم القضاء. وقد أردنا أن نبرح المحطة قليلاً لشراء حاجات فحاول أن يمنعنا، بل منعنا بكل عنف، فخضعنا لإرادته، ثم دخلنا إحدى عربات القطار الواقف وانسللنا من جانبها الآخر، وكم كان سرورنا عظيماً حين شعرنا بلذة الانفلات والانطلاق والحرية.. فتجولنا قليلاً وعدنا فركبنا وصاحبنا يبحث عنا، فرآنا والقطار على أهبة السير فقفز نحونا متعلقاً بالقطار، وهو يقول: أين كنتما، لقد أتعبتماني... قلنا: هانحن مسافران فأعلم من أرسلك.. فقال: وأجرتي؟ قلنا: على أي شيء؟. قال: على مرافقتي لكما ساعتين!.. وهنا غلب علينا الضحك. فدعونا شرطياً قريباً منا -كنا نخشى أن نكلمه قبل ذلك- فحدثناه بخلاصة الواقعة فقبض عليه.

ومشى القطار بغتة فلم نعلم ماذا حدث.

وبعد خمس ساعات وعشرين دقيقة كنا في القاهرة، فركبنا سيارة حملتنا إلى مصر الجديدة (هليو بوليس)، حيث كان بعض أصحابنا، وأقبل علينا من نعرف يهنئوننا بالسلامة!

تمت الرحلة

كشاف حضاري وفهارس

آيات قرآنية

أحاديث شريفة

أجناس وقبائل

(أ)

(ب)

أسلحة

أسواق

أشعار (القوافي)

أعلام

(أ)

(ن)

أماكن

(ح)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

أمثال وأقوال

أمراض وكوارث

جواهر وحلي

حيوانات

طعام وشراب

كتب

لباس

مساجد

مصطلحات

معالم أثرية

منشآت

مواسم وعادات ومناسبات

نباتات

نقود

هيئات ومنظمات وأحزاب

وسائل وأدوات

الفهرس